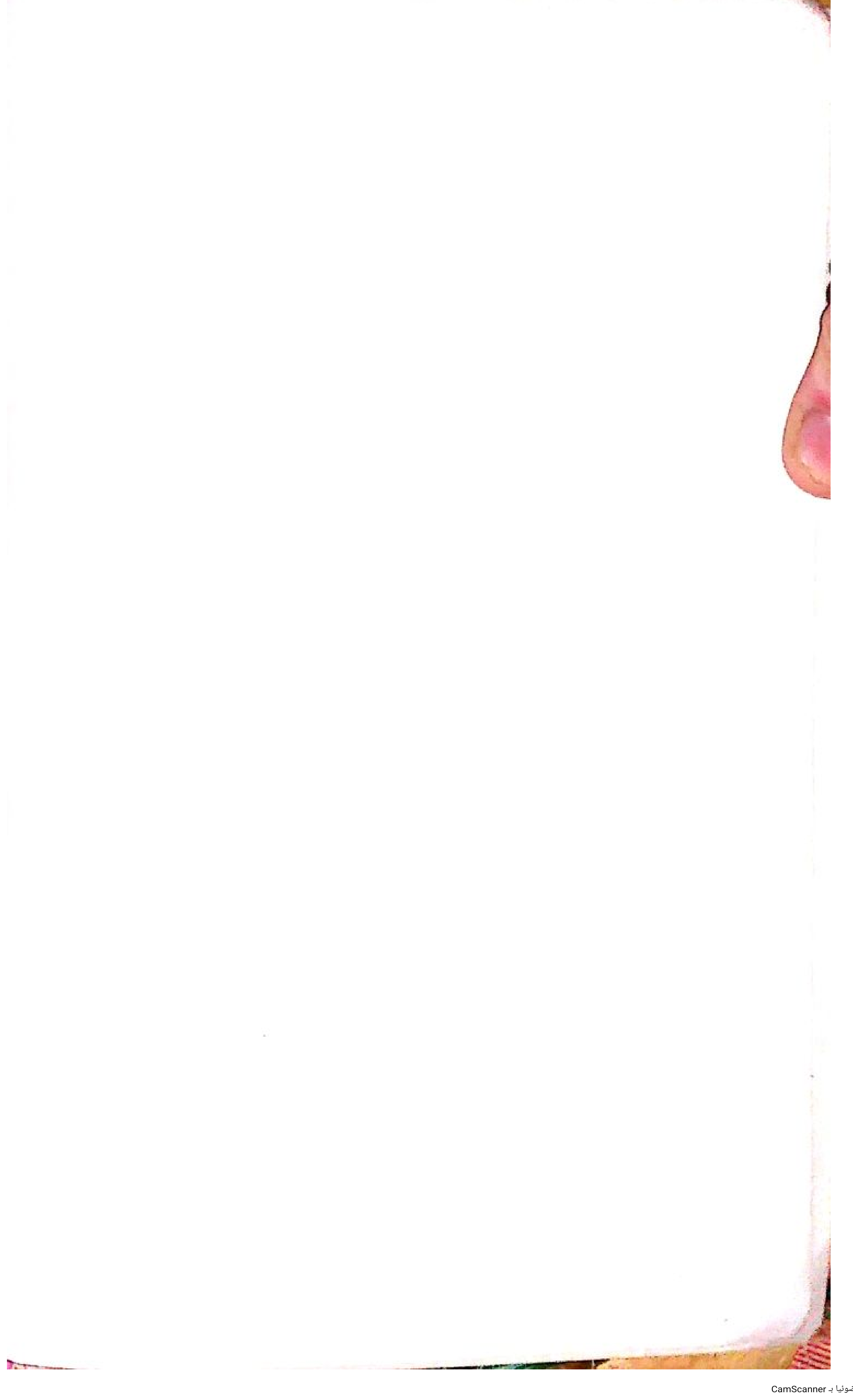
محمد بن عمرو الطمار

تلمسان عبر العصور

دورها في سياسة وحضارة الجزائر





محمّد بن عمرو الطمار

تلمسان عبر العصور

دورها في سياسة وحضارة الجزائر

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 81/1076
© المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر ـ 1984

تقديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

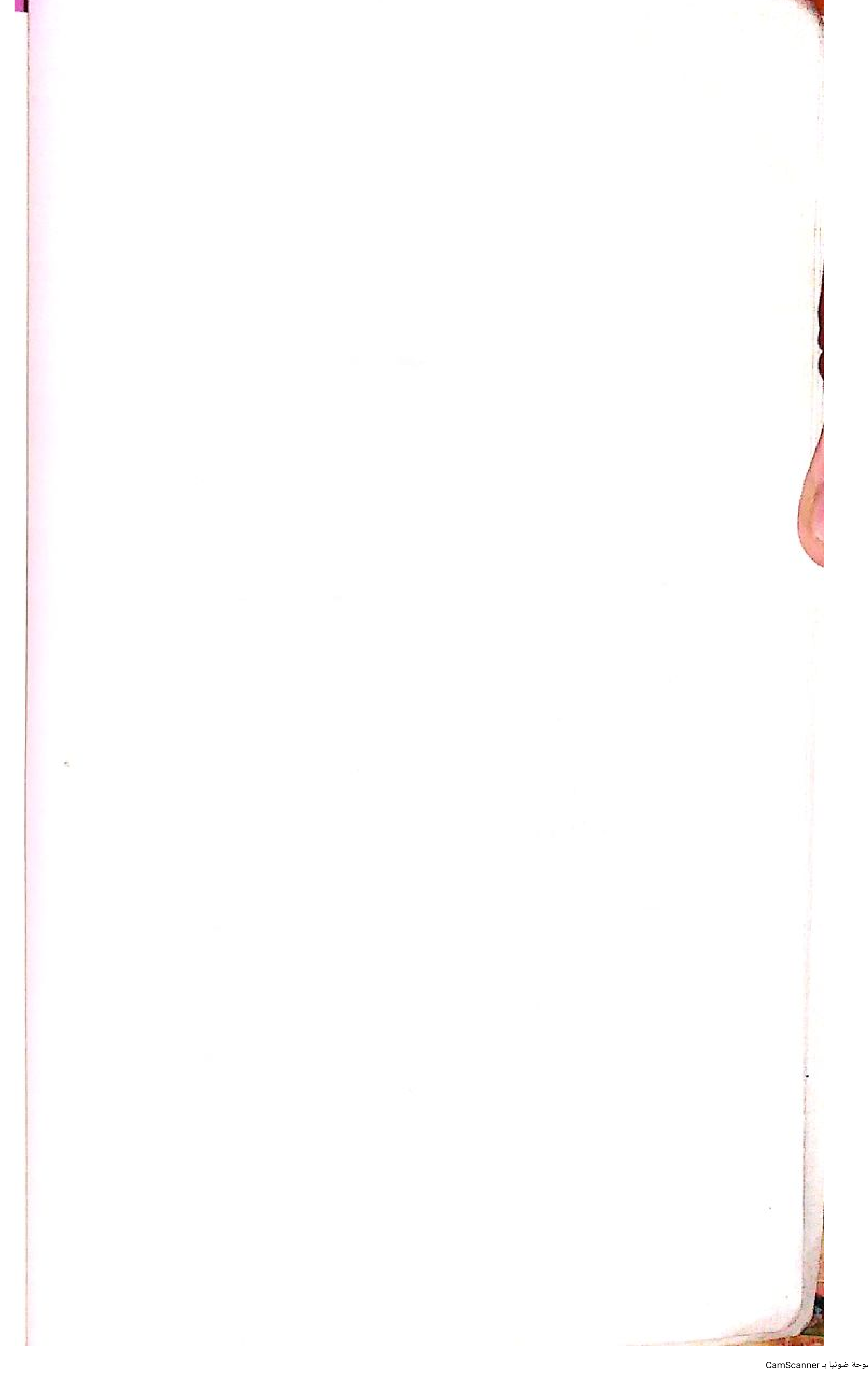
وبعـــد ،

فشدّ ما يسرّنا أن نقدّم للقراء الكرام المتعطشين الى معرفة التاريخ القومي هذا البحث المتواضع حول حياة تلمسان السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والاقتصادية عبر العصور.

فقد سبقنا غيرنا في هذا المضمار ، ولقد تستحقّ بحوثهم التنويه . الا أنهم يتناولون فيها الحديث عن جانب متعمّقين مطنبين بينما يتعرضون لغيره بصفة خاطفة أو يغفلون عنه بالكلية . أما نحن ، في كتابنا هذا ، فقد حاولنا أن نأتي ببحث شامل منسجم عن حياة تلمسان ـ حرسها الله وبارك في أهلها ، من القديم الى أيام الاحتلال الفرنسي ، وذلك من جميع نواحيها . ولا نعني بذلك أننا قد أحطنا بجميع قضايا تاريخ هذا البلد ، ولكننا ، على كل حال ، عملنا ما في وسعنا لابراز معالم الشخصية التلمسانية من جهة ، والدور الذي لعبته هذه المدينة في تاريخ الجزائر وما ترتّب عن هذا التاريخ من ازدهار وانكماش من جهة أخرى .

وقصارى القول ، فإن مشروعنا هذا ليعدّ لبنة من لبنات الهيكل التاريخي الجزائري الذي لابدّ من تشييده لنشئنا الجديد الواعي .

محمد بن عمرو الطمار



الموقع

إنّ مدينة تلمسان تقع في الإقليم الغربي من أرض الجزائر (1) الذي اصطفته الطبيعة لتبرز جمالها لمن يهواها ويقيم في حضنها ، وتقتعد بسفح جبل يحفظها من الجنوب عروسا فوق منصة (2) أو ملكا على رأسه تاجه (3) . يطل منها على سهول خضراء واسعة الأرجاء تحدّها سلسلة من التلال قليلة الارتفاع لا تصدّ هواء البحر البليل عن الانتشار في ذلك الإقليم ، فيخفف من وطأة الحرارة في الصيف ويجود عليه في الفصول الأخرى بسحوب ممطرة تروي الأرض فتفيض العيون وتتدفق الغدران وتكثر الأعشاب وتزدهر البساتين . ولم يسمّ الرومان ذلك البلد «يوماريه»، أي البستان عبثا . فكانت دائما تنعم بتلك المياه النميرة وبتلك الخضرة السميكة (4) وبذلك الهواء الصحيح العتيد . ولقد أصاب الخطيب بن مرزوق في قوله عن تلمسان : «يكفيك منها ماؤها وهواؤها» . وإن ننس فلا ننس وادي «متشكانة» الذي يأتي من الجنوب ويعرّج على الجانب الشرقي من البلد والذي نضبت مياهه في هذه الأيام وغزاه البناء من كل مكان .

---

(1) حيث الطول 14 درجة و 40 دقيقة والعرض 33 درجة و 42 دقيقة (أبو الفداء) .

(2) يحي بن خلدون : بغية الرواد .

(3) لسان الدين بن الخطيب .

(4) في خارجها أنهار وأشجار (أبو الفداء) .

فشبه المقري هذا البلد وهذا الوادي أحسن تشبيه فيقول :

بلـد تحـفّ بـه الرياض كأنّه   وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديـه معصم غادة   ومن الجسور المحكمة سواره (1)

ويكتنف تلمسان غربا أطلال المنصورة التي شيّدها «أبو يعقوب يوسف» المريني سنة 698 هـ (1299 م) وشرقا قرية العبّاد العالية . فإذا صعدت إليها وأطللت على المدينة وضواحيها زالت عنك همومك . فقال الثغري كاتب بني زيان :

ولتغـد للعبـاد منهـا غـدوة   تصبح هموم النفس عنك بمعزل (2)

بـومـاريـة :

طالما بحثنا عن اسم المدينة في العصور القديمة فلم تفدنا به كتب التاريخ ، فلم يصلنا إلا اسمها الروماني وهو «بومارية» إلاّ أن هذا الإسم لا يعني أن المدينة تأسيس روماني ، فلا شك أنها أقدم من وجود الرومان في تلك الناحية من البلاد ، ولا شك أنها كانت تحمل اسما آخر بربريا ، لأن موقعها الطبيعي الجميل الجغرافي الاستراتيجي الفريد من شأنه أن يجعل منها أرضٍ استقرار آهلة ، فلا يمكن إذن أن تبقى بدون اسم . ولعلّ اسم«بومارية» ما هو إلاّ ترجمة للإسم البربري القديم

لما استتبّ الأمر للبربر بعد تقويض نفوذ الأجانب من روما ووندال وروم أطلقوا عليها بلغتهم اسم «أڤادير» (3) ما يعادل العبارتين العربيّتين : «جدار قديم ، ومدينة محصنة» . فالمعنى الأول يدل على أن (أڤادير) مدينة عريقة في القدم أزلية (4) حتى دفعت بعضهم إلى أن زعموا أن الجدار الذي ذكر في القرآن (5)

---

(1) ماؤها مجلوب من عين علو ستة أميال منها (أبو الفداء) .

(2) تاريخ الأدب الجزائري ، ص : 234 .

(3) يذهب (برجيس) أن كلمة (أڤادير) قد تكون من أصل فينيقي ، أو قرطاجي وحجته هي أن في اللغة العبرانية كلمة قادر ، ولا شك أن نفس الكلمة في اللغة الفينيقية إذ أن كلتا اللغتين سامية . أما نحن فلا نؤمن بأن أڤادير منبثقة من الفنيقية أو القرطاجية رغم ما نعلم من اتصال البربر الوثيق بالفنيقيين وتأثرهم بهم ما دمنا نجهل اللفظة الفينيقية التي كان منها اشتقاق كلمة أقادير البربرية .

(4) كتاب الاستبصار .

(5) سورة الكهف 18 آية ، 76 .

في قصة (الخضر) (وموسى) عليهما السلام هو بناحية (أقادير) . فإن عبد الرحمن بن خلدون ينكر عليهم ذلك ونحن نؤيده . فإنّ موسى عليه السلام لم يفارق المشرق ولم يدس البتة أرض هذه البلاد ، وأن بني إسرائيل لم يتسع ملكهم لأفريقية فضلا عما وراءها . ونفهم من المعنى الثاني أن (أقادير) كانت مدينة ولكنها تغاير المدن المبثوثة حينئذ في ذلك الإقليم . فلا شك أنها كانت مصرا بالنسبة اليها وكانت محصنة كأنك بها قلعة يحيط بها الأسوار والأبراج المنيعة ، وأبت الطبيعة إلاّ أن تزيدها تحصينا ـ الوادي من جهة والجبال من جهة أخرى ـ بحيث لا يخاف سكانها من إيقاع المتمرّدين بهم أيّام الفتن والاضطرابات ، وما أكثر ما كانت هذه وتلك عهدئذ !

ثم سميت المدينة (تلمسان) . وهذا الإسم في لغة زناتة ، قوم الإقليم ، مركب من (تلم) ومعناه تجمع ومن (سان) ومعناه إثنان أي الصحراء والتل . وهكذا جاء شرح كلمة (تلمسان) في النفح عن أبي عبد الله الأبليّ شيخ المقري ، وكان حافظا بلسان البربر . ويذكر المقري أيضا أنه يقال تلمشان وهو مركب من «تلم» ومعناه لها «وشان» أي لها شان (1) . ويذهب ابن الرقيق الى أن (سان) من تلمسان يفهم منه البر والبحر . وفي لغة الأطلس ، آيت عطا ، بالمغرب الأقصى كلمة تلمسين ومعناها أرض منبسطة بين الجبال .

وهكذا جاءت في المسالك والممالك لابن خرداذبه (2) وفي كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني (3) . وعند نفس البربر كلمة تِلْمَسْت وجمعها تِلْمَسِين وكلمة تَلْمَسْت وجمعها تِلْمِسان ومعناهما واحد هو أرض تنعم بالمياه والأعشاب والأشجار . وعلى هذا فإن لفظة (تلمسان) لا تطلق على المدينة التي كانت تعرف عند أهلها (بأقادير) وإنما على هذا النوع من المدن الواقعة في حضن أرض تحيط بها الجبال وتنعم بالمياه والأعشاب والأشجار . وعلى كل حال فإن كلمة تلمسان (بربرية) الأصل . وجغرافيو العرب كلهم بعد خرداذبه وابن الفقيه أطلقوا

---

(1) نفح الطيب ، ج 9 ، ص 24 .
(2) جغرافي نشأ ببغداد في القرن الثالث الهجري (التاسع م) .
(3) جغرافي عاش في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع م) .

على تلك المدينة اسم (تلمسان) وهو اسم يوافق المسمى كما وافقها اسم (بومارية) في عهد الرومان . فإن كلمة تلمسان وكلمة (بومارية) متقاربتان من حيث المعنى . فتلمسان غوطة عند الرومان والبربر معا ، تضمها الجبال شرقا وجنوبا وغربا ، ويرسل اليها البحر شمالا نسيمه المنعش ويجودعليها بنداه النافع . ولله در ابن خميس حيث يقول :

تلمسان جادتْك السحاب الروائح وأرست بواديك الرياح اللواقح

ويعني الشاعر بالوادي وادي الصفصيف الذي يستدير بقبليها وشرقيها (1).

احتفظت لنا تلمسان القديمة (بومارية) بأطلال قليلة جدًا ، تعود إلى عهد الرومان ، بقايا من سور كان يحيط بها وأحجار ملقاة هنا وهناك استعمل بعضها في تشييد الجزء الأسفل من الصومعة (شكل 1) التي أمر ببنائها «يغمراسن بن زيان» العبد الوادي في القرن الثالث عشر والتي لا تزال قائمة تناطح السماء الى يومنا هذا بجانب ما بقي من آثار المسجد الذي بناه المولى إدريس بن عبد الله ، رحمه الله . في صفر سنة 174 هـ والحمام الذي كان بجوار هذا المسجد .

إن هذه الأحجار رومانية ، فليس في ذلك من شك ، نظرا لشكلها ونحتها وللكتابات التي تحويها بعضها بالخط اللاتيني . ولا نتعجب من أن (بومارية) كانت محصّنة بالأسوار . فقد وفد على (أقادير) «اليعقوبي» ثم «ابن حوقل» وكل منهما وصف هذه المدينة ، ولكنهما لم يتفقا فيما يخص الأسوار ، «فاليعقوبي» يقول : إن الأسوار مبنية بالحجر وكان يحيط بالمدينة سور داخلي وآخر خارجي . أما «ابن حوقل» فقد رآها مبنية بالآجر في بعض جهاتها ولم يذكر السور الثاني . فإن هذا الاختلاف بين الرجلين ناجم عن أن ما رآه «اليعقوبي» مشيّدا بالأحجار هو ما بقي من أسوار (بومارية) لأن الرومان كانوا يستعملون الحجر في بنائهم ، وأن هذه الأسوار قد بليت وتصدّعت أو تهدّم بعضها من جراء الاضطرابات والفتن التي تعرضت لها المدينة في مختلف العصور ، فقام أهلها في عهد (أبي قرّة) وفي عهد (إدريس الثاني) وإثر الصراع الذي دام طويلا بين الأموية والشيعة ،

---

(1) أبو الفداء .

ورمموها أو جددوها مستعملين الآجر ، والآجر كان متوفرا (بأقادير) يقوم بصنعه الفخارون ، (والبكري) يحدثنا في مسالكه عن الدخان الذي كان يتصاعد من معاملهم ، فإذا كانت (پومارية) محصنة بالأسوار المنيعة المشيدة بالحجر . والآجر الذي رآه ابن (حوقل) ستين عاما تقريبا بعد «اليعقوبي» الذي زار أقادير سنة 880 هـ طارىء حديث العهد .

شاءت الأقدار أن يحتلّ الرومان شمال كل من أفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى وأن يختطوا طريقين تذهبان من قرطاجة إلى طنجة ، الأولى منهما تخترق التل والثانية تعرج على ورجلان وتتلاقى حتما مع الأولى (پومارية) الممر الوحيد وقتذاك بين المغربين الأوسط والأقصى . وتلك الربوع كانت آهلة بقبائل زناتة أهل النجدة والبأس الذين لم يعرفوا الخضوع للأجنبيّ ولم يروا بعين الرضا وجوده على ظهرانيهم ، الأمر الذي اضطر الرومان إلى أن يقيموا في ذلك المكان الاستراتيجي المحفوف بالأشجار الكثير المياه حصنا حصينا ويحشدوا فيه جنودا يصدّون غارات الأهالي وهجوماتهم على قوافلهم . ولم تكن (پومارية) معسكرا فحسب ، فقد اعتنوا بتعميرها وتزيينها وإقامة سور لحمايتها ، ولدينا كتابة على اسطوانة عثر عليها بمقبرة اليهود بتلمسان تشهد بأن (پومارية) صارت مدينة تتمتع ، ككافة المدن الرومانية الهامة، بجميع مقوماتها السياسية وذلك في عهد «الأسكندر سيفر» . وتفيدنا كتابة أخرى على حجارة توجد بأحد جدران الجزء الأسفل من صومعة أقادير بأن حمامات كانت بتلك المدينة وكانت خاصة بالجنود ، وقد رمّمها «سيسيليوس جوفينوس (3) Cecilius Jovinus » . وكان جنود هذا الحصن وثنيّين يعبدون ربّا يسمى «أولسوا» . فإن حجارة ثانية في أحد جدران نفس الصومعة مكتوب عليها ما نصه «أولسوا الغير المغلوب» (4) .

فالنصرانية اذا حديثة العهد بالجزائر ، فقد بدأت تتسرّب إلى بلادنا في القرن الثالث ميلادي ، وأخذت تغزو الوسط الأقاديري ، ولكن في قلة لأن

---

(1) مارسي . Piesse et canal. les villes d'Algérie : Tlemcen

(2) بياس وكنال . مدن الجزائر : تلمسان

(3) بياس وكنال مدن الجزائر : تلمسان :

(4) نفس المصدر .

البربر كانوا متشبثين بدين أجدادهم ، يأنفون من دين العدو الذي يريد اضطهادهم واستعبـــادهم .

وجلبوا إلى المدينة المياه العذبة الصريدة بواسطة قنوات ينهي بعضها إلى الوريط في شكل شلال يأخذ بمجامع القلوب (شكل 2 و 2 مكرر) ويسمي أهل البلد هذه القنوات ساقية الرومي أو النصراني . وقد ذكرها شاعرنا الكبير ، ابن خميس ، في قصيدته الحائيه فيقول :

لساقيـة الرومـي عنـدي مزيـــة وان رغمت تلك الرواسي الرواشح
فكم لي علـيهـا من غـدو وروحـة تسـاعـدني فـيها المنى والمنـائح

وماء الوريط يصب في نهر صَطْفسيف الذي كان عليه بساتين وأرحية (1) والذي يسميه الثغري الصفصيف ويصفه قائلا :

ينساب كالأيم انسيـابا دائمـا أو كالحسـام جلاه كفّ الصيقـل
فـزلالـه في كـل قلـب قـد حـلا وجمالـه في كل عين قـد حـلي (2)

كانت طرق تربط (بومارية) بالبحر أهمها الطريق التي تذهب إلى (صيغة) عاصمة (صيفاقس) بمصب (تافنة) والطريق التي تؤدي إلى ميناء (وهران) المسمى وقتئذ بمرسى الآلهة والى الميناء الكبير (بأرزيو) عن طريق (تموشنت) Albulac . فإن كل ما شيد في ذلك العهد وفيما بعد قد اندثر ، فحل محل (بومارية) وأقادير الرياض الغناء والمنازل العصرية الأنيقة التي تؤلف مشهدا يأسر القلوب والأبصار يطل عليه ويرعاه اللقالق من أعلى المنار الذي يخلد ذكر مشيّده العاهل «يغمراسن بن زيان» ومن فوق قبة سيدي الداودي الذي كان يُذهَب اليه من باب العقبة من الجهة الشرقية . فلا أثر لباب الحمام وباب وهب وباب الخوخة التي كانت تفتح على مصراعيها لمن يدخل المدينة من الجهة الجنوبية ، ولا لباب أبي قرّة من الجهة الغربية .

اضمحل نفوذ الرومان في البلاد وخلفهم الوندال ، نزل هؤلاء إلى أرض الوطن من جهة الغزوات المعروفة وقتئذ باسم «آد فراطريس Ad Fratres » ،

(1) البكـري .
(2) الثغـري .

وانتشروا في البلاد تاركين وراءهم الدمار والخراب أينما حلّوا، فمن البديهي أن تتضرّر (أقادير) ، ولكن الله أنزل لطفه على ذلك الإقليم ، فابتعد عنه الوندال نحو شرق الجزائر وأفريقية معقل السلطات الرومانية ومعظم جيوشهم . فتنفّس اذ ذاك أهل (أقادير) الصعداء وأمكنهم أن يتمتعوا بنوع من الحرية التي لن تكون حقيقية وكاملة حتى يزول تماما نفوذ الوندال ونفوذ الروم من بعدهم ، ويأتي العرب بالكتاب الذي ينادي بالمعرفة والحرية والإخاء والعدل والمساواة .

رأى البزنطيون أن ينقذوا موقف (روما) من خطر الوندال بأفريقية والمغرب . فنشبت الحرب بين الفريقين حتى أودت ضربات البزنطيين من جهة وضربات الأهالي من جهة أخرى بنهاية الحكم الوندالي ، فاستتب الأمر للبزنطيين ، وبسطوا نفوذهم على البلاد . ولما رسخت قدمهم أظهروا قوانين فاصلة بينهم وبين الأهالي . فهؤلاء وجدوا هذه الوضعية لا تنسجم مع طبيعة البلاد ، فبدأ النزاع بين الفريقين ، فأعلن الشعب كراهيته على الحكام بإعلان الثورة في وجوههم .

فتـح المغـرب

في العهد الذي كان الروم بالجزائر وقع حادث كان له أثر خطير في مجرى التاريخ ، ذلك هو مبعث (محمد صلى الله عليه وسلم) وقيام العرب بالفتوحات ، فأسسوا دولة واسعة الأطراف شرقا ثم فتحوا غربا مصر ثم بلاد المغرب العربي فالأندلس . دخل العرب مصر تحت قيادة «عمرو بن العاص» في عهد «عمر بن الخطاب» وفتحوا (الأسكندرية) ثم (برقة) . فأصبحت هذه المدينة قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر . وقد فكّر «عمرو بن العاص» في متابعة الفتح والاستيلاء على شمال أفريقية ، فاستأذن «عمر بن الخطاب» في ذلك ، فنهاه عن التمادي في الفتح ، فامتثل الأمر وبقي واليا على مصر حتى استشهد الخليفة (عمر) وخلفه «عثمان بن عفان» . وكان أول ما فعله (عثمان) أن عزل (عمرو بن العاص) عن ولاية مصر . فقلدها «لعبد الله بن سعد بن أبي سرح» ، أخيه من الرضاعة سنة 24 هـ ، وأمره بعد تردد بغزو أفريقية ، فأغار عليها وفتح (اسبيطلة) ، وبلغت جيوشه (قفصة) ، ثم رجع إلى مصر.

ولما استتبّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بعد مقتل علي بن أبي طالب «عزل معاوية بن حديج» عن أفريقية واستعمل عليها «عقبة بن نافع الفهري» وكان مقيما ببرقة منذ فتحها أيام «عمرو بن العاص» . فسير له الخليفة عشرة آلاف فارس فدخل أفريقية وانضاف من أسلم من البربر ، فتضخم جنده وأمكنه أن يفتح به أفريقية وأسس القيروان سنة 55 هـ يعتصم بها العرب عند الخطر ، والغنائم كانت ترد كثيرة على الخليفة من أفريقية فإذا بها قلّت أو قل انقطعت باشتغال (عقبة) بتأسيس مركزه الحربي طوال خمس سنوات ، هذا من جهة ومن جهة أخرى أخذت السعايات ضد (عقبة) تلعب دورا هاما في بلاط الخليفة بدمشق ، وفي الوقت نفسه استعمل «معاوية» «مسلمة بن مخلد الأنصاري» على مصر ، فكان في مقدمة من سعى لعزل «عقبة» ، فعزله «معاوية» وضمّ أفريقية لمصر طمعا في مواردها الوفيرة (1) ، وأصبحت لمسلمة مع مصر (2) - والأستاذ «هنري طيراس» يذهب الى أنّ معاوية عزل عقبة خوفا من أن يستقل عن الخلافة(3) فإننا لا نرى رأيه في ذلك ؟ فكيف يمكن «لمعاوية» أن يتخوف من «عقبة» أن يستقل بأفريقية والدولة الأموية قوية لا تزال في ريعان شبابها والمغرب لا تزال به مقاومة عنيفة من طرف البربر ؟ وذكر «المالكي» أن «مسلمة» وجه «خالد بن ثابت الفهمي التابعي» إلى أفريقية ولم يلبث أن عزله واستعمل مكانه مولاه «دينارا أبا المهاجر» . فقدم إلى القيروان في سنة 55 هـ (574 م) في جيش من أهل الشام ومصر ، وعزل «عقبة» واستخف به وسجنه وأوقره حديدا . فقام «عقبة» في الحبس شهورا . ثم أطلقه حين أتاه كتاب «معاوية بن أبي سفيان» بأن يخلي سبيله وأن يشخصه اليه ، ، وجميع المؤرخين العرب متفقون على ما نال «عقبة» من «دينار أبي المهاجر» (4) ، ويعتقد «الدكتور حسين مؤنس» أن «أبا المهاجر» لم يتصرف من تلقاء نفسه وأنه أرغم على الإساءة إلى «عقبة» مدفوعا في ذلك بتعليمات تلقاها من «مسلمة» بن مخلد الذي كان يحقد على عقبة لما ناله من

---

(1) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص : 147

(2) ابن عبد الحكم ، ص : 66 وابن عذاري ، ص : 21 .

(3) طيراس - تاريخ المغرب ، ص : 80 .

(4) ابن عبد الحكم ، ص : 66 والمالكي ، ص : 21 وابن عذارى ج1 ص : 22 وابن الأثير : الكامل ج 3 ، ص : 235 .

شرف غزو أفريقية ، إلا أن «مسلمة» نفى التهمة عن نفسه وألقاها على «أبي المهاجر» خوفا من «معاوية» حين يقص عليه «عقبة» ما نزل به من مساءه على يديه (1) . فاعتذر «معاوية» اليه ووعده أن يعيده إلى عمله (2) . هذا ما يدل على أن «معاوية» كان يعلم مقدما أن تصرف «أبي المهاجر» لم يكن من تلقاء نفسه وأنه كان مرغما على ذلك التصرف وإلا ما كان قد كتب اليه الإفراج عن «عقبة» وإشخاصه اليه وإلا لكان قد أمر بعزل «أبي المهاجر» وتأديبه (3) .
فقد تخوف البربر من العرب أن يستقروا بالمغرب بتشييدهم القيروان . وبالفعل كان العرب ينوون أن يستطينوا البلاد لنشر الإسلام وتعريب البربر وتمدينهم . فكيف يمكن للعرب أن يبرحوا أرضا تمركزوا فيها وقد أسلم عدد منهم من أولادها ؟ فأخذ «كسيلة بن لمزم» سيد أوربة يجمع القبائل ويؤلبها على العرب حتى يطردهم من البلاد ، وضرب بحشوده في نواحي «تلمسان» فتصده «أبو المهاجر» على رأس جيش من العرب وممن أسلم من البربر ، قبائل أوربة وأحلافها من بربر وروم ، ففتح في طريقه مدنا وقرى حتى انتهى إلى عين مهاجر بأعلى الجبل المطل على «تلمسان» حيث كان «كسيلة» معسكرا بجموعه (4) . فالتقى الجيشان هناك ، فدارت معركة حامية بينهما ، فانتصر المسلمون وأسر «كسيلة» فحمل إلى أبي المهاجر ، وكان هذا على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر (5) ، فأحسن إلى خصمه وقربه وعامله معاملة الملوك (6) وتمكن «أبو المهاجر» من البلاد. فاعتنق «كسيلة» وكثير من بني قومه الإسلام ، فاستبقاه «أبو المهاجر» واستخلصه (7).
فيعتبر «أبو المهاجر» أول أمير للمسلمين وطئت خيوله المغرب الأوسط (8) . ونجاحه في حملته يرجع إلى مقدرته السياسية وكياسته في كسب زعيم بربر أوربة

(1) حسين مؤنس ، ص : 151 .
(2) ابن الأثير ، ج 3 ص : 184 .
(3) عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ص : 213 .
(4) المالكي ، ص : 71 وابن عذارى ، ص : 21 .
(5) قادة فتح المغرب ، ج 1 ص : 145 .
(6) الاستقصاء ، ج 1 ص : 71 .
(7) الاستقصاء ، ج 1 ص : 72/71 .
(8) الاستقصاء ، ج 1 ، ص : 72 .

إلى جانب المسلمين . وما انتهى من القضاء على مقاومة البربر حتى ولى وجهه شطر الروم .

توفي «معاوية بن أبي سفيان» في منتصف رجب سنة 60 هـ وأفضت الخلافة من بعده إلى ابنه «يزيد» وكان هذا مقتنعا بفضل «عقبة بن نافع» على الإسلام وحسن بلائه في فتح أفريقية ، ففصل ولاية أفريقية والمغرب عن ولاية مصر ، وقصر ولاية «مسلمة بن مخلد» على مصر وعزل «أبا المهاجر دينارا» في سنة 62 هـ ، وردّ «عقبة» إلى ولاية أفريقية والمغرب ، فأمكن «عقبة» أن يستردّ كرامته التى نال منها «أبو المهاجر» فقدم «عقبة» إلى القيروان ولم يزل حانقا على «أبي المهاجر» فبادر بعزله ومصادرة ما معه من الأموال وتوثيقه في الحديد وغزا به وهو في الحديد .

خرج «عقبة» بجيشه إلى المغرب . ففتح «باغاية» ورحل فنزل عل «تلمسان» ، فتحالف سكانها من الروم والبربر وخرجوا في جيش ضخم والتحم القتال ووقع الصبر حتى ظن المسلمون أنه الفناء (1) ، ولكنهم هاجموا الروم هجوما عنيفا حتى ألجأوهم إلى حصونهم ، فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة (2) . وسار «عقبة» حتى نزل على «طنجة» ثم عرّج إلى «سوس» وأقفل راجعا إلى «القيروان» ، فلما انتهى إلى «طبنة» وصلته أنباء مقلقة من أفريقية ، فأرسل معظم جيشه إلى القيروان وأبقى نحو ثلاثمائة فارس وعرّج بهم على «تهوذة» في أحواز الزاب ، وكان «عقبة» قد استصحب «كسيلة» معه في حملته إلى المغرب ، وكان يستعين به ويمتهنه ، فأمره يوما بسلخ شاة بين يديه . فأضمر «كسيلة» الغدر وعزم على الفرار من معسكر «عقبة» ، فانسحب مع قومه أوربة وتمكن من تكوين جيش ضخم من البربر ، وتحالف مع الروم لمقاتلة المسلمين ، ولكنه لم يشأ أن يشتبك معهم في القتال إلاّ بعد أن يعود «عقبة» من غزوته فيكون عسكره قد نقص عدده وعندئذ ينقض عليه ويفتك به وبمن معه ، فترصد «لعقبة» وهو في طريق عودته من غزوة المغرب الاقصى ووصل له الخبر أنه «بتهوذة» في قليل من الجيش ، فقصده في جمعه العرمرم ، ونشبت الحرب بين الفريقين . فدارت

---

(1) قادة فتح المغرب ، جـ 1 ص : 108 .

(2) رياض النفوس ، جـ 1 ص : 23 .

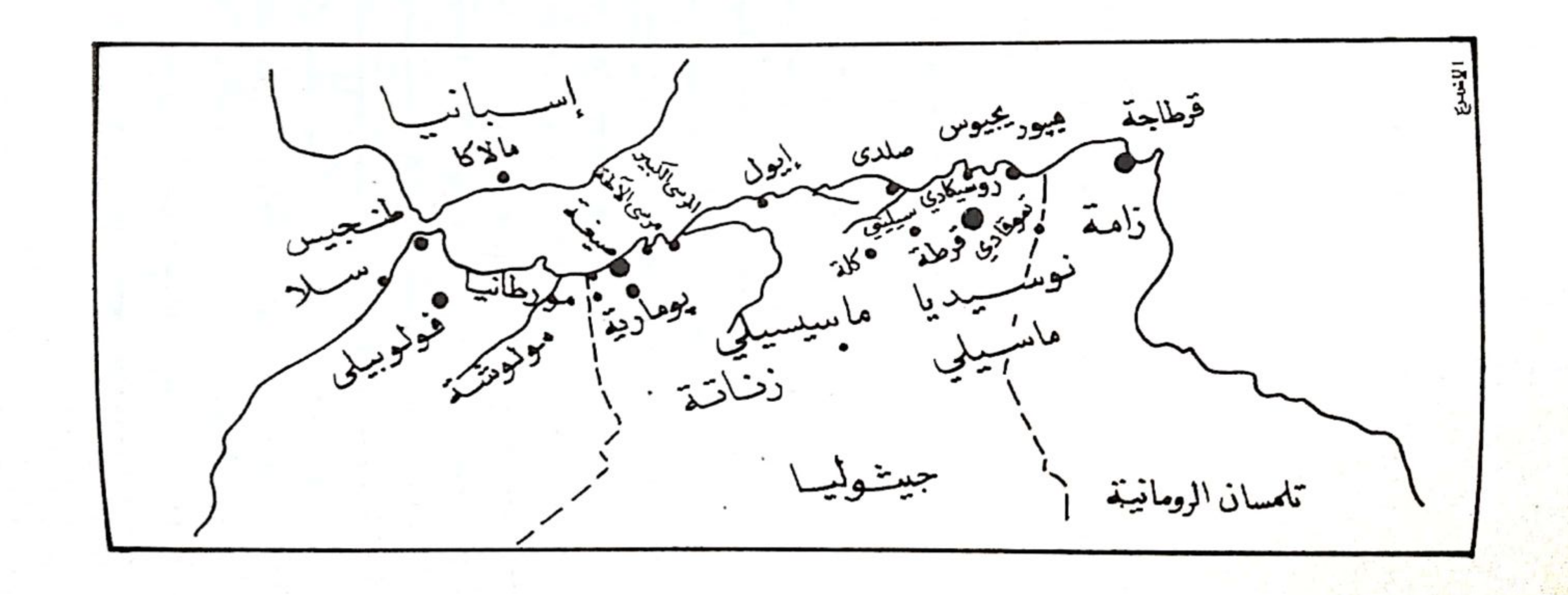
الدائرة على المسلمين لقلة عددهم ولم يفلت من الموت إلا من وقع أسيرا في أيدي البربر سنة 64 هـ (1) . فانتشر حينئذ خبر مقتل «عقبة» في «أفريقية» و «المغرب» . وهذا الحادث قد شجع «كسيلة» ، فجمع جيوشا أخرى من بربر وروم ضمها إلى جيشه وزحف إلى القيروان . فانقلبت أفريقية نارا ، وعظم البلاء على المسلمين (2) وذلك لأن «عقبة» أراد أن يهين «كسيلة» زعيم البربر بعد اعتناقه الإسلام رغم نصحية أبي المهاجر له . واقتناعه بجدوى الاستمرار في سياسة اصطناع البربر . فإنه أخذ يسعى لنقض سياسة «أبي المهاجر» التي أثبتت نجاحا عظيما اذ انتهت بضم بربر أوربة الذين كانت لهم الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لكثرة عددهم وغناهم وحضارتهم ومناعة مواقعهم (3) إلى جانب المسلمين . فكان «عقبة» جنديا فقط يجهل نفسانية البربر ، يجهل أن قبائل البربر كانت تعتد بالكرامة الشخصية وتؤمن بأخذ الثأر وتجل رؤساءها وتدين لهم بالطاعة وتعتبر كل اعتداء عليهم اعتداء على قبائلهم كما كان العرب أنفسهم ، فكان من العار عليهم أن يسلموا «كسيلة» إلى المذلة والهوان وهو رئيسهم . أدرك «عقبة» خطأه في سياسته مع «كسيلة» فأسرع إلى «أبي المهاجر» فأطلقه وقال له : «الحق بالمسلمين وقم بأمرهم» فأنف «دينار» من قول «عقبة» وأبى إلا أن يموت شهيدا مع أبناء عقيدته . فإن موقف «أبي المهاجر» لمشرّف . فكيف لا يصل الجيش العربي إلى هدفه وقد قيض الله له قوادا ذوي شجاعة وحزم وإيمان قوي ؟ فإن استشهاد «عقبة» وأصحابه لم ينل في شيء من خصالهم هذه ، بل شحذ قرائحهم وعزز عزمهم على متابعة الفتح وإيجاد خطط عسكرية ناجعة من شأنها أن تؤمن لهم الانتصارات وتضمن لهم النجاح الكامل في تحويل البربر عن كفرهم وجاهليتهم ، فقضى «زهير» «وحسان بن نعمان» و «موسى بن نصير» على كل من وقف في طريقهم مثل «كسيلة» و «الكاهنة» ورؤساء آخرين ، وحوّلوا المغرب بلدا عربيا إسلاميا .

---

(1) حسين مؤنس .

(2) المالكي ، ص : 28 ـ ابن عذارى ، ص : 31 .

(3) قادة فتح المغرب ، جـ 1 ص : 140 .


إسبانيا
مالاكا
طنجيس
سلا
فولوبيلى
موريطانيا
مولوشة
سيغة
المرسى الكبير
مرسى الأحمر
پوماريه
إيول
صلدي
ماسيسيلي
زناتة
جيثوليا
روسيكادي
سيليتي
كلة
قوطة
قرطاجة
زامة
نوميديا
ماسيلي
تلمسان الرومانية
الأخضر
CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

تلمسـان الصفريـة

أسلم البربر وأخلصوا لدينهم الجديد وسعوا دوما في توطيد أركانه والذود عنه . وكانوا يميلون إلى الطاعة والنظام حينما تكون السلطة القائمة «بالقيروان» عادلة تسعى في سعادة المسلمين على اختلاف أرومتهم ، ولكنهم لم يطيقوا صبرا لجور وتعسف بعض الولاة وعمالهم الذين أرادوا أن يتصرفوا في المغرب على حسب مزاجهم فاحتقروا البربر . والبربري غيور على حريته وشرفه ومبادىء إسلامه ، يريد أن يكون الوالي الممثل للسلطة الحاكمة قدوة للشعب لا يفرق بين عناصره ويطبق تطبيقا دقيقا ما جاء به القرآن الكريم والسنة ، وبلغ السيل الزبى لما رأى البربر من الأمويين ميلهم للعرب حتى إذا تقدموا إلى الخليفة بالشكوى فلم يستجب لهم حتى بالمثول بين يديه .

في سنة 132 هـ (741 م) تذمرت الرعية من عسف الأمير «كلثوم بن عياض» حيث كان يعاملها معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين ، والإسلام لا يعتبر الأرومة ولا اللون ، فلا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى . فاشتكت أمرها إلى «حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع» المقيم يومئذ «بأقادير» فكتب هذا إلى «كلثوم» ينهاه عن ذلك ويتهدده ، فبعث «كلثوم» بالاعتذار إلى «حبيب» تصنعا ، ثم زحف بجنوده على «أقادير» فقاتل «حبيبا» ، فلا نتعجب إذاً من البربر إذا رأيناهم ساخطين على السلطة المركزية متذمرين من حكم بعض عمالها .

وكان للأمويين والعباسيين أعداء سياسيون ، أكثرهم خوارج ، ما كان عليهم إلاّ أن يفرّوا من أذى السلطان ويلتمسون الأمان في أوطان نائية ، فكان

المغرب العربي لهم مأمنا حصينا لإتّساعه وكثرة قبائله ، ونفوس البربر المتذمرة كانت لهم فرصة سانحة لبث تعاليمهم في الوسط المغربي وإقامة ثورة ضد السلطة المركزية ، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى اندلعت نيران الثورة من كل جهة . فجاء «حنظلة بن صفوان» أميرا على أفريقية سنة 124 هـ (742 م) ، فحارب الخوارج ، ولكنه لم يقدر على إخماد نارهم . فانتشرت الفوضى والاضطرابات وعمت المغرب كله ، فلما انتقلت الخلافة إلى بني العباس اضطر الخليفة «أبو جعفر المنصور» إلى إرسال جيش يتألف من خمسين ألف مقاتل تحت قيادة «الأعلى محمد بن الأشعث» أمير مصر . فدخل بجنده إلى أفريقية سنة 144 هـ (761 م) والتقى «بأبي الخطاب» «الإباضي وجموعه بطرابلس» وتمكن من قتله وتشتيت قواه واستعادت «القيروان» من الإباضيين ، فظن «ابن الأشعث» أنه قضى بذلك، على الخارجية ، لكن براكين خارجية أخرى قد اندلعت ، فإن «عبد الرّحمن بن رستم» الذي كان «نائب أبي ، الخطاب» على «القيروان» حين خرج إلى «طرابلس» ليقف في وجه «ابن الأشعث» وجموعه ، قد لاحق الجهة الغربية من «الجزائر» ونزل بجبل على مقربة من «تيارات» الحالية . فلم يكد يسمع الإباضيون بهذا الخبر حتى أمو «عبد الرحمن» فشدوا أزره وأسسوا مدينة «تاهرت» سنة 148 هـ (775 م) فأصبحت قاعدة إمارتهم يحسب لها العباسيون ألف حساب ، والخارجية كانت تنقسم إلى إباضية وصفرية .

أبو قـرّة اليفـرني

اعتنقت قبائل يفرن ومغيلة المذهب الصفري وأحست بأن ولاة العباسيين على المغرب مصممون على محاربة الخارجية واستئصال جذورها من المغرب كله . فبايعت ، في نفس العام الذي تولى فيه «الأغلب بن سالم» إمارة أفريقية ، بالإمامة رجلا ذا شجاعة وبأس هو «أبو قرّة بن دوناس» اليفرني الصفري الذي ضمّ الصفرية في المغربين الأوسط والأقصى ونظم صفوفها (1) واتخذ من (أقادير) قاعدة له في المغرب الأوسط مهد قومه ، ومن (طنجة) قاعدة له في المغرب الأقصى .

(1) محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ 3 ، ص : 36 .

فألف «أبو قرّة» جيشا كثيفا وخرج لمحاربة الجيش العباسي حتى وصل إلى الزاب ، لكنه رجع فيما قرره ، وأبى أن يشتبك معه في قتال . فآثر أن ينسحب إلى المغرب الأقصى لعل (الأغلب) يتبعه ويدخل موضع الصفرية فيقضي عليه . وفعلا عزم «الأغلب» على متابعته . إلا أن جيوشه أخذوا يتفرقون من حوله معللين أنهم خرجوا لمقاتلة «أبي قرّة» فإذا بخصمهم انسحب فيتعيّن عليهم إذاً أن يعودوا ادراجهم ، فاضطر (الأغلب) إلى العودة إلى «القيروان» ، فعاد حينئذ (أبو قرّة) إلى (أقادير) .

لم يلبث «الأغلب» أن جهز جيشا آخر وخرج به غازيا الصفرية في المغربين الأوسط والأقصى سنة150 هـ . فلم يصل إلى أقادير حتى أخذ جنده وقواده ينفضون من حوله ويتسللون إلى (القيروان) ، فلم يَرَ بُدّاً من أن يعود إلى قاعدته .

لكنه لم يسترح من رحلته هذه حتى ثار عليه أحد أجناده من اليمنية بتونس وهو (الحسن بن حرب الكندي) فخرج اليه (الأغلب) في جمادى الآخرة سنة 150 هـ وقامت الحرب بين الفريقين فأصيب (الأغلب) بسهم فمات ، الأمر الذي دفع (المنصور) العباسي إلى أن يولي على المغرب «أبا جعفر عمر بن حفص بن عثمان» ليقضي على الفتن في صفوف الجند العباسي وأرسل معه خمسمائة فارس تكون له عونا في مهمته (1) .

فقدم «عمر بن حفص» إلى القيروان في صفر سنة 151 هـ ، ثم أمره بالتوجه إلى «طبنة» ففعل ورمّم المدينة وحصنها بسور وجعلها مركزا لغاراته التوسعية المقبلة على المغربين الأوسط والأقصى للقضاء على دولة الرستميين «بتاهرت» ودولتي «تلمسان» و «سجلماسة» . فأحسّ الرستميون بالخطر الذي يتهدد دولتهم . فاتفق «ابن رستم» مع أنصاره في «طرابلس» وجنوب «أفريقية وأقادير» على الانتفاض ومحاربة العباسيين . فاحتشدت جموع البربر الساخطين على العباسيين من كل جهة لمهاجمة «عمر بن حفص» في «طبنة» ، فقدم«أبو قرة» الصفري صاحب «أقادير» في أربعين ألف مقاتل و «عبد الرحمن بن رستم» الإباضي في خمسة عشر ألفا ، وعاصم السدراتي في ستة آلاف «وأبو حاتم» في جيش كبير

(1) ابن عذارى ، جـ 1 ، ص : 88 ، وابن الأثير ، جـ 5 ، ص : 31 .

و «عبد الملك بن سرديد» في ألفين «والموسور بن هانىء» الزناتي في عشرة آلاف (1). وانضم اليهم من خوارج صنهاجة وزناتة وهوارة عدد لا يحصى من البربر. غير أن «ابن رستم» آثر أن يعسكر في «تهوذة» جنوبي «طبنـة» ليكون مددا «لأبي قرّة» عند الحاجة، ولم يكن مع «عمر بن حفص» من العسكر سوى خمسة عشر ألفا وخمسمائة. فهاله ما رأى من حشود الخصوم الكثيرة، وبعد استشارة قواده عدل عن مناهضة العدو، وكان يعرف ما للمال من تأثير في نفوس الناس، ولا سيما المحتاجين، وكان اضطراب الأحوال السياسية منذ أواخر عصر الدولة الأموية قد سبب ارتباكا في البناء الاقتصادي فكثرت المجاعات وعم القحط البلاد. وعانى البربر كثيرا من ضروب البؤس والفقر، وكان ذلك من أسباب تقلبهم لمبادىء الخارجية. فوجه «عمر» رسله إلى «أبي قرة» يعرضون عليه ستين ألف درهم وكسى كثيرة على أن ينصرف بجيشه. فرد عليهم بقوله: «بعد أن سلم علي بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا (2)». فلما رأى عمر إغراء المال لم ينجح في تحويل «أبي قرة» عن عزمه أعاد المحاولة مع أخي «أبي قرة» (3). فانصرف الرسول اليه ودفع له أربعة آلاف درهم وكسى على أن يعمل في صرف أخيه «أبي قرّة»، والصفرية إلى بلادهم. فنجح «عمر» في محاولته هذه المرة، فقد ضعف عزم شقيق «أبي قرّة» أمام هذا العرض، فشرع في ليلتـه في إثناء الصفرية عن محاصرة العرب (4). فلم يعلم «أبو قرة» حتى انصرف عنه جل الجند، فلم يجد بدا من إتباعهم (5).

وهكذا نجح «عمر» في تفريق كلمة البربر بالأموال، ففرغ الجو «لعمر» ووجه جنده إلى «ابن رستم» المرابط بتهوذة. فانهزم «ابن رستم» وقتل من رجاله نحو ثلاثة آلاف وولى خائبا إلى «تاهرت».

وصل إلى «عمر» بأن البربر قد حاصروا «القيروان»، فأسرع فورا اليها لفك حصارها بعد أن استخلف على «طبنة» عسكره. فعلم «أبو قرة» بخروج «عمر»

(1) ابن عذارى، ج 1، ص: 88، وابن الأثير، ج 5، ص: 32.
(2) ابن الأثير: الكامل، ص: 89.
(3) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص: 353.
(4) نفس المصدر.
(5) ابن عذارى: ج 1، ص: 89.

من «طبنة» فقدم اليها واشتبك مع الجند العباسي ، فقتل من رجاله عدد كبير وولى منهزما إلى «أقادير» قاعدة إمارته . إلاّ أن البربر لم يلبثوا أن حاصروا «عمر بن حفص» «بالقيروان» «وأبو قرة» معهم بثلاثة وخمسين ألفا . فهلك «عمر» في ذلك الحصار فقدم اثر ذلك «يزيد بن حاتم بن قبيصة» واليا على «أفريقية» ، ففض حشود زناتة وفرق شملهم . فولى «أبو قرة» مرة أخرى منهزما إلى «أقادير» ، وقد قتل من أتباعه عدد لا يحصى وقتل صاحبه «أبو القاسم الكندي» رأس الخوارج . فضعفت حينئذ شوكة «يفرن» و «مغيلة» وزالت سمعتهم وذهب صيت زعيمهم «أبي قرة» وأخفق مذهبهم ولم يلبث أن زال وحل محله على الدوام مذهب الإمام مالك .

ويذهب «ابن حزم» وغيره إلى أن «بني يفرن» كانوا على مذهب أهل السنة (1) . فكيف نرتاح إلى هذا الرّأي و «بنو يفرن» قد شاركوا دوما في الحروب التي أقامها «أبو قرة» زعيمهم ضدّ العرب ، و «أبو قرة» كان صفريا والقوم على دين ملوكهم . فلا شك أن أقادير كانت لا تخلو كليا من أهل السنة وقتئذ الشيء الذي أهاب بأبي حزم وبغيره إلى أن يعتقدوا أن «يفرن» لم ينتحلوا الصفرية .

مغـــراوة : (1)

من إخوة «يفرن» قبيلة مغراوة ، وكانت أوسع بطون زناتة ، وكانت مواطنهم من شلف إلى «تلمسان» إلى جبل مديونة وما اليها . لما حل العرب بالمغرب أيام الفتح أقروهم على ملكهم . وأميرهم «صولات بن وازمـار» هـاجـر إلى المدينة ووفد على أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» . فرحب به الخليفة وعقد له على قومه ووطنه .

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر جـ 7 ، ص : 35 .

(2) ذكر بطليموس أنه كان بالمغرب الأوسط في القرن الثاني (م) خمس وعشرون قبيلة زناتية منها مكوربي التي كانت ديارها تمتد على ساحل المتوسط من شلف إلى تلمسان . فيري ديمغت (وهران والجزائر ، ص : 148) . ان بطليموس يريد بمكوربي مغراوة . ولعل هذا الرأي لا يتعرض للمناقشة فالتاريخ يخبرنا بأن هذه القبيلة عريقة في القدم وأن موقعها هو نفس موقع مكوربي التي ذكرها بلين (Pline) قبل بطليموس . (Ptolému) .

فاختص «صولات» وسائر مغراوة بولاء «عثمان» ، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس وَعْياً لهذا الولاء كما سنرى بعد .

لما هلك «صولات» قام بأمره ابنه «خزر» ولما هلك «خزر» خلفه ولده «محمد» ، وقد غلب بني يفرن على «أقادير» واستقام له أمرها . وفي هذا الإبان بالذات كان دخول «إدريس بن عبد الله» إلى المغرب .

أقادير الإدريسية

لما هلك «المنصور» العباسي آلت الخلافة إلى «الهادي» فخرج عليه العلويون بزعامة «الحسن بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب» في ذي القعدة سنة 169 هـ بسوء معاملة «عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر» عامل المدينة من قبل «الهادي» لهم .

وبويع «الحسن» بالخلافة في المدينة . وقام بها أحد عشر يوما ، ثم سار إلى «مكة» . فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة «سليمان بن المنصور» بفخ وهو واد في طريق «مكة» يبعد عنها بنحو ستة أميال ، فانهزم العلويون ، وقتل في هذه الواقعة جل رجاله . وقد اشترك في القتال مع الحسن عماه «ادريس بن عبد الله بن الحسن» و «يحي» . إلا أن «إدريس» أمكنه أن يفلت مع المنهزمين من بني «حسن» (1) فأخذ العباسيون في طلبه فخرج به «راشد» وكان عاقلا شجاعا ذا حزم ولطف في جملة الحاج منحاشا عن الناس بعد أن غير زيّه وألبسه مدرعة وعمامة غليظة وصيره كالغلام يخدمه وإن أمره ونهاه أسرع في ذلك ، فسلما حتى دخلا مصر ليلا (2) . ومن ثم انتقلا إلى «أفريقية» ثم إلى «أقادير» . (فاستراحا بها أياما) (3) . ثم دخلا عنها إلى «طنجة» وهي وقتئذ أعظم مدينة في المغرب . فأقاما بها أياما ، فلم يجد «إدريس» بها مراده ، فغادرها ، وقصد مع مولاه «راشد»

---

(1) ابن الأثير : جـ 5 ، ص : 76 وابن خلدون : جـ 4 ، ص : 13 .

(2) البكري : ص : 118 .

(3) ابن أبي زرع : روض القرطاس .

«وليلى» (1) . الواقعة «بزرهون» . فنزل «إدريس» على «إسحاق بن عبد الله» أمير أوربة . فأجاره وأكرمه . فأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته . فاجتمعت عليه قبائل أوربة «ومغيلة» و «صدينة» وغيرها من قبائل زناتة وبايعوه بالإمامة ، وتمكن أيضا من أن يؤلف جيشا كبيرا غزا به بالمغرب قبائل لم يكن الإسلام قد انتشر بعد في أنحائها وبقيت على دين النصرانية واليهودية والمجوسية . ثم خرج في منتصف سنة 173 هـ (788 م) لغزو مدينة «أقادير» بالمغرب الأوسط ومحاربة من بها من مغراوة وبني يفرن الخوارج . فوصل اليها . فلم يصدّه عنها صاحبها«محمد بن خزر» اليفرني ، وبايعه في رجب 173 هـ

كانون الأول (788 م) وذلك نظرا لشرفه وقربه من رسول الله . فدخل إدريس المدينة ومكث بها نحو سبعة أشهر (2) بايعته خلالها القبائل المجاورة من «يفرن» و «مغراوة» ، وبنى مسجدا جامعا ، وأمر بنقش على المنبر هذه العبارة : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أمر به الإمام «إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن علي» (رضي الله عنهم) ، وذلك في صفر 174 هـ (3) . ثم عاد بعد ذلك الى قاعدته ، «وليلي» وترك «ابن العلاء» والياً على «أقادير» (4) ولا شك في أن اصطناع «إدريس» لسياسة الغزو المسلح في المغرب وفي نواحي «أقادير»

---

(1) ابن عذارى : جـ 1 ، ص : 101 وابن الأثير : جـ 5 ، ص : 76 وابن خلدون ، ص : 24 والجزنائي ، ص : 9 والاستقصاء : جـ 1 ، ص : 152 .

(2) عبد الرحمن الجلالي : تاريخ الجزائر العام جـ 1 ص : 215 .

(3) إن الحفريات التي قاموا بها بجوار صومعة أقادير تنبىء بأن محراب المسجد كان يقابلها وأن الجدران كانت متفاوتة في الطول . فللجدار الشمالي 48 مترا وللجنوبي 42م وللقبلي 39 مترا وللغربي 45مترا ، وكلها كانت مبنية بالحجر المنحوت . ويحدثنا الأستاذ (بال) بأن فوارة زرقاء عثر عليها في مكان المسجد ونقلت إلى دار بذلك الحي ، ولكن لم يعثر عليها إلا مؤخرا لأن المسجد كان قائما في أواخر القرن السادس عشر وإمامه وخطيبه حينئذاك السيد علي بن يحيى السلكسيني الأقاديري المتوفى سنة 972 هـ ـ 1565 م (البستان لابن مريم ص : 146/145) وفي سنة 1845 م أمرت السلطات الفرنسية بهدمه ويشهد بذلك الأستاذ «بارجيس» في كتابه تلمسان ، ص :164 ، ويؤيد «بارجيس» الأخوان وليام وجورج مارسي حيث يقولان : ان المسجد العتيق كان عبارة عن كومة من الحجر عند الاحتلال الفرنسي ، فأمرت السلطات الفرنسية بازالته .

(4) ابن خلدون : كتاب العبر جـ 4 ، ص : 25 وابن الخطيب : أعلام الأعلام ، القسم الثالث ، ص : 192 ، والاستقصا للسلاوي جـ 1 ، ص : 157 .

يعبّر عن رغبته في التوسع ومد نفوذه على المغرب كله (1) . وكان لذلك صدى . فبالطبع أن يعلم «الرشيد» العباسي أن «إدريس» قد استقام له أمر المغرب وبايعه كافة من به من القبائل وأنه فتح مدينة «أقادير» فخاف إذا أن يعظم أمر «إدريس» ويستفحل ، فينفصل المغرب كله عن الخلافة (2) . فأجمع على القضاء عليه ، وحيث لم يقدر على أن يرسل اليه جيشا من العراق لبعد الشقة مال إلى أن يبعث اليه من يغتاله في عقر بيته . فنجح في هذه المحاولة ، فسم «الشماخ» «إدريس» (3) . فتوفي في مستهل ربيع الآخر من سنة 177 هـ (4) ، ودفن بخارج باب «وليلي» إلاّ أن «راشد» مولاه لم يمت ، فقام بالأمر من بعده . وفي غضون ذلك لحق «إدريس» أخوه «سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي» ونزل «أقادير» ، ثم لحق بجهات «تاهرت» بعد مهلك أخيه ، وطلب الأمر لنفسه هناك . ولكن البربر لم يشدّوا أزره ، وطلبه ولاة الأغالبة ، فلحق «بأقادير» وَأَذْعَنت له زناتة هناك . ولما مات «سليمان» خلفه ابنه «محمد» على إمارته . وقد ترك «إدريس» زوجته «كنزة» حاملا في السابع من أشهر حملها ، فوضعت ، وكان غلاما سمي باسم أبيه ، فقام «راشد» بأمره وكفله إلى أن فطن وشبّ . فعلمه السنة والفقه وأشعار العرب وأيامهم وسير الملوك ، ثم دربه على ركوب الخيل وأحكام الرماية بالسهام (5) . ولما بلغ العاشرة جدد له «راشد» البيعة (6) بجامع «وليلي» يوم الجمعة فاتح شهر ربيع الأول سنة 186 هـ . وكان «إبراهيم بن الأغلب» صاحب «أفريقية» يرهف سمعه لما يحدث بالديار المغربية ،فقد ساءه استفحال أمر «إدريس» الثاني «براشد» ، فدبر في اغتياله . فقتل راشد وسيق رأسه إلى «إبراهيم» وذلك سنة 186 هـ . فقام بكفالة «إدريس» بعد مقتل «راشد» رجل اسمه «أبو خالد بن يزيد

---

(1) عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ص : 470 .

(2) ابن أبي زرع : رُوض القرطاس ؟ Levi Provençal. *Extraits des historiens arabe du Maroc, p. : 18.*

(3) روض القرطاس . Levi Provençal. Extraits des historiens arabes du Marsa p. 20.

(4) السلاوي : الاستقصا ، جـ 1 ، ص : 159 .

(5) الجزنائي : زهرة الآس ، ص : 12 والسلاوي : الاستقصا جـ 1 ، ص : 120 .

(6) الجزنائي :زهرة الآس ، ص : 12

(7) ابن خلدون : كتاب العبر : جـ 4 ، ص 25 و 142 .

بن إلياس العبدي (1) وجددت البيعة «لإدريس» في 7 ربيع الأول سنة 187 هـ وهو ابن احدى عشرة سنة وبايعته جميع القبائل من أوربة إلى صنهاجة الى غمارة ومكناسة وغيرهم . فاستقام له الأمر بالمغرب الأقصى وتوطد ملكه وعظم سلطانه وقوي عسكره ووفد اليه الناس من سائر البلدان (2) . ثم أسس « فاس » عام 193 هـ (808 م) .

وفي سنة 197 هـ عزم على غزو قبائل البربر الوثنيين . وفي فاتح سنة 199 هـ (814 م) أحدثت طائفة الصفرية وقبائل «نفزة» ثورات «بأڤادير» عجز العامل عن إخمادها وهو يومئذ «محمد بن سليمان بن عبد الله» ابن عم إدريس الثاني فزحف اليهم «إدريس» وافتتح المدينة . فانقادوا اليه ورجعوا عن غيهم ، ثم رأى أسوار المدينة التي قام ببنائها أو إصلاحها بَنُويفْرِنْ قد بلي بعضها . فأصلحها ليكون السكان في مأمن من الهجومات التي قد يتعرض لها الإقليم منٍ طرف العصابات المتمرّدة أما المسجد الذي أمر بتشييده أبوه فقد رمّمه وأقام له منبرًا ابتغاء رضا الله ورضى الناس

ظل «إدريس» مقيما «بأڤادير» ثلاث سنوات (3) ظهر خلالها المغرب الأوسط من الخارجية وبسط نفوذه حتى «شلف» ، فأصبح يهدد نفوذ العباسيين بأفريقية ، وسياسته التوسعية قد أفادت الأغالبة ، فسلطانهم قوي وملكهم توطد إذ أعطاهم الخليفة شبه استقلال داخلي حتى يكونوا حاجزا بينه وبين الرستميين من جهة وبينه وبين «إدريس» من جهة أخرى لما يعلم من فعله وكماله ومحبة الناس له لقرابته لرسول الله . فإن حفيده وابن علي بن أبي طالب .

اصطلح «إدريس» مع جاره «ابن الأغلب» الحاكم بأفريقية باسم العباسيين ، وعينت الحدود بينهما بوادي «شلف» ، وعقد على المغرب الأوسط لابن عمه «محمد بن سليمان» وكر راجعا إلى عاصمته «فاس» .

استقر «محمد» هذا في «عين الحوت» من ناحية «تلمسان» وتوفي بجبل «وهران» وترك أعقابا اقتسموا إمارته . فكانت «تلمسان لولده إدريس بن محمد

---

(1) البكري : ص : 122وابن عذارى : جـ 1 ص : 299 وابن خلدون ، جـ 4 ص : 26 .
(2) الجزنائي : ص : 13 .
(3) ابن خلدون : جـ 4 ص : 27 وعبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ص : 477 .

وارشفول لولده «عيسى بن محمد» و «تنس» لولده «إبراهيم بن محمد» ، وكان منهم «بترنانا» على ثمانية أميال من «ندرومة» و «باغل ـ إزان» «ويوسف إبراهيم» . فقد أنشأوا امارات ليس لها صفات الدولة ولا مقوّماتها الأساسية ، ولم يكن انشاؤها استجابة لواقع البلاد القومي والتاريخي والجغرافي (1) .

أما في ضواحي البلد فلم تزل الرئاسة «لمحمد بن خزر» إلى أن كانت دولة الشيعة ، حيث انتقض وحمل زناتة وأهل المغرب الأوسط على الفاطميين ، فسرح عبيد الله المهدي الشيعي «مصالة بن حبوس» قائد المغرب في عساكر كتامة سنة 309 هـ . فلقيه «محمد بن خزر» في جموع «يفرن» و «مغراوة» وسائر زناتة ، ففل عساكر «مصالة» وخلص إليه فقتله . فأرسل إذا ذاك «عبيد الله» ابنه «أبا القاسم» في جيش ضخم إلى المغرب سنة 310 هـ وعقد له على غزو «محمد بن خزر» وقومه . فأجفلوا إلى الصحراء واتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا «بسجلماسة» .

الصراع بين الأموية والشيعة

إن حركة الشيعة التوسعية قضت على الأغالبة في أفريقية وعلى الرستميين في «تاهرت» وبني مدرار بسجلماسة . وبلغ نفوذهم إلى شواطيء المحيط وسبتة ، وأخذ يهدد الأندلس . عبرت الدعوة الشيعية الزقاق ودخلت الأندلس (2)، وقد وجدت أتباعا من بين المتمرّدين . فإن اعتقاد (3) «ابن هانيء» الأندلسي إمامة الفاطميين لدليل على أن دعوة الشيعة قد وصلت إلى الأندلس ، ويبدو أنها كانت منظمة تنظيما دقيقا ، ولكنها أخفقت . فإن رجال الدولة المروانية كانوا يتتبعون في تيقظ وانتباه سياسة الفاطميين بفضل العيون التي كانت منبثة في الأندلس وفي المغرب (4) وأفريقية ، فأعد «عبد الرحمن الناصر» الخليفة الأموي العدة لإحباط مساعي الشيعة ودفع خطرها عن دولته ، فنزل رجال له بساحل أفريقية وفتحوا «مليلة» سنة 314 هـ (924 م) . وبث دعاته هنالك، فاتصلوا بالبربر

(1) يحي بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ؟
(2) محمود علي مكي : التشيع في الأندلس ، ص : 111 .
(3) مختار العبادي : سياسة الفاطميين ، ص : 115 .
(4) مختار العبادي : سياسة الفاطميين ، ص : 116

في المغربين ، ولم يتأخروا في كسبهم بالمال ، فلباهم صاحب «أرشقول» «فرضة أقادير» وهي على مسافة 30 كيلو مترا منها ، وهو يومئذ «إدريس بن إبراهيم » ، وتبعه «الحسن بن أبي العيش» صاحب «جراوة» «وموسى بن أبي العافية » صاحب المغرب الأقصى «ومحمد بن خزر» المغراوي عاهل زناتة . فطرد «محمد» هذا أولياء الشيعة من الزاب ، وملك «تنس» من أيديهم ثم «وهران» وولي عليها ابنه «الخير» وبث دعوة الأمويين في اعمال المغرب الأوسط . فنشبت حروب بين الشيعة ودعاة الأموية ، فحوصرت «تاهرت» واحتلت «وهران» ، وأقيمت بها دعوة الأمويين سنة 333 هـ (945 م) ، وأخذت البيعة للخليفة «عبد الرحمن الناصر» . وكان الشيعة وقتئذ لاهين بإخماد نار الفتنة التي أضرمها «أبو زيد بن كداد» «الخارجي» ، ولما قضوا على هذا الثائر ، ولّوا وجوهم شطر دعاة الأمويين في المغرب ، فخرج «المنصور» بنفسه سنة 336 هـ (947 م) وزحف إلى «تاهرت» ، فأخرج «حميدا» عنها وعقد عليها «ليعلى بن محمد اليفرني» ، وعقد أيضا «لزيري بن مناد» على صنهاجة .

وفي سنة 341 هـ (952 م) أعاد الناس الدعوة للأمويين بالمغرب الأوسط ، وخرج وفد تحت رئاسة قاضي «وهران» «أحمد بن أبي العيون» لتثبيت الدعوة «لعبد الرحمن الناصر» «بقرطبة» فعقد الناصر «لمحمد بن يصل » على «تلمسان» وأعمالها «وليعلى بن محمد» على المغرب وأعماله ، فراجع «محمد بن خزر» طاعة الشيعة من أجل تربع قريبه «يعلى بن محمد» ، فتجهز «جوهر الصقلي» قائد «المعز العبيدي» ، وخرج لقتال دعاة المراونيين سنة 347 هـ (958 م) ، فاعترضه «يعلى بن محمد» اليفرني في جيوش كثيفة على مقربة من«تيهرت» ، وكانت هناك مقتلة شديدة من الفريقين ، وليظفر «جوهر» بالعدوّ مال إلى المكيدة . فأعطى مالا لاغتيال «يعلى بن محمد» اليفرني . فقد نجحت محاولته . فقتل «يحي» وجيء برأسه ، واختفى ولده «يدّو» ، وفشل قومه فشلا ذريعا .

وفي سنة 358 هـ (968 م) انتقض «ابن خزر» على الشيعة ودعا «للناصر صاحب «قرطبة» فخرج «المعز» الفاطمي لقتال الخارجيين ، فشتت شمل جموعهم وأعاد الدعوة للشيعة ، فاضطر «ابن خزر» إلى الفرار ، لكنه لم يجد بدّا من أن

يستسلم ويدخل على الخليفة «المعز لدين الله» بدار الخلافة في ربيع الثاني سنة 359 هـ (970 م) مستأمنا على نفسه ، فأمنه وعفا عنه وأبقاه «بالقيروان» حتى توفي .

هلك «الناصر» في ذلك العام بالذات على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب ، فقام «الحكم بن الناصر» واقتفى أثر أبيه . فخاطب رؤساء المغرب ، فأجابه «محمد بن الخير بن محمد بن خزر» . فأثخن في الشيعة ودوخ بلادهم ، فرماه «معد» العبيدي بقرينه «زيري بن مناد» أمير صنهاجة ، فعقد له على زناتة ، وسوغ له ما غلب عليه من أعمالهم ، فخرج اليه «يوسف بن زيري بن مناد» ، المشهور ببلقين ، في جيش من صنهاجة وكتامة ، فاشتدت الحرب بين الفريقين يوم الخامس عشر من ربيع الثاني سنة 360 هـ (15 شباط 971 م) . فدارت الدائرة على زناتة ، وكاد «محمد بن الخير» يؤسر . فاتكأ على سيفه فذبح نفسه به أنفة من أن يملكه «بلقين» (1) وسيق رأسه إلى المعز يوم 24 من ذلك الشهر . فأقفر المغرب الأوسط من زناتة ودخلوا إلى المغرب الأقصى وتفرقوا في ربوعه ، وأجاز عدد منهم إلى الأندلس فخلا الجو إلى «بلقين بن زيري» الصنهاجي فاستولى على «تلمسان» وأخضع ضواحيها إلى الشيعة ورجع إلى بلده .

وفي سنة 361 هـ نهض «بلقين بن زيري بن مناد» لحرب زناتة . فأجلاهم عن الزاب وعن المغرب الأوسط حيث تسربوا وعاثوا .

وفي سنة 362 هـ (973 م) اتصل «ببلقين» أن العدو قد استولى على «تلمسان» . فتوجه اليهم ، فهربوا ، ولكن المدينة لم تفتح أبوابها له ، فحاصرها حتى استسلم سكانها ونزلوا على حكمه ، فعفا عنهم إلاّ أنه أمر بانتقالهم إلى «أشير» قاعدة «زيري بن مناد» فامتثلوا ، وبنوا مدينة بجانب «أشير» سموها تلمسان (2) . ولم يقتنع زيري بذلك ، فقد أصدر أمرا صارما يحرّم على كل زناتي ركوب الخيل وشراءها ، ويحكم بالموت على من سوّلت له نفسه مخالفة ذلك الأمر .

لم يلبث «يدو بن يعلى بن محمد» اليفرني أن ظهر على مسرح السياسة من جديد بعد اختفاء طويل . وحدثت بينه وبين «زيري بن عطية» المغراوي فتن وحروب

(1) المقتبس لأبي مروان بن حيان القرطبي ، ص : 38 .

(2) ابن الأثير : جـ 7 و 8 ص : 205 .

سجال ، واستمر الأمر كذلك إلى أن رحل «يدو بن يعلى» إلى الصحراء حيث قضى نحبه سنة 383 هـ (993 م) . فخلا حينئذ له الجو ، فآلت له رئاسة مغراوة ، فدعا لهشام المؤيد وحاجبه «المنصوو بن أبي عامر» واستولى على جميع بوادي المغرب» ودخل «فاس» سنة 377 هـ (987 م) وجعلها مقر ملكه (1) . فعلا أمره وعظم سلطانه . وكان «المنصور بن أبي عامر» لا يخفى عليه ما يجري في المغرب ، فأمر «زيري بن عطية» بالخروج إلى حرب «البهار بن زيري» الصنهاجي صاحب المغرب الأوسط . وكان «زيري بن عطية» مخلصا لصاحب الأندلس ومنفذا لأوامره . فاستولى على «تلمسان» و «وهران» وجبال وانشريس . وما هي إلاّ عشية أو ضحاها حتى امتد سلطانه من المحيط إلى إقليم الزاب . وسولت له نفسه أن يطرد عمال المروانيين ويجليهم إلى «سبتة» ويقتصر على الدعاء للخليفة وحده فوق المنابر ، فجهزوا له الجيوش من الأندلس ، ودارت بين الطرفين حرب ، فانهزم «زيري بن عطية» فتخلى لهم عن المغرب الأقصى والتجأ إلى المغرب الأوسط فاستولى على «تلمسان» وما اليها ، واختط مدينة «وجدة» سنة 383 هـ (994 _ 995 م) ، وسل سيفه ضد الصنهاجيين ، وتوفي محاصرا «لأشير» سنة 391 هـ (1002 م) .

استقل «حماد بن زيري» الصنهاجي سنة 405 هـ (1014 م) وكان بينه وبين زناتة حروب سجال ، ثم فارق الحياة سنة 419 هـ (1028 م) . وشغل بنوه بحرب باديس ، فاستوثق ملك بني يعلى ذلك «بتلمسان» .

حل الهلاليون بأفريقية سنة 442 هـ (1051 م) واستولوا على سائر أعمالها ، ثم تسربوا إلى ديار «بني حماد» ، فأخرجوهم بقاعدتهم «القلعة» وغلبوهم على الضواحي . فصانعوا هؤلاء الأعراب واستخلصوا «الأثبج» منهم و «زغبة» واستعانوا بهم على زناتة المغرب الأوسط ، فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء «تلمسان» حرب ووقائع . وكانت «زغبة» أقرب اليهم بإقليم «تلمسان» . وكان أمير هذه العاصمة لعهدهم «بختي» من ولد يعلى بن محمد» اليفرني ، وكان وزيره وقائد حروبه «أبو سعدى بن خليفة» اليفرني . فكان كثيرا ما يجمع الجيوش من «يفرن»

---

(1) عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب .

«ومغراوة» وبني عبد الواد «وتوجين» «وبني مرين» وخرج من «تلمسان» لقتال عرب «الأثبج» «وزغبة» ، وهلك في معركة شنها عام خمسين وأربعمائة .

الحياة الإقتصادية والإجتماعية والفكرية بأقادير

قد اشتهرت «أقادير» في عالم التجارة . فمركزها الجغرافي والسياسي قد أعانها في ربط المغرب الأوسط بالمغرب الأقصى والأندلس ببلاد السود ، ولعب دورا كبيرا في تطور التجارة ونفاق أسواق «أقادير».فليس من شك أنه كان لكل صناعة سوق خاصة بها كما كان الأمر في جميع البلدان في العهد الوسيط ، فقد أشار أكثر الجغرافيين الذين تحدثوا عن «أقادير» إلى أهمية نشاطها التجاري ، فذكر «البكري» أنها كانت قاعدة المغرب الأوسط وبها مساجد وأسواق نافقة ضمت عددا كبيرا من التجار الأجانب .

نعم فقد كانت مقصدا لتجار الآفاق ، فكانت القوافل غادية رائحة بين «أقادير» والأندلس عن طريق فرضتيها «أرشقول» «وهنين»، وفي جنوب «أقادير» بلاد السود ، كان تجارنا يقصدونها . تخرج القوافل التجارية إلى «سجلماسة» ، ومن هناك تؤم «تنبكتو» صحبة القوافل الرستمية والفاسية .

وكانت هذه القوافل تغشى السودان بسلعها المصنوعة «بأقادير» والواردة عليها من مختلف البلدان من منسوجات صوفية وقطنيةوكتانية وفخار مطلي وحلي ذهبية وفضية وأوان نحاسية وخشب منقوش مرصع بالعاج ، ومصنوعات حديدية كالأسلحة والأقفال وأفاويح وملح وعطور وبخور وتدفع بلاد السود إلى تجارنا التبر والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات ومواد أخرى تستهلكها بلادنا أو تباع في أسواقها إلى التجار الأجانب ، وقوافل أخرى كانت تقصد مصر رفقة قوافل «تاهرت» و «ورجلان» و «أفريقية» مشحنة بالبضائع الأهلية والمجلوبة وتعود مصحوبة بتحف المشرق وبالأفاوية والبخور والأحجار الكريمة والكتب وغير ذلك من السلع التي تنقص أسواق «أقادير» . وهذه السلع الصادرة والواردة تحمل معها آثار شعوبها . وتجارنا نشروا في رحلاتهم إلى الأقطار التي يمرون بها أو ينزلون بها في السودان الدين الإسلامي والأخلاق الفاضلة التي حلاهم بها الإسلام . وهذه

التجارة داخل البلاد وخارجها درّت على الشعب الثروات الضخمة ، فعم البلاد الرخاء . وقد أدى هذا النشاط التجاري إلى تطور الصناعات في النسيج والزربية والجلود والنحاس والخزف . فكانت «بأقادير» معامل يصنع فيها الخزف في القرنين العاشر والحادي عشر (م) .

فأهل «أقادير» كانوا اذا يستعملون الأواني المصنوعة ببلدهم ، فكانت مطلية مزخرفة بالرسوم أو مفروضة ، فقد عثر الأستاذ «بال» في جولة قام بها في ضواحي المدينة ، أيام كان مديرا للمدرسة الثانوية بتلمسان على أحد من هذه المعامل ، ويظهر أنه أهمل في أواخر القرن الثاني عشر (م) بعد أن زود أهل البلد فخارا طيلة قرون . وقد عثر على معمل آخر بباب قرمادين كان يعمل فيه الفخارون في عهد الموحدين أي في القرن الثاني عشر (م) ، يقول الأستاذ «بال» ان الشقف التي عثر عليها «بأقادير» تشبه الشقف التي عثر عليها في مدينة الزهراء بالأندلس وفي قلعة بني حماد ، الأولى تعود إلى القرن العاشر (م) والثانية إلى القرن الحادي عشر (م) ما يدل على أن «أقادير» كانت دوما على صلة بهاتين العاصمتين .

وكانت «أقادير» دار ملك ، فلابد من أن يكون لأمرائها وأعيانها وأغنيائها دورفاخرة زينوها بالزليج المصنوع «بأقادير» . إلا أن الأستاذ «بال» لم يجد قطعة واحدة مطلية من بين الآلاف من القطع التي عثر عليها ، فإنها كلها لآجر مربع أو مستطيل وان عدم وجود القطع المطلية لا يجعلنا ننفي وجود هذا النوع في ذلك الوقت فإننا نؤمن بأن الخزف المطلي كان «بأقادير» إذ كان يوجد في القرن الثالث عشر (م) .

وقد عثر على قالب للخزف حذاء سور قديم في نواحي باب العقبة وبالقرب من عين القويدس نجده بالمتحف البلدي . فقد عثر هناك على شقف هي لأوان مختلفة الشكل والحجم والنوع من خزف غير مطلي إلى مطلي مزخرف بالرسوم ومفروض . فليس من شك أن معملا للخزف كان يقع في ذلك المكان .

ووجود معمل هناك ليس من باب الصدفة ، فرأى أصحابه في تلك الناحية ما يحتاجونه من طين وماء . فالأرض تمدهم بطين أبيض رطب صالح للخزف وعين القويدس تساعدهم بمائها على عجن ذلك الطين ، والقالب الذي عثر عليه

بمعمل «أقادير» «رسم على إحدى صفحتيه زخرفتان الأولى حيوانية ، والثانية نباتية» وعلى الصفحة الأخرى زخرفة نباتية . وإذا قارنا هذه الزخارف بزخارف ما بقي من آثارات «تلمسان» القديمة والشقف الموجودة بالمتحف التي تعود كلها إلى ما بعد القرن الثالث عشر (م) فلا نجد أي شبه بين هذه وتلك . ولعل هناك بعض الشبه بين زخرفة القالب النباتية وزخارف محراب مسجد الجامع الذي زينه المرابطون في عهد «علي بن يوسف» عام 1135 م .

وبما أن زخارف القالب عديمة النظر في «تلمسان» بعد القرن الثاني عشر يمكننا أن نعتقد أن هذا القالب يعود إلى ما قبل ذلك العهد (1) .

فإن الشقف التي عثر عليها بعين القويدس لم تكن مساواة بالطريق بل عالية والطريق منخفضة ، وهذه الطريق لم تزل في وقت الأستاذ «بال» على الحال التي كانت عليه في عهد «يغمراسن» في القرن الثالث عشر (م) . ونعلم أن «أقادير» في ذلك الوقت ، كانت في طور الاضمحلال ، يمر بها العاهل حينما كان يعود بعد استعراضه الجيوش بسهل «المنية» و خل إلى عاصمته بباب العقبة . فالطريق التي تنتهي إلى باب العقبة لم تكن إلا تلك الطريق المنخفضة التي تمر اليوم بالمكان الذي كان يقع به ذلك المعمل . لم تك مرصفة في عهد «البكري» ، فقد رصفت في وقت الموحدين أو «يغمراسن» . فإذا تلك الطريق المنخفضة كانت موجودة في القرن الحادي عشر (م) ، وتمر بالمكان الذي يقوم به المعمل . فالمعمل إذا كان موجودا قبل وجود هذه الطريق فيرجع على أكثر تقدير ، إلى القرن الحادي عشر .

ويحدثنا الأستاذ «بال» بأنه يوجد قالب من الفخار بمتحف «قسنطينة» عثر عليه الأستاذ «بلانشي» «بقلعة بني حماد» . فإنه يغاير القالب الذي سبق أن تكلمنا عليه حجما وزخرفا وشكلا ، مع أنه معاصر له . فإن صفحته المحفورة يغطيها طلاء أصفر يجعلها ملساء لا يلصق بها الطين ورسمت عليها زخرفة خطية نصها : ذلك الكمال .

إن الشقف التي عثر عليها في معمل «أقادير» تخبرنا بأن الفخارين كانوا يصنعون عهدئذ بذلك المعمل الفخار المحفور بواسطة ذلك القالب والطين المطلي الملون

(1) الفرد بال (الذي كان مديراً بمدرسة تلمسان) .

أي الفخار الأصيل . فإن الأستاذ «بال» لم يعثر على قطع من الخزف ذي البريق المعدني ، ولكن لا ينفي ذلك وجوده وصنعه «بأقادير» . فإن استأنفنا الحفر ، فلا شك أننا نجد منه مثيلا لما عثر عليه الأستاذ «بوسكو Bosco » بمدينة «الزهراء» بالأندلس و «بيليي» «بقلعة بني حماد» .

وبجانب صناعة الخزف والنسيج والنحاس والدباغة كانت صناعة الخشب والأسلحة والآلات الحديدية . إن السكة نفسها كانت تضرب بأقادير . فقد سهل أمرها على كل قائم بدعوة أو آخذ بزمام أمر البلد ، فكان «للخير بن محمد بن خزر» المغراوي عملة مضروبة باسمه ولابن يعلى كذلك .

وهذه الصناعات لم تكن السبب الوحيد في ازدهار الحياة الاقتصادية في أقادير وإقليمها . فالفلاحة هي الأخرى ساهمت بقسط وافر في انتشاره ، وقد نشط الزراعة اعتدال المناخ وخصب الأرض ، فقال صاحب الاستبصار : «وهي (أي تلمسان) كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة الخيرات» إلا أن هذه الزراعة كانت تمر بأزمات في سنوات الخارجية وفي أيام الصراع الأموي الشيعي نظرا للاضطرابات السياسية والثورات المتكررة التي كان البلد يتعرض لها ، فتقل حينئذ المواد الغذائية وترتفع الأسعار وتكدس الأسواق ، ولكنها كانت تنهض وتزدهر من جديد كلما خمدت نار الفتن واطمأنت قلوب الفلاحين فيستأنفون نشاطهم فينعمون ويعمّ الرّخاء الحواضر والبوادي . فالفلاحة والصناعة كانتا عاملين مهمين في ازدهار التجارة ومصدرا لسعادة الفرد والجماعة . فيمكننا أن نقول : ان حالة «أقادير» الاقتصادية كانت تبعث على الارتياح في أيام الاطمئنان .

فالسكان كانوا إذاً يعيشون تارة فرحين مرحين وأخرى قلقين مضطربين متمسكين بحبل الصبر متفانين في حب بلدهم . هجم عليهم «بلقين» الصنهاجي ولم يتمكن من الاستيلاء على المدينة إلاّ بعد حصار طويل . دخلها وأرغمهم على الانتقال إلى «أشير» كما سبق أن قلنا . ففعلوا ولكنهم أسسوا مدينة سموها باسم بلدهم المحبوب . و «أقادير» ، بعد خروجهم منها ، لم تبق شاغرة ، فلم تلبث أن دبت فيها الحياة من جديد عمرها قوم من زناتة دفعتهم العصبية إلى أن يخلفوهم

حتى تبقى السيادة فيها لقبيلة «زناتة» . فاستقل بها أمراء قدّموهم على أنفسهم ، ولكن هؤلاء الأمراء كانت البداوة تغلب عليهم ، لم يعرف ملكهم تلك الأبهة التي عرفتها دولتا صنهاجة بأفريقية والأمويين بالأندلس . لم نقف على سير دوالب الحكومة ولا نظامها الإداري الذي عرفته دولها المختلفة . إلا أننا نعرف أنه كان لهم وزراء يختارونهم من بين ذويهم الأقربين أو من قواد قد تأكدوا من إخلاصهم وولائهم . ولا شك أنه كان لهم مصلحة الجبايات . فالمدينة كانت دار مملكة ، وكان أمراؤها يحتاجون إلى مال للقيام بشؤون الإمارة ولإرضاء الجند والحلفاء . ولا يحصلون على هذا المال إلا عن طريق الضرائب والخراج ، ولكننا نجهل كل الجهل تنظيم تلك الجبايات . ونعلم أيضا أنه كان لهم سكة يضربونها باسمهم . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك .

وقد ضرب الإسلام أطنابه في «أقادير» وذلك بفضل تلك الجماعات من الفقهاء الذين دخلوا المغرب فكانوا يفقهون البربر في الدين وينشرون فيهم القرآن ويعلمونهم العربية . فأخذ البربر ولاسيما أهل القرى والمدن منهم ، يقرأون القرآن ويتعلمون العربية باحتكاكهم بالعرب وبالإنصات إلى الدروس الدينية التي كانت تلقى طبعا بالعربية في المساجد . وكان «بأقادير» مساجد انتصب فيها الفقهاء للوعظ والإرشاد .

فتنورت عقول الناس وتطهر مجتمعهم من عاداته في الجاهلية ، فرسخ الإسلام في قلوبهم وسعوا في توطيد أركانه والذود عنه ، يحدثنا التاريخ بأنهم قاموا بثورة عارمة على العرب . ولكن لثورتهم أسبابا أهمها الحركة التي قام بها دعاة الخارجية الذين وفدوا من المشرق ليعكروا صفو الجو السياسي ضد السلطة المركزية ، ثم سوء سياسة ولاة الأمويين والعباسيين بإثقال كاهل الفلاحين والتجار بالضرائب .

فثورة البربر ترمي إلى أبعاد سياسية واجتماعية ليس غير ، فإنهم لم يفكروا البتة في نبذ الإسلام والرجوع إلى الوثنية أو المسيحية أو اليهودية ، والحركة الخارجية لم تدم في إقليم «أقادير» . فقد جاء «إدريس» الأول ثم «إدريس» الثاني وطهرا منها ومن المعتزلة أوطان زناتة من «أقادير» إلى «شلف» .

ثم انتشرت بعد ذلك الشيعة فقاومتها زناتة بمساعدة الدولة المروانية بالأندلس حيث كان المذهب السني سائدا (1) . وفي شرق الجزائر قد نبذ الصنهاجيون مذهب الفاطميين ، فالجزائر قد عمها مذهب مالك ما عدا «تاهرت» وما والاها من البلاد حيث ارتكزت الإباضية والاعتزال أيضا . إلا أن الاضطرابات السياسية الكثيرة في عهد زناتة لم تمكن من ظهور علماء كثيرين «بأقادير» في المذهب المالكي .

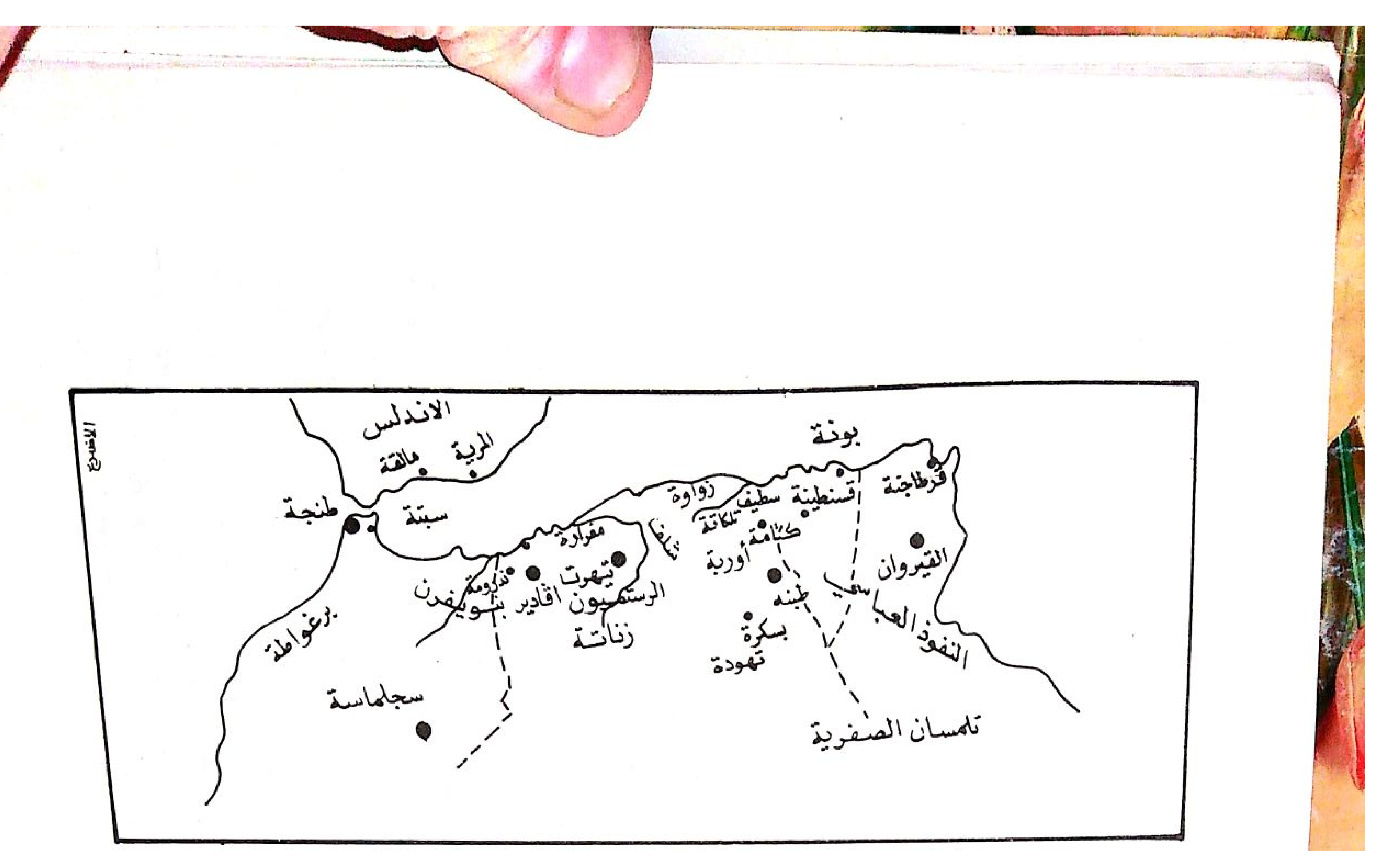
كان بين ظهراني زناتة «بأقادير» جلية نصرانية قد سكن أجدادهم قدماً تلك الربوع وأبوا أن يغادروا البلد بعد زوال الروم . ويحدثنا «البكري» عن كنيسة كان النصارى يترددون اليها ولا يعتدي عليهم أحد مما يدل على روح التسامح الذي اتصف بها المسلمون . لكن هؤلاء النصارى الذين رآهم «البكري» لم يبق لهم أثر في المجتمع التلمساني ، فقد ذابوا في الجماعة بتوالي الأيام أو غادروا «أقادير» . كانت «أقادير» المرحلة الأولى التي يقيم فيها رجال الفكر القادمون من الأندلس . والمتجهون إلى المشرق وإلى «مكة» بالخصوص لقضاء الحج والاحتكاك بالعلماء والأدباء ، والمرحلة الأخيرة يتيم فيها رجال المشرق وأفريقية والمغرب الأوسط الذين أصبحوا يرحلون للبحث والدراسة في مدن الأندلس الثقافية مثل «قرطبة وغرناطة وإشبيلية» ، فكان المثقفون من أهل «أقادير» يتصلون بهؤلاء وأولئك ، فينتفعون من ثقافتهم ، كل هذا ومع ذلك كانت الحركة الفكرية والأدبية «بأقادير» غير مسايرة للحركة التي كانت تتميز بها «تيهرت» عهدئذ ، فهذه الدولة كانت مسالمة ورؤساؤها كانوا مثقفين يحبون العلم ويتفانون في نشره . وأما أمراء أقادير فكانوا لاهين بالحروب فلم يمكنهم ، والحالة هذه ، أن يعطوا الثقافة حظها من العناية ولم يشجعوا رجال الفكر والأدب بالمال ، وكانت عادة يتبعها أمراء الدول الإسلامية هي أن يغدقوا على أهل الثقافة أموالا طائلة تعينهم على سد حاجاتهم ، فيتفرّغون لنشر العلم والإنتاج .

غير أن «أقادير» لم تخل حينئذ من أهل الفكر . فبمقبرة «أقادير» ضريح العالم الجليل «أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي». أصله من مدينة «المسيلة» وسكن طرابلس أنهى فيها دراسته ، قصد «أقادير» . فأقام بها حتى مات ، وبها ألف

(1) المقري : نفح الطيب ، ج 4 ، ص : 214 .

كتابه وهو شرح صحيح البخاري سماه النصيحة وهو أول شرح وقع لهذا الكتاب القيم . وله تآليف أخرى منها كتاب النامي شرح به الموطأ ، وكتاب الواعي في الفقه والإيضاح في الرد على القدرية . فالاعتزال قد دخل إلى المغرب مثل الخارجية والشيعة وقد وصل صداه إلى «أقادير» . قد قصد عالمنا الجليل الطلاب ونالوا من علمه الغزير منهم «أبو بكر بن محمد بن أبي زيد» «وعبد الملك النحوي» . توفي ، رحمه الله ، في «أقادير» سنة 402 هـ (1011 م) ، إلا أن مؤرخنا «أبا راس المعسكري» يقول : ان وفاته كانت في آخر القرن الرابع . عده «ابن فرحون» من أهل الطبقة الثالثة .

وفي المقبرة الواقعة وراء الضفة اليمنى لوادي متشكانة وعلى أربعين مترا من قبة أميرة زيانية (شكل 3)نلاحظ ضريح سيدي «يعقوب يوسف التفريسي» . فيخبرنا «يحي بن خلدون» بأنه كان عالما ينتصب للإقراء في مسجد بنيَ في أوائل القرن الرّابع عشر (م) ، ولا زالت آثار منه ماثلة للعيان . وهناك مسرب يؤدي بالزائر من ضريح سيدي «يعقوب» إلى قبة سيدي «وهب بن منبس» المتوفي في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر (م) . التي لا تبعد عن سور «أقادير» حيث كان ينفتح باب سمي باسم ذلك الولي عفت آثاره اليوم .


الاندلس
المرية
مالقة
طنجة
سبتة
بونة
قرطاجنة
زواوة
سطيف
قسنطينة
تلكاتة
كتامة
أوربة
مغراوة
تيهرت
الرستميون
زناتة
اقادير
بنو يفرن
تدرومة
برغواطة
سجلماسة
طبنه
بسكرة
تهودة
القيروان
النفوذ العباسي
تلمسان الصفرية

تلمسان المرابطية

تنتمي الدولة المرابطية إلى قبائل صنهاجة التي كانت تستقر بأعماق الصحراء بأرض موريطانية الحالية . وأمير صنهاجة حينئذ «يحي بن إبراهيم» القُدالي يرجع اليه أمر كل من «لمتونة» «وقُدالة» «ومسوفة» ، فكان إبراهيم هذا محبا للعلم ومجدا في طلبه ، فخرج من بلاده سنة 427 إلى المشرق . فحج وعاد في سنة 428 هـ مصحوبا «بعبد الله بن ياسين» الجزولي . وكان هذا عالما فاضلا ، فأخذ ينشر في القوم تعاليم الدين الصحيح ويبث فيهم حب الجهاد في سبيل الله ونشر الدين والذود عنه . وذلك في رباط . وهذه الجماعة التي كانت تلازمه عرفوا باسم المرابطين نسبة إلى هذا الرباط . وبتوالي الأيام تضخم عددهم ، فألف منهم «عبد الله بن ياسين» جيشا جعله تحت قيادة «يحي بن عمر» ، ودخلوا إلى المغرب كمصلحين.وفعلا قاموا بالإصلاح وقاوموا الخارجية والشيعة ، ولكن هذه الحركة الإصلاحية أصبحت بتوالي الأيام حركة سياسية . فقتل «يحي» في إحدى المعارك . فخلفه على القيادة أخوه «أبو بكر بن عمر» ، فتغلبوا على أقاليم كثيرة ولكن حدث شقاق بين لمتونة ومسوفة بالصحراء فخشي أبو بكر أن تتفرق كلمة صنهاجة فتضعف شوكتهم ، فشخص اليها ليصلح بينهم ، وعهد لابن عمه «يوسف بن تاشفين» بقيادة جيوش المرابطين في المغرب وأوصاه بتتبع معاقل زناتة وقتالهم ثم مضى فقضى «يوسف بن تاشفين» على زناتة «بأغمات» «وتادلى» ، ودوخ أقاليم أخرى بالمغرب الأقصى . وفي ذلك الوقت بالذات اكتسح «بلقين بن حماد» الصنهاجي معاقل «زناتة» في المغرب الأقصى وكانت عاصمتهم «فاس» فافتتحها سنة 454 هـ ، ثم أخذ رهائن من أهلها وعاد بهم إلى عاصمته ، وبقيت

فاس تحت حكم بني خزر المغراويين ، ولم يسترح هؤلاء من نكبتهم حتى فاجأهم «يوسف بن تاشفين» في جموعه ، وكان أمير فاس عهدئذ «معنصر بن المعز بن زيري بن عطية» بايعته مغراوة في رمضان سنة 455 . فقاوم المرابطين وانتصر عليهم في إحدى المواقع ولكن «يوسف» تمكن من الدخول إلى فاس صلحا في سنة 455 بعدما أن قرّ منها «معنصر» . ثم استأنف «يوسف بن تاشفين» تجولاته في أنحاء المغرب الأقصى ، وفي غضون ذلك عاد «معنصر» إلى عاصمته فعزم حينئذ «يوسف» على الذهاب اليه وحاصر المدينة ثم دخلها عنوة سنة 463 (1) ، وقتل عددا كبيرا من أهلها ، ولم يكتف «يوسف» بذلك فأجمع على القضاء على مغراوة أينما كانوا . فعقد لقائده «مزدالي التكلاتي» اللمتوني بالتوجه إلى أوطان مغراوة بالمغرب الأوسط . فزحف «مزدالي» في نحو عشرين ألف مقاتل إلى نواحي «تلمسان» في سنة 472 هـ فقاتلهم عنها صاحبها يومئذ «يحي من بني خزر إلى أن سقط ميتا في ساحة الوغى ، عند ذلك راح الجند المرابطي يعيث بتلك النواحي بدون أن يستولي على المدينة ، ثم عاد إلى المغرب ، ولم تمض السنة حتى قام «يوسف» لغزو المغرب الأوسط ، فافتتح منه عدة أقاليم ، واستولى على «تلمسان» وقضى على من كان بها من بني خزر واختط بجانبها مدينة «تاقرارت» بمكان معسكره وهو اسم محلة بلسان البربر وهي التي صارت اليوم مع «أقادير» بلدا واحداً سنة 472 هـ (1070 م) . ومن «تلمسان» توجه إلى وهران «وجبال وانشريس «وأعمال تنس» (1) ومراده من هذه الجولة القضاء على ممالك زناتة .

فمحا آثار مغراوة من جميع المغرب الأوسط ، ولم يدخل «جزائر بني مزغنة» التي يسكنها بنو أرومته ، ورجع إلى «تلمسان» ونصب فيها عامله «محمد بن تينعمر» المسوفي . ثم رجع إلى عاصمته «مراكش» ، فدخلها في ربيع الثاني سنة 475 هـ (1082 م) فأصبح المغرب الأوسط يومئذ بيد المرابطين .

وكانت الدولة الحمادية إذ ذاك لاهية بإخماد ثورة «أبي يكنى بن محسن» بن القائد بن حماد «بقسنطينة» . فظفر به «المنصور» ملك «بجاية» ، فتفرغ حينئذ لدحر المرابطين من مملكته ، فخرج في شوال 486 هـ (تموز 1103 م) ، فأجلى

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر : ج 6 .

جيوشهم مما استولوا عليه من الثغور الحمادية . ثم عقدت الهدنة والصلح بينه وبين «يوسف بن تاشفين» . إلاّ أن المرابطين أعادوا بعد ذلك غزوهم للجزائر بقيادة «محمد بن تينعمر» . فردهم عنها «عبد الله بن المنصور» . وكانت الوقائع حول الجزائر شديدة ، فحوصرت المدينة يومين ولكنها لم تسقط بأيديهم وهلك «محمد بن تينعمر» فولى أخوه «تاشفين» على عمله . فغزا «أشير» وافتتحها وخربها . وكان «لبني ومانو» «وبني يلومي» أثر في مظاهرته وإمداده مع أنهم كانوا من جهة «المنصور» الحمادي وأصهاره ، فأحقد عليهم «المنصور» بعدها ، فهذه التحديات من طرف المرابطين ومن أحلافهم «بني ومانو» وبني يلومي» تدعو إلى ردّ فعل قوي . فأجمع «المنصور» على الخروج اليهم بنفسه . فغزا «بني ومانو» في عساكر «صنهاجة» . وجمع له «ماخوخ» . فهزمه وقتله وقتل زوجته أخت «ماخوخ» مشفيا . ثم نهض إلى «تلمسان» في جيش جلب من «صنهاجة» وحشر فيه العرب من «الاثبج ورياح» «وزغبة» ومن لحق بهم من زناتة . وكانت الغزوة الشهيرة كثر فيها عدد القتلى والجرحى ، وانكسرت شوكة المرابطين . فهزموا عن «تلمسان» إلى «تسالة» ودخلها «المنصور» في جنده فعاث فيها الجيش ، وعظمت المحنة بأهلها . فخرجت يومئذ زوجة والي المرابطين مستعطفة «المنصور» . فتأثر لحالها وانكبابها على قدميه (1) . فتجافى عنهم وأبقى عليهم . وتمّ السلم بين المملكتين المتجاورتين . ثم قفل «المنصور» عائدا إلى عاصمته «بجاية» . فاستقرّ المرابطون في «أقادير» إلى أن زحف اليهم الموحدون وقوضوا عرشهم .

تـاقـرارت

نزل المرابطون بالجانب الغربي من أقادير وضربوا سرادقاتهم وخيامهم . ولكن سرعان ما استحالت هذه السرادقات وهذه الخيام إلى دور . وشيّد قصر نزل به أولو الأمر ثم الموحّدون من بعدهم . وصار هذا القصر يسمى في عهد «بني زيان» القصر القديم وذلك بالنسبة إلى القصر الجديد الذي ابتناه «يغمراسن بن زيان» وأطلق عليه اسم المشور . والقصر القديم قد بلي وزال . وقام العالم

(1) مراصد الاطلاع/ص : 134 .

«بروسلارد» . بحفريات في مكانه ، فعثر على حجارات لقبور عليها كتابات تفيدنا بأسماء ملوك وأمراء وأعيان .

يعتقد بعضهم أن «تقرارت» لم يسورها المرابطون . فكيف يا ترى ، أنهم يبقونها بدون سور وقد كان يسكنها الجند وأصحاب السلطان ولهم بالإقليم أعداء . فنؤمن بأنها كانت مسورة وسورها كان مبنيا بالطابية كسائر الأسوار المرابطية في المغرب الأقصى . فقضى عليها جيوش الموحّدين عند رجوعهم من «وهران» بعد القضاء على «تاشفين بن علي» . فهدموا الأسوار ، وما بقى منها لم يقو على مجابهة عوادي الطبيعة فبلى وزال . ويخبرنا الأستاذ « طيراس » بأنه اكتشف « بتلمسان » أثر لسور قديم يرجع إلى العهد المرابطي . فلا شك أنه البقية الباقية من السور الذي شيده المرابطون عندما استقروا بالمدينة .

وقد أمر الوالي المرابطي ببناء مسجد جامع بجانب القصر سنة 1070 م ، ولكننا نرى تاريخا آخر مسجلا في كتابة نسخة تدور بقاعدة قبة المحراب يشير إلى الفراغ من بنائه ، فنعتقد أن هذا التاريخ 530 هـ (1135 م) ما هو إلا تاريخ ترميم المسجد وتزيينه في عهد «علي بن يوسف» ليساير مساجد عصره ، لأن المسجد كان شيد في العهد الذي لم يدخل بعد التيار الفني الأندلسي إلى المغرب أي قبل أن يستولي «يوسف بن تاشفين» على شبه الجزيرة الابارية . فإن المسجد الجامع يقع في قلب المدينة الجديدة « تاقرارت » ولي القصر وفي الحي التجاري قرب القيسارية والأسواق الأخرى . فهو بناء مستطيل الشكل ، طوله من الشمال إلى الجنوب 60 مترا وعرضه من الشرق إلى الغرب 50 مترا . ويتألف المسجد من بيت للصلاة وصحن مربع تتوسطه فوارتان ، وتكتنفه من الجهة الغربية مجنبة تتألف من أربع بلاطات ، أما المجنبة الشرقية فتتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتدادا لبلاطات بيت الصلاة . ويشتمل البيت على 12 بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم . وهذه الصفوف من الدعائم تقسم سطح القاعة إلى 6 أساكيب تمتد من الشرق إلى الغرب . ويلاحظ أن عقودا تمتاز بفصوص تعطيها رشاقة وحسنا وأخرى منفوخة تشبه حذوة الفرس . والبلاطة الوسطى تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى على

النحو المتبع في مساجد المغرب الأقصى وقرطبة ـ ويقطع سطحها قبتان : واحدة منهما تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى (شكل 4) أما القبة الثانية (شكل 5، 6) فتتقدم المحراب وهي آية من الفن الأندلسي ـ المغربي . فهي من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة . يقوم من قاعدة القبة 12 عقدا تتقاطع فما بينها تاركة قبيبة مقرنصة . والفراغات الناشئة من تقاطع العقود تزدان بتوريقات مفرغة في الجص وتتخللها شمسيات صغيرة . والكل يؤلف منظرا رائعا يذكرنا بقباب جامع قرطبة ، فلا شك أنها من صنع نحاتين أندلسيين ، والطابع الأندلسي يظهر جليا كذلك في المحراب (شكل 7 ، 8) فإنه كثير الشبه بمحراب جامع قرطبة في شكل قوسه وفي النقوش التي تعلو هذا القوس وفي سقفه الذي هو على صورة محارة مقسمة إلى فصوص زخرفية ، وسقف المسجد خشبي كسقف مسجد ندرومة الذي أمر ببنائه «يوسف بن تاشفين» والمساجد التي بنيت في المغرب الأقصى في ذلك العهد . والفرق بيّن بين هذه المساجد ومسجد «تلمسان» . فقد أدخلت تحسينات جدية في عهد «علي بن يوسف» حيث طغت أساليب الفن المعماري وغزت المغرب . وكانت الأندلس وقتئذ تحت نفوذ الدولة المرابطية . وكان للمسجد مقصورة أتِمّت في رمضان 533 هـ (أوت 1139 م) في عهد «علي بن يوسف» . وكان هذا الملك يصلي داخل هذه المقصورة . فهكذا كان يفعل «بنو أمية» . فقلدهم كما قلد الحماديون في ذلك الفاطميين . قد بليت هذه المقصورة وأزيلت ونجد أثر خشبها في المتحف البلدي .

واستيلاء الموحدين على «تلمسان» سنة 1144 م منع والي «تلمسان» من أن يتم تزيين هذا المسجد . فقام بذلك «يغمراسن بن زيان» . فهو الذي أضاف إلى الجامع القسم الشمالي من مسطح قاعة الصلاة بما في ذلك القبة الثانية والصحن والمئذنة التي تمتاز بعزري يخالف عزري كل من مآذن المرابطين والموحدين والمرينيين . ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة سبعين مترا ، وأضيف بعد «يغمراسن» خزانتان تضمان كتبا مختلفة : الأولى في سنة 1359 م والثانية في أواخر القرن السادس عشر (م) . فنستخلص من هذا كله أن بناء جامع «تلمسان» قد مر بمراحل شتى .

وكان يقوم بهذا المسجد الدروس ، ينتصب فيه العلماء لإلقاء ما اكتنزوه من العلوم الدينية واللسانية على طلبة قد كثر عددهم ، فإن «تلمسان» اتسعت

رقعتها بإضافة «تاقرارت» اليها ، وكثر سكانها وعظم شأنها . فبالطبع تنفق سوق العلم والمعرفة . فقال ابن خلدون : «العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة لأن العلم من جملة الصنائع ، والصنائع إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة» (1) .

وفي هذا العصر توطد مذهب مالك لأن المرابطين لم يعرفوا الدين إلا على يد عبد الله بن ياسين» المالكي ، ثم ملكوا الأندلس وأهلها مالكيون . فكان الناس في المغرب الأقصى وغرب الجزائر حيث بسط المرابطون نفوذهم لا يعرفون في عقائدهم سوى عقيدة السلف وفي عباداتهم مقلدين لمذهب «مالك بن أنس» . مات «يوسف بن تاشفين» وقام «علي» بأمر الدولة بعد أبيه . فمال هذا الأمير إلى أهل الفقه والدين واشتدّ إيثاره لهم ، وأصبح بعد حين لا يقطع أمرا في جميع أنحاء المملكة بدون أن يشاور الفقهاء ولا يولي واحدا من قضاته إلاّ وأمره أن لا يقطع أمرا ولا يبت حكما إلا بمحضر أربعة من الفقهاء . فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من الفتح ، ولم يزل الوضع على ذلك وأمور المسلمين راجعة اليهم وأحكامهم موقوفة عليهم طول مدة جلوسه على العرش . فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس اليهم . فكان الفقهاء ينظرون إلى مجرد الكلام ولا يهتمون بعلوم الحديث وتفسير القرآن ، وكل مجادلة عقائدية فهي بدعة في نظرهم ، ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِم عِلمَ فروع مذهب مالك . فنفقت حينئذ كتب المذهب ونبذ ما سواها حتى نسي النظر في كتاب الله تعالى وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الوقت يعتني بها ، وقرر الفقهاء ان علم الكلام بدعة في الدين وتكفير كل من ظهر منه الخوض فيه . فقام حينئذ الملك يكتب إلى عماله في أرجاء المملكة بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، ويتوعد من وجد عنده شيء من كتبه . ودخلت حينئذ كتب الغزالي إلى المغرب فوجدها الفقهاء خطرا عليهم تهدد سطوتهم لدى الملك والشعب . فحضوا أمير المسلمين على مصادرتها وإحراقها . فسمع لكلامهم وأمر بإحراقها وهدد بالقتل

---

(1) المقدمة ، ص : 379

واستئصال مال من وجد عنده كتاب من كتب «أبي حامد» . فتم الأمر سنة 505 هـ .

وكان من المعارضين «أبو الحسن البرجي» و «أبو القاسم بن ورد» «المرسي» «وأبو الفضل النحوي» ، ولكن المعارضة لم تجْدِ نفعا وبذلك بلغ نفوذ الفقهاء في عهد «علي بن يوسف» .

«وأبو الفضل» هذا كان ميّالا إلى النظر والاجتهاد ومتأثرا بآراء الغزالي ويبث كتبه أينما حل ولاسيما الإحياء ، فقد انتسخ هذا الكتاب وجعله ثلاثين جزءا . فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءا ، وكان يقول : «وددت أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب» (1) كان يعيش في «القلعة» مكرما محترما ، وقد دخل المغرب ووقع عليه إقبال كبير . ومن تلاميذه «ابن الرمامة» رئيس المفتيين «بفاس» والفقيه أبو عمران موسى الصنهاجي وأبو بكر المخلوف وكلهم جزائريون ، فالتلمسانيون لابد من أن يتأثروا بما حدث في بلادهم . فكانت «تلمسان» في اتصال دائم مع «القلعة» «وبجاية» يرحل علماؤها إلى الديار الحمادية والعكس بالعكس ومع الأندلس والمشرق . فلا نتعجب من أن يتآخى عندهم المذهب المالكي والتفسير والحديث والمجادلات العقائدية . فلم تقو السلطات المحلية على إجماد الحركة الفكرية في «تلمسان» كما وقع في المغرب الأقصى حينئذ .

نظام الحكم والادارة

أصبحت المملكة المرابطية واسعة الأرجاء تمتد من المحيط إلى «تلمسان» ومن الأندلس إلى موريطانية ، فلابد إذن من تعيين ولاة في أنحائها يديرون شؤونها . وكان الولاة يُعيَّنون من «لمتونة» لتفوق هذه القبيلة على غيرها ولأن عاهلها منها . وقد تعاقب على ولاية «تلمسان» محمد بن تينعمر» وأخوه «تاشفين» «ومزدلي» في عهد «يوسف بن تاشفين» ، ولكن لم تلبث «تلمسان» أن عادت بعد «مزدلي» إلى «مسوفة» ، وكان لهم منها بها لأول ظهور الموحدين «يحي بن إسحاق» الملقب «بانكمار» . ووقعت فتنة بين مسوفة ولمتونة ، فلحقه «أنكمار» وكثير من رجال

(1) عبد الله كنون : النبوغ ، ص : 70 ج 1 .

مسوفة «بعبد المؤمن بن علي» قبل دخوله إلى المغرب الأوسط ، فعادت ولاية «تلمسان» إلى لمتونة ووليها منهم «محمد بن يحي بن فانو» . فولي بعده «أبو بكر بن مزدلي» وهو آخر ولاة المرابطين «بتلمسان» .

كان لهؤلاء الولاة سلطة واسعة تخولهم حق التصرف في القيام بحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، لكن «محمد بن تينعمر» وأخاه «تاشفين» أبيا إلا أن تكون هذه السلطة أوسع ، فأغارا مرارا على المناطق الحمادية وذلك بدون أن يستشيرا أمير المسلمين في ذلك ، فركبا اذا مركبا خشنا لأن اعلان الحرب هو من اختصاصات الملك . فقد حصدا ما زرعا ، فالأول قتل في معركة بنواحي «جزائر بني مزغنة» والآخر استوجب سخط الملك ، فعزله بالقائد «مزدلي» اللمتوني الذي بنّى «بتلمسان» الى أن نقله «علي بن يوسف» - الى «قرطبة» ، وبها توفي سنة 508 . وكان الولاة كسائر لمتونة يستعملون اللغة البربرية ويلجأون إلى كتاب في ديوان الرّسائل ، ولكننا لا نعرف اسماء من كتبوا لولاة «تلمسان» .

وكان للمرابطين سكة من الذهب والفضة ، فكانوا يضربون الدينار بالذهب والدراهم والقراريط والدوانق بالفضة . وكان الدينار في ذلك العهد يبلغ وزنه قريبا من أربعة غرامات (1) ويحمل من الكتابة في عهد «يوسف بن تاشفين» ما يلي : «لا اله الا الله وتحت هذه العبارة : أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» وفي الدائرة : من تبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . هذا في وجه وفي الوجه الثاني : الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي (2) «وفي الدائرة : تاريخ الضرب ، وكانت دور الضرب كثيرة في عهد المرابطين بحسب .
تعدد العمال والولاة . فإن هؤلاء خولتهم السلطة المركزية أن يضربوا السكة باسم أمير المسلمين في أقاليمهم وتلمسان من جملة المدن التي كانت السكّة تضرب فيها . وكانت القيمة النقدية لسكة هذه الدولة في جميع ولاياتها مرتفعة نظرا لرواج التجارة بين المغرب وغيره من دول البحر المتوسط والسودان .

---

(1) مظاهر الحضارة المغربية : عبد العزيز بن عبد الله .

(2) كان المرابطون يعترفون بسلطة الخلافة العباسية ويدعون لها .

وكانت لمنصب القضاء أهمية كبيرة في عهد المرابطين ، فكانوا لا يستندون على عصبية قبيلة في تعيينهم القضاة ، بحيث أن جميع قضاتهم كانوا من غير أرومتهم ، وذلك رغبة في تحقيق العدالة بين عموم الرعية ، وكان تعيين القضاة يتم بعهد أمير المسلمين أو نائبه (1) . وكان للقاضي فقهاء مستشارون عددهم أربعة ، ولكن هذا النظام لم يتخذ إلاّ في عهد «علي بن يوسف» وكان يعين القاضي على القيام بمهمته موظفون .

ممن دخل الجزائر في أواخر أيام المرابطين القاضي الأديب «أبو حفص عمر الأغمتي» . سكن «تلمسان» ، وكان قاضيا بها . جاء في أزهار الرياض أن المحدث «أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي » أثنى عليه فقال : «لقيته «بتلمسان» حرسها الله ، قدمها علينا قاضيا . فشمل أهل البلد كلهم بفضله وأدبه وعدله وإجلاله وحسن خلقه لاسيما مع طائفة الطلب وأهل الأدب والنسب . قد أخذ عن كبار علماء «فاس» وعن غيرهم من علماء المغرب والأندلس ، وممن سمى من مشائخه «ابن الرمامة الجزائري» نزيل «فاس» وقاضيها سنة 536 هـ (1141م). لم يلبث «أبو حفص» أن رجع إلى المغرب الأقصى ومن ثم إلى الأندلس . توفي في سنة 604 بإشبيلية .

وكان «بتلمسان» «أبو بحر الأسدي» لقيه فيها «علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني» حوالي سنة 533 هـ (1) . ونزل «بتلمسان» «أبو عبد الله التجيبي» مر بها «أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن عبد الوهاب» القرطبي وروى عنه ومات سنة 573 هـ (2) .

وقد أنشأ المرابطون الحسبة اقتداء بالأندلسيين ، فكان المحتسب «بتلمسان» وبجميع أمصار الرقعة المرابطية يراقب التموين والأسعار والموازين والأحباس ويُعيِّن أئمة وخطباء المساجد ويقوم بالتغييرات اللازمة في المساجد والمباني العامة ، ولكن ، باتفاق مع أمير المسلمين .

---

(1) الذيل التكملة : السفر الخامس ، القسم الأول .

(2) 575 : على حسب ابن الأبار .

وكان لولي «تلمسان» جيش نظامي مؤلف من المرابطين لحماية الثغور والبوادي . ولكن ، كان ينخرط فيه متطوعون في أيام الحروب . فقد أعانهم في حروبهم ضد الحماديين بنو ومانو وبنو يلومي ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

وكان يطلق على المرابطين اسم الملثمين ، لأن الرجال منهم كانوا يتلثمون ويلبسون العمامة والغفائر السوداء ، فشعارهم هو السواد مثل العباسيين ، وكانت نساؤهم يسفرن . فإن أهل «تلمسان» ، رجالا ونساء ، لم يقتدوا بهم في أي شيء من ذلك ، فقد احتفظوا بالأزياء التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، وحافظوا دائما على عوائدهم .

الحـالة الإقتصادية

لما استقر المرابطون «بتلمسان» عرف سكانها حقبة من الهدوء والرخاء ، فكثرت الخيرات ، وازدهرت الصناعات ، ولم تنقطع التيارات التجارية بين «تلمسان» والمغرب الأقصى والأندلس وبلاد السود بل زادت نشاطا والتجارة نفقت أيضا بين عاصمة المغرب الأوسط والمناطق الأخرى من البلاد ، والفضل يرجع إلى وجود شبكة كثيفة من الطرق ساعدت الناس على الانتقال من مدينة إلى أخرى .

ولكن هذا الهدوء الذي تمتعت به «تلمسان» لن يطول أمده . فستندلع ثورة عارمة تهتز لها عروش دول أفريقية الشمالية وتتقوض ، فمن هم هؤلاء الذين سيقومون بهذه الثورة ؟ وما هو الدور الذي لعبته عهدئذ المدينة التي نتحدث عنها ؟

تلمسان الموحدية

قامت الدولة المرابطية على شعار الجهاد في سبيل الله وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات ، واحتفظت بهذا الطابع الديني معظم حياتها . كان عاهلها «يوسف بن تاشفين» يقرب الفقهاء ويستفتيهم ، ولكن ، كان له ما يكفيه لمغالبة نفوذهم ، مات «يوسف» وخلفه ابنه «علي» ، وكان إلى النسك أقرب منه إلى رئاسة الدولة . يقوم الليل ويصوم النهار (1) . فأصبح الفقهاء يسيطرون عليه وينالون منه ما شاءوا . أشاروا عليه بإحراق كتب «الغزالي» ، فامتثل ، وهكذا بقي يخضع لهم خضوعا أعمى إلى آخر أيامه .

وأخذت الحضارة الأندلسية تتسرب إلى المغرب وتتمكن من السكان . فبالطبع أن يحدث بعض الانحلال في الأخلاق تجلت آثاره في شرب الخمر وبيعه علنا في الأسواق وفي نفوذ النساء على الأمراء حتى في الميدان السياسي (2) ، وفي أنواع أخرى من المناكر من الفواحش الشنيعة (3) . فهكذا كان المجتمع بمراكش حين خرج رجل اسمه «محمد بن تومرت» من «هرغة» بالأطلس في طلب العلم . رحل إلى الأندلس ومن ثم إلى المشرق . فحج ودخل بغداد واتصل بعلمائها . فتأثر بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والأصول والسنة وتأثر بتعاليم الأشعرية (4) وتأثر بنظريات «الغزالي» الكلامية التي وصلت إلى المغرب والتي

---

(1) المراكشي : المعجب ، ص : 111 .

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر .

(4) ابن خلدون : جـ 6 .

كانت فاشية في المشرق . فقامه بتلك الديار كان كله دراسة وبحث بحيث أصبح بحرا منفجرا وشهابا واريا من الدين (1) . فلم يبق له إلا أن يعود إلى بلاذه . فشخص إلى «الاسكندرية» ومن ثم أبحر إلى «المهدية» ثم دخل «بجاية» وكانت بلغت من الحضارة عتيا . وقد تجلت آثار هذه الحضارة في الحياة الاجتماعية ، فانصرف الناس إلى متع الحياة يتذوقونها وإلى التفنن في وجوه التزيين .

فخرج «ابن تومرت» إلى السّوق ، فرأى الرّجال في أزياء لا تليق إلاّ بالنساء فصاح قائلا : «لاتتزينوا بزي النساء لأنه حرام» (2) .

وقد أدى به حبه النهي عن المنكر إلى استعمال العصا أحيانا .

وقد أظهر بهذا البلد تدريس العلم والوعظ ، فاجتمعت عليه الناس ومالت اليه القلوب . فخاف الأمير الحمادي عاديته ، فأمره بمغادرة المدينة . فخرج إلى قرية بجوار «بجاية» يقالها «ملالة» (3) ـ فقام بها أشهرا ، وكان بهذه القرية رجل اسمه «عبد المؤمن بن علي» الكومي . ولد «بتاجرة» بنواحي «ندرومة» وذلك سنة 490 هـ (1096 م) قد نشأ وتعلم القرآن بها ، وأراد الاستزادة من العلم ، فنزح عن بلده إلى «تلمسان» وانكب على الدروس . فأخذ عن القاضي «ابن صاحب الصلاة» والفقيه «عبد السلام التونسي» الذي قضى نحبه في «تلمسان» ودفن بالعباد . وكل من ترجم له يخبرنا بأنه كان أكبر عالم في الفقه والتوحيد .

ومن «تلمسان» قصد «عبد المؤمن» «ملالة» ، فاستقر بها مؤقتا ريثما يروح يبحث عن مناهل في الشرق . فاتصل به «ابن تومرت» وسأله أن يصحبه إلى المغرب لإماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع (4) . فأجابه عبد المؤمن . وقد سمع طلبة (تلمسان) «بابن تومرت» فأرسلوا اليه أن يقدم إلى «تلمسان يأخذون عنه . فلبى دعوتهم ، وغادر «ملالة» صحبة «عبد المؤمن» حتى وصلا إلى «تلمسان» . فأقاما «بأقادير» . وانتصب «ابن تومرت» إلى التدريس . فوضع في النفوس هبة

---

(1) نفس المصدر .

(2) البيذق : ص : 52 .

(3) المراكشي : المعجب ص : 180 .

(4) نفس المصدر .

وفي الصدور عظمة (1) . ولازال «بتلمسان» يحث الناس على المعروف وينهاهم عن المنكر ويلوم على الفقهاء ، عبيد النار والدرهم (2) عدم اكتراثهم بما يقوم حولهم من البدع والمنكرات . فوجد هؤلاء الفقهاء أن مبادئه تخالف مبادئهم ، فتيقنوا أن بقاءه بين ظهرانيهم خطر عليهم . فأشاروا على الوالي بإبعاده فنفذ الوالي طلبهم فخرج «محمد بن تومرت» وفي قلبه ما فيه قاصدا مدينة «فاس» رفقة «عبد المؤمن» . فلما وصلا اليها انتصب إلى التدريس كعادته ، وكان جل ما يتحدث عنه الاعتقاد على طريق الأشعرية ، وكان أهل المغرب ، كما سبق أن قلنا ، ينافرون هذه العلوم ويعادون كل من يتعاطاها . كانوا على مذهب السلف في الاعتقاد ومن إقرار النصوص على ظاهرها وعدم تأويلها . فتحزب الفقهاء عليه ووشوا به إلى الوالي . فجمعهم وأحضره معهم . فجرت له مناظرة كان له الشفوق فيها والظهور على خصومه لأنهم كانوا صياما عن جميع العلوم النظرية . فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على الوالي بإبعاده حتى لا يفسد عقول الناس .فامتثل الوالي ، وما كان على «ابن تومرت» إلا الرحيل إلى مراكش . فوجد أهلها قد ضربوا الرقم القياسي في ارتكاب المناكر . والذنب يرجع إلى الفقهاء من جهة وإلى أولي الأمر من جهة أخرى . فرمى الأولين بالقصور والجهل والتهافت على المال والجاه ، والآخرين بالضعف وقلة الحزم والتغافل عن أمور الدين . فأمر أمير المسلمين بإحضاره ، وجمع الفقهاء للمناظرة ، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول «ابن تومرت» حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه «مالك بن وهيب» كان قد شارك في جميع العلوم (3) فعزموا على أن يتخلصوا منه . فأشاروا على أمير المسلمين بقتله . فأبى أن يقتل الرجل بدون أن يقوم بما يدعو إلى ذلك . إلا أنه أمر بإبعاده ، فقصد حينئذ «ابن تومرت» قبيلته «هرغة» ونزل داره في سنة 514 هـ (4) .

---

(1) نفس المرجع .

(2) بن تومرت .

(3) المراكشي المعجب .

(4) البيذق : ص : 72 .

وأقام رابطة العبادة في سنة 515 هـ . فاجتمع اليه الطلبة والقبائل (1) . فشرع في تدريس العلم ، وألف لهم عقيدة بلسانهم . ثم استدعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونهاهم عن سفك الدماء . وبعد أيام مضت أحس بتعلق الناس به ، فأمر بعضهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل ، وأخذ يذكر المهدي حتى قرر في نفوسهم فضيلته ادعى ذلك لنفسه ، ورفع نسبه إلى النبي مع أنه بربري قح ، وصرّح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي والمعصوم . فلما تحقق أنه استقر عندهم أنه المهدي المنتظر بسط يده ، فبايعوه على ذلك . ثم صنف لهم التصانيف في العلم منها كتاب سماه «أعز ما يطلب» وعقائد في أصول الدين . وكان على مذهب «أبي الحسن الأشعري» في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة في نفيها ؛ وكان يبطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه للعامة شيء . وبعد هذا كله أخذ يحارب المرابطين ، فحركة «ابن تومرت» قامت إذن على أساس مزدوج ديني وسياسي . مات يوم الاثنين الرابع عشر لشهر رمضان المعظم من سنة 524 هـ (2) بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لقومه ما هم فاعلوه (3) . فكتم أصحابه وفاته ولم يعلموا بذلك أحدا إلى أن أقاموا بعده «عبد المؤمن بن علي» فقام هذا بالأمر من بعده ، وبايعه المصامدة . وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى استفحل أمر الموحدين على حساب المرابطين الذين رموهم بالتجسيم ولم يكونوا مجسمين ولم يكن التجسيم لهم عقيدة (4) .

أخذ «عبد المؤمن» يتجول على رأس جيش ضخم قوي في البلاد المغربية ، ولم يقنع بذلك ، فانتقل إلى أحواز «تلمسان» ، وبايعه أكثر زناتة المستوطنة بها (5) ، ونزل برأس الجبل الذي يعلو المدينة .

---

(1) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص : 777 .
(2) الحلل الموشية .
(3) المراكشي : المعجب .
(4) نفس المصدر .
(5) الحلل الموشية .

كان الجيش المرابطي يتكون في بدايته من المرابطين لمتونة ومسوفة وكدالة . إلا أن الحروب المتوالية جعلت عدده يتناقص (1) . وأضف إلى ذلك أن أساليب الحرب تطورت وجعلت المرابطين يستعينون بعناصر أجنبية ومحلية . وفي عهد «علي بن يوسف» دخلت عناصر مسيحية من أسبانية كانت تحت قيادة «الروبرتر» الذي صمد للدفاع ضد الموحدين . وفي سنة 464 هـ (1071 م) أدخل في نظام الجندية نحو ألفي فارس من عبيد السودان . وقد اضطربت دولة المرابطين في أخير أيام «علي» . فاستولى الموحدون على كثير من أراضيها في المغرب الاقصى ، وساءت الأحوال الاقتصادية من جراء الحروب ، وما كاد يموت حتى وقع ما هو أخطر . فالجبهة المرابطية تصدعت أركانها وتفرقت كلمتها ، وذلك أن عدة من زعماء مسوفة خرجوا على حكومة «مراكش» والتحقوا بجيش الموحدين وقدّموا طاعتهم إلى «عبد المؤمن» منهم «ونجمار» حاكم «تلمسان» السابق . فاشتد بذلك الاضطراب في الجبهة المرابطية . وقد انشق على «تاشفين بن علي» أيضا «بنو ومانو» من بطون زناتة الذين كانوا أحلافهم ضد بني حماد وقدم أشياخهم طاعتهم للموحدين فوجه اليهم جندا تحت رئاسة «الروبرتر» فسارع الموحدون إلى إنجادهم . فتحصن «بنو ومانو» ببعض التلال ، فصعد اليهم المرابطون ، ولكنهم ردوا على أعقابهم . وكان «بنو عبد الواحد» و «بنو يلومي» من أنصار المرابطين . فسار اليهم فيلق من الموحدين تحت رئاسة «ابن وانودين» و «ابن زجو» «وابن يومر» . وعاثوا في بلادهم واستاقوا كثيرا من الغنائم . ولكنهم لم يستفيدوا منها إذ اعترضهم حشود من زناتة واستولوا على معسكر الغنائم وقتلوا حراسه وهم من بني «ومانو» ، وعددهم ستمائة رجل . فتحصن الموحدون بجبل هناك ، وسار عسكر المرابطين صحبة حلفائهم بني «ومانو» الى «منداس» بلد بني «يلومي» . فانضم اليهم هؤلاء وحشود من زناتة ، فوصل الخبر الى «عبد المؤمن» . فسار بقواته من أحواز «تلمسان» إلى أرض «يلومي» ، وكان «تاشفين بن علي» قد قدم في نفس الوقت إلى «تلمسان» وحشد فيها عسكرا وأرسله على عجل إلى محلة المرابطين في منداس . وانضم اليهم «الروبرتر» في حشوده ، واجتمع بذلك للمرابطين

(1) طيـراس ، ص : 248 .

جند ضخم ، فلما شعر «عبد المؤمن» بتفوق خصمه لجأ الى خطة حربية طريفة هي خطة المربع . جاء في الحلل الموشية أن «ابن اليسع» قال حدثني غير واحد من الموحدين قال : «لما نزلنا من جبل «تلمسان» نريد بلاد زناتة أتبعنا المرابطون ، فتلاقينا معهم ، فصنعنا دارة مربعة في البسيط ، جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفا من الرّجال بأيديهم القنا الطوال والطوارق المانعة ووراءهم أصحاب الدروق والحراب صفا ثانيا من ورائهم ، ووراءهم أصحاب المخالي فيها الحجارة ، ووراءهم الرماة نفوس الرّجال ، وفي وسط المربع الخيل . فكانت خيل المرابطين اذا دفعت اليهم فلا تجد الا الرّماح الطوال الشارعة والحراب والحجارة والسهام الناشرة ، فحين ماتوا من الدفع وأدبروا ، تخرّج خيل الموحدين من طرق تركوها وفرج أعدوها فتصيب من أصابت ، فإذا كرت عليهم دخلوا في غاب القنا (1) . فبهذه الخطة أثخن الموحدون في خصومهم . وقد دامت الحرب ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع انتهت المعركة وكانت فاصلة . انتصر الموحدون نصرا مبينا واستولوا على محلات حلفائهم من «بني يلومي» وغيرهم وعلى غنائم كثيرة .

وبعد هذه الفترة كان مصرع «الربرتير» قائد فيلق النصارى ، فأجمع جنده على الانسحاب ، وتفرقت عناصره تباعا ، فاضطر «تاشفين بن علي» إلى أن يستدعي ولده «ابراهيم» من الأندلس . فقدم الى «تلمسان» في عسكره في أواخر سنة 539 هـ . فولاه أبوه في الحال عهده . وقدم إلى «تلمسان» أيضا عسكر «سجلماسة» وعسكر «بجاية» بقيادة «طاهر بن كتاب» الصنهاجي من بني حماد . واجتمعت هذه الجيوش في ظاهر «تلمسان» وميزوا وبرزوا في نظام متقن وهيئة كاملة . فتعجب الناس من كثرتهم وحسن نظامهم وجمال هيئتهم . الا أنها كانت آخر حشود يحتفل بها المرابطون (1) .

وكان «تاشفين» قد أقام محلته في سطفسيف ، وكانت المناوشات تنشب كل يوم بين الفريقين ، واستمر ذلك مدة شهرين ، ولم تقع معركة حاسمة حتى خرج جيش «بجاية» واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في ظاهر الصخرتين . لكنها هزمت وقتل منهم عدد غفير ، وبعث قائدها سرا إلى «عبد المؤمن» يعده بالتوحيد

(1) الحلل الموشية : ص : 108 .

(2) ابن عذارى ، ص : 15 .

وأنه متى افتتح المغرب فإنه إذا ورد المشرق وجده مفتوحا كذلك . وعندئذ أدرك «تاشفين بن علي» دقة مركزه . فقرر أن يترك محلته في «تلمسان» ويغادر في قواته إلى «وهران» . وبعث ابنه وولي عهده إلى «مراكش» في جماعة من أشياخ لمتونة ومعه كاتبه «أحمد بن عطية» ، وكان «تاشفين» قد ابتنى «بوهران» حصنا منيعا على البحر كي يحتمي به عند الحاجة ، ودبر مع قائد اسطوله «محمد بن ميمون» أن يوافيه الى «وهران» بجناح من الأسطول . فقدم «ابن ميمون» من «المرية» بالأندلس في عدة من السفن وأرسى قريبا من المعسكر المرابطي ينتظر تطور الحوادث . وكان ذلك في شهر شعبان سنة 539 هـ (يناير 1145 م) . ولكن ما كاد المرابطون يتحركون نحو الشمال حتى سار في أثرهم «عبد المؤمن» في قواته وبعث في مقدمته الشيخ «أبا حفص عمر بن يحي الهنتاتي» وعسكرا من بني «ومانو» فنفذوا إلى بلاد «بني يلومي» «وبني عبد الواد» «وبني رسفين» «وبني توجين» من زناتة وكلهم من أنصار لمتونة ، فأثخنوا فيهم حتى استسلموا وأجمعوا على أن يرسلوا إلى عبد المؤمن زعماءهم ليقدموا له طاعتهم اليه . فتلقاهم بالقبول وضمهم إلى جنده (1) . وصل الموحدون إلى «وهران» وعسكروا فوق الجبل المطل عليها ، وكان المرابطون يرقبون تحركات الموحدين . فدهش عدة من قوادهم وانسحبوا من المعسكر المرابطي تاركين أميرهم لمصيره . وموقفهم هذا قد قوى عزم الموحدين على الهجوم ، فأطلقوا ذات صباح صيحتهم الحربية بصوت واحد ارتجت له المحلة المرابطية . فأمر حينئذ «تاشفين» حشوده أن يلزموا أماكنهم حتى يكونوا على استعداد اذا فاجأهم العدو ، وعند الظهر سار الموحدون إلى عين الماء التي يشرب منها أهل المدينة .

فسقوا دوابهم . ثم قاد الشيخ «أبو حفص» قواته واقتحم المحلة المرابطية حتى أشرف على مكان خباء «تاشفين» وكان موقعه بإزاء الحصن المطل على البحر ، فوقع الاضطراب في المعسكر المرابطي ، وبادر «تاشفين» وخاصته ومنهم «ابن مزدلي» «وبشير الرومي» «وصندل الفتى» إلى الالتجاء إلى الحصن . فعلم بهم الموحدون . فأحدقوا بهم وجمعوا الخشب وأضرموا النار حول الحصن . ولم تمض إلا سويعات حتى وصلت ألسنة النار إلى الحصن .

(1) ابن عذارى : البيان ، ص : 16 .
(2) ابن خلدون : كتاب العبر جـ 6 ص : 231 .

فخشي «تاشفين» الهلاك ، فغادر الحصن وركب فرسه «ريحانة» نحو قطع أسطوله لتحمله إلى الأندلس ، وكان معه صحبه الثلاثة : فسقط «صندل» في النار واحترق واستطاع «ابن مزدلي» أن يجوز إلى أسوار المدينة حيث فقد رشده ومات بعد ثلاثة أيام ، وسار «تاشفين» و «بشير» إلى مرتفعات الجبل . فأمكن «البشير» أن ينجو ، ولكن ، «تاشفين» تردت به فرسه تحت جنح الظلام ، فسقطت في هوة سحيقة ، فهلكت الفرس وهلك «تاشفين» وفي الصباح عثر على جثته في تلك الحافة .

فأخذ الموحدون الجثة واحتزوا رأس أمير المسلمين وبعث به «عبد المؤمن» إلى «تنملل» . فعلق في شجرة كانت بإزاء مسجد المهدي «ابن تومرت» . وكان موت «تاشفين» في ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة 539 هـ .

(22 شباط 1145 م) وولي بعده أمير المسلمين «ابراهيم بن تاشفين» . فبويع له بحاضرة «مراكش» . على أثر هلك «تاشفين» فتح «أبو حفص» «وهران» وأثخن في المرابطين حتى فني معظمهم والتجأت منهم جماعة إلى الحصن وكانت خمدت نيرانه . فحصرهم الموحدون وقطعوا عنهم الماء حتى أدعنوا إلى التسليم بعد ثلاثة أيام ، ومع ذلك فقد قتلهم الموحدون جميعا ، وكان ذلك في يوم عيد الفطر من سنة 539 هـ وكانت مذابح «وهران» هذه من أفظع المظاهر التي تميزت بها سياسة الموحدين الدموية .

ولما وصل خبر موت «تاشفين» إلى «تلمسان» أسرع من كان بها من لمتونة إلى مغادرتها قاصدين «فاس» وغيرها من الأماكن التي مازالت تحت حكم المرابطين ، وكان في مقدمة من غادرها الأمير «يحي بن أبي بكر بن علي» المعروف بالصحراوي وهو ابن أخي «تاشفين» ، وكان قد وفد إلى «تلمسان» قبل ذلك بقليل في بعض قواته لإنجاد «تاشفين» . ولم يبق «بتلمسان» إلا العامة وأهل الحضر. سنة 1144 م . فبقيت «تلمسان» (1069 ـ 1144) 75 سنة تحت نفوذ المرابطين .

غادر عبد المؤمن «وهران» قاصدا «تلمسان» ، فبادر جماعة من أعيانها في نحو ستين رجلا إلى لقائه يلتمسون منه الأمان . فلقيهم يصلاتن «الزناتي» في قوة من الموحدين في وادي «تافنة» فقتلهم عن آخرهم . وطار نبأ الحادث إلى «تلمسان» . فسرى إلى أهلها الرعب والخوف ، وساءت بها الفوضى . دخل

«عبد المؤمن» في جنده المظفر «تاقرارت» . فراح العساكر يعيثون في أنحائها ويقتلون من بها (1) ويقتسمون دورها . ثم غادروها إلى «أقادير» وكان يسودها الوجوم والفزع فلما اقترب الموحدون منها خرج الأعيان والطلبة يسعون إلى لقاء «عبد المؤمن» والتماس العفو منه . فأقبل «يصلاتن» وأمر جنده أن يُجَرِّدُوهُمْ من ثيابهم وأن يقتلوا جماعة منهم تحت نظر الخليفة والشيخ «أبي ابراهيم» أحد الصحب العشرة . ثم دخل «عبد المؤمن المدينة ولم يبخل الجند على أهلها بالقتل والنهب . ويؤيد ما جرى لأهل «تلمسان» من المحن صاحب الحلل الموشية فيقول : «دخل «عبد المؤمن» تلمسان» عنوة وقتل أهلها وسبى حريمها . ودخل كل واحد من الموحدين من الموضع الذي يليه . فأخذوا منها من الأموال ما لا يحصى وجاء في الحلل أيضا أن «ابن يسع» ذكر أن «عدد القتلى بلغ مائة ألف أو يزيد» . وهناك رواية أخرى تقول : إن «عبد المؤمن» استباح أهل تاقرارت وقتلهم لأن معظمهم من حشم اللمتونيين . أما أهل «أقادير» فقد عفا عنهم . وبناء على قول «ابن خلدون» ان «عبد المؤمن» لم يدخل «تلمسان» فورا ، فقد امتنعت عليه وأنه ترك على حصارها «ابراهيم بن جامع» وغادرها إلى «فاس» .

فكيف ، يا ترى ، تمتنع «تلمسان» على «عبد المؤمن» وله جيش جلب قوي قد ظفر بالقوات المرابطية «بوهران» . فإننا نعتقد أنه دخلها عنوة كما جاء في الرواية الأولى وقتل كل من كان يميل إلى الملثمين وأهلك أيضا العلماء المالكيين الذين كانوا طعنوا في «ابن تومرت» وتسببوا في إخراجه من «تلمسان» . ويقول «ابن صاحب الصلاة» مؤرخ الموحدين : «انه لما استقر «عبد المؤمن» «بتلمسان» بعد استشهاد من استشهد امتنعت عليه قصبتها بمن فيها ، فوضع عليها الحصار .» فلا شك أنه كان في استطاعته اقتحامها ، ولكنه تركها حتى تستسلم من تلقاء نفسها وراح يرقب شؤون الفتوح في تلك المنطقة ويبحث في حل المشاكل الطارئة في مثل هذه الظروف ، وذلك يتطلب الوقت ، فليس إذا من الغريب أن يمكث «عبد المؤمن» سبعة أشهر في ذلك الإقليم كما ذكر بعضهم .

ويبدو من خلال ما جرى «لتلمسان» من القتل والتخريب على يد «عبد المؤمن» أنه كان ساخطا عليها . كيف لا وقد أرغم على الخروج منها لما دخلها صحبة

(1) من المرابطين .

«المهدي بن تومرت» . لكنه نظرا إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي بين مراكش وتونس ، راجع رأيه فيها ، وندب الناس إلى عمرانها ، وأمر برم ما تثلم من أسوارها ، وعقد عليها «لسليمان بن محمد بن وانودين» الهنتاتي وترك معه ولده يوسف معاضدا له وناصرا .

ثم انطلق في قواته نحو «فاس» في ربيع الثاني سنة 540 (أكتوبر 1140 م) . فافتتح هذه المدينة ثم رحل إلى قاعدة ملكه مراكش .

أخذ «عبد المؤمن» يتدخل حربيا في الأندلس منذ سنة 541 هـ . وتمت له السيطرة على تلك الديار في سنة 556 . ثم زحف في سنة 546 هـ قاصدا إلى ما وراء إقليم «تلمسان» وقوض مملكتي بني حماد وبني زيري وضمهما إلى رقعته . فيعد «عبد المؤمن» أول حاكم استطاع أن يوحد المغرب العربي ، ثم عاد بعد ذلك إلى مراكش . كان «عبد المؤمن» عالما أديبا ويقرب اليه العلماء والأدباء ، فلا يفارقونه في السلم ولا في الحرب . أنصت إلى «أبي عبد الله بن حبوس» الفاسي الذي شاهد مع الخليفة فتح «بجاية» .

من القوم بالقرب تصغي إلى	حديثهم أذن المشرق
جروا والمنايا إلى غاية	فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة	فمهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك أروع	تفرّد بالسؤدد المطلق
تخيره الله من آدم	فمازال منحدرا يرتقي
إلى الناصرية سرنا معا	ولما تفتنا ولم تلحق

ولما استولى «عبد المؤمن» على «قسنطينة» أرسل كتابا إلى أهل «تلمسان» يعلم الطلبة (1) والموحدين بالفتح ويخبرهم بالفوز على بني حماد ، وقد ذبج الرسالة «أبو عقيل عطية» يقول فيها :

«أما بعد : فالحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء على العموم والإطلاق ، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، وتمت نعمته تماما على أبلغ

(1) العلماء الكبار .

وجوه الانتظام والاتساق ، والصلاة على محمد نبيه المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق ، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازرين أولي التبواء إلى مرتاضه والاستباق ، والرّضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم على الأعلام ، وذخيرة الإيمان والإسلام ، وبدل الكمال والتمام ، الطالع بأشرف مطالع الإشراق ، الفارع عن تطاول الرؤوس والأعناق ، الجامع أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق ، وهذا كتابنا اليكم ... كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة ، ومكن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الأنالة ، والإفادة ، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة ، من حضرة «بجاية» ـ حرسها الله ـ عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده فتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده ، وبشائر يتنزه بشرها وسماحها عن الجري على معتاد الدأب المألوف ومعهوده ، وآيات بينات أغنى تحيلها واتضاحها من كل برهان ووجوده ، «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .» وقد تقدم إعلامكم وَاصَلَ الله سروركم وضاعف شكوركم بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسر مرامها بحوله واقتداره ونوّر ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره وصير أباطحها وآكامها من شواطىء أوليائه وأنصاره وان «أبا زكريا يحي بن عبد العزيز بالله بن المنصور» وجميع إخوته وقرابته وخؤولته ، حين أتاهم الرائد الذي لا يكذب أهله ، وإنتاجهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله ، لم يكن له بد من التولي عن قرارهم ..

فكان مأمهم الذي اعتقدوا منعته وحصانته ، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته ، بلد قسنطينة عمرها الله ...» نجتزي بذكر هذه الفقرة لأن الرسالة لازالت طويلة .

وقرر عبد المؤمن أن لا يجعل على رأس ولايات ملكه الا المثقفين . فقد ربى الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ وهوكتاب أعز ما يطلب وغيره من تآليف المهدي . وكان يدخلهم ، كل يوم الجمعة بعد الصلاة ، داخل القصر ، وعددهم يناهز ثلاثة آلاف ، كأنهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد . فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة . فتأدبوا

بهذه الآداب تارة بالعطاء وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده ، وخيلهم وعددهم كذلك . ولما كمل هذا المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة وقال : «العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم الأمر» وأبقاهم في المشورة .» (1)

وكان له ثلاثة عشر ولدا كلهم قد كملت فيهم الصفات التي كان يريد أن يتصف بها الولاة . فأشار عليه اشياخ الموحدين بتقديمهم ، فأظهر الامتناع . فألحوا عليه حتى ولاهم الأعمال وجعل كل واحد منهم على إقليم ، وقدم أبناء المشيخة تحت أيديهم ، فولى السيد «أبا حفص عمر» «تلمسان» ووجه معه الشيخ «أبا محمد بن واندوق» والكاتب «أبا الأصبغ بن عياش» على جهة التأديب والتعليم ، وولى السيد «أبا محمد عبد الله» «بجاية» ووجه معه الشيخ «أبا سعيد يخلف بن الحسين والكاتب «أبا بكر بن جيش» . هذا فيما يخص الجزائر .

قضى «عبد المؤمن» على المرابطين في المغرب ، وعبر إلى الأندلس ، فطهرها منهم ، ومن بين ولاتهم هناك كان «اسحاق بن غانية» الذي يقرب الى «يوسف بن تاشفين» من أمه ، فإنها ابنة عمه ، فانتقل اسحاق الى جزر «الباليار» حاقدا مضمرا الشر للموحدين ، وكان المرابطون قد عقدوا في وقت عزلهم لأبيه «محمد بن غانية» على هذه الجزر ، فوافته وفود اللمتونيين ، وأجمعوا على أن يجعلوه رئيسا عليهم ، وألحوا عليه أن يحمل راية الدولة المنقرضة ، فَفعل ، فأمر خطباء مساجد «مايورقة» و «مينورقة» ويابسة «أن يدعوا لبني العباس على عادة أمراء المرابطين ، وسعى حتى توفر له أسطول لا بأس به ، وذخيرة من السلاح ، لكنه لم يتأت له الهجوم على الخصم ، فقد عاجلتهُ المنية . فقد خلف أولادا سيقومون بالأمر من بعده .
فتزعم الحركة أكبرهم سنا ، وكان يسمى عليا ، وكان بقايا أنصار الدعوة المرابطية في المغرب والأندلس ، فجمع شتاتهم ، وكان للموحدين ناقمون ، فاتصل بهم . وكان يتراسل مع بني حماد في «بجاية» فاقترحوا عليه أن يقوموا على الموحدين ، وأنهم مستعدون الى إعانته بالنفس والنفيس . .

---

(1) الحلل الموشية ، ص : 125 ـ 126 .

فسال حينئذ لعابه ،وأخذ في تنظيم ثورة على أعدائه يكون اندلاعها « ببجاية » . وانفق أن والي هذه المدينة ، «السيد الربيع سليمان» ، خرج إلى «ملولة» بضواحي «بجاية» لقضاء أيام يستريح خلالها ويمرح ، فقد كان يحب النوادي ويقول الشعر ويسمعه من ندمائه . فالفرصة حينئذ سانحة لبني حماد لاستعجال المايورقي ، فجمع «علي بن غانية» أسطوله الذي كان يتركب من 32 قطعة ، واختار جيشا من المرابطين : ثلاثمائة فارس وأربع آلاف راجل . وفرّق عليهم السلاح ، واستصحب أخويه «يحي» «وعبد الله» و «يحي ابن أخيه طلحة» . وأقلعوا نحو «بجاية» . وكان ذلك في أوائل سنة 580 . وفي اليوم السادس من نفس الشهر وصلوا . فأسرع الناس إلى دار الوالي يخبرونه ويستشيرونه فيما يتعين اتخاذه لصدّ المغيرين ، لكنهم وجدوه غائبا كما سبق أن قلنا . فلم يجد المايورقيون مقاومة . فنزلوا ، فأمست كلها خاضعة لسلطة لمتونة ، فأمر «علي» بتطهيرها من العناصر الموحدية والاستيلاء على ذخائر «بني عبد المؤمن» ، واعتقل عددا منهم من بينهم كان «عيسى أبو موسى بن عبد المؤمن» والي أفريقية الذي كان انهزم أمامقبائل العرب الثائرة .

فاتصل الخبر «بسليمان» ، فأسرع إلى إنقاذ «بجاية» ، لكنه لم يقدر أن يفكها من يد العدو ، فالعرب الذين كانوا في صفوف حشوده تخلوا عنه في شبوب المعركة وانضموا إلى المرابطين . فانهزم «سليمان» والي «بجاية» كما سينهزم والي «القلعة» ولم ينفعهما إلا السير إلى «تلمسان» (1) ، وكان عليها «أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن» أخو «أبي زيد عبد الرحمن » صديق المنصور والذي سعى في بيعته ، وابن عم سليمان ، فتلقاهما . فأطلعاه على قوة المايورقيين وميل القبائل البربرية والعربية لدعوتهم ، فخاف أن تمتد حركتهم إلى «تلمسان» ، فأمر بترميم أسوار المدينة وتحصين ضواحيها ، وحشد العساكر على أمل صد غاراتهم وأخذ الثأر منهم وردهم على أعقابهم خاسرين (2) . أما «علي بن غانية» ، من جهته ، فلم يتراخ ، في الحين أخذ يوسع دائرة نفوذه . فزحف نحو غرب الجزائر ،

(1) ابن الأثير ج 11 ، ص : 191 .
(2) ابن خلدون : كتاب العبر .

فاستولى على جزائر «بني مزغنة» . فهكذا أصبح له ميناء أن يسهل عليه بهما المواصلات مع جزر الباليار ، فيستمد منها بواسطة أسطوله ما يحتاجه من الرجال والأقوات ، ويمكنه أن يرجع اليها سالما إن اقتضى الحال . وفي تلك الأيام بالذات نزل «المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن» بسبتة عائدا من الأندلس . فوافته أخبار هجوم «ابن غانية» واستيلائه على «بجايه» «والجزائر» «ومليانة» «والقلعة» . وكان «المنصور» قوي الجأش ، فلم ينفعل ، واستمسك بهدوئه ، وأخذ في الحين يعد العدة ويبحث في الخطة التي يتبعها للقضاء على أولئك المغامرين . فجمع رؤساء الأسطول وقواد الجيش لدرس ما يجب اتخاذه للفتك بالعدو . وفي غضون ذلك كانت العساكر تحتشد في جميع أنحاء المغرب .



فتكوّن في الحين جيش قوامه عشرون ألف مقاتل . وقد اتفق الملك وقواده على الإجتماع «بتلمسان» حيث كان واليها «أبوالحسن علي بن عمر» أخو «عبد الرحمن» قائد الجيش الأول الذي قام بتحصينات هامة ، كما سبق أن قلنا . فأقلعت القوات البحرية من «سبتة» وقصدت العساكر «تلمسان» . فاجتمع بها رؤساء الأسطول وقواد الجيش من جديد ووضعوا نهائيا الخطة الحربية التي تجعل حدا لغارات المايورقي وتقضي عليه وعلى قواته وحلفائه .

وقسمت الحملة إلى مراحل . فالمرحلة الأولى هى فك «الجزائر» من يده حتى يمنعوه من اتصاله بجزره فلا يمكنه أن يتمون ، فسار الجيش الموحدي من «تلمسان» ، فمروا «بمليانة» وأخرجوا اللمتونيين منها . فدخل «عبد الرّحمن بن عمر» إلى المدينة وأمن السكان على أنفسهم وأموالهم . ووصل الأسطول إلى الجزائر . فثار سكانها على المايورقيين وألقوا القبض على رئيسهم «يحي بن طلحة» . والمرحلة الثانية كانت الهجوم على «بجاية» من البر والبحر دفعة واحدة حتى لا يفلت «علي بن غانية» ، ولكن الأسطول بادر إلى الهجوم على «بجاية» لأن الرؤساء وصلهم الخبر أن المايورقيين عزموا على نقل الأسارى من الموحدين من بينهم «عيسى بن عبد المؤمن» عم الخليفة ، فدخل الموحدون ، فاستسلم السكان . ثم توجه الجيش الموحدي إلى الجيش المايورقي ، فانهزم المرابطون وفر «يحي» إلى قسنطينة حيث كان «علي» محاصرا لها ؛ ثم أسر من بقي من الملثمين وعددا من بني حماد وكل

من عاضد حركة المايورقيين ومن بينهم الفقيه «عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي» «والشريف ابن عمارة» وغيرهما من الأدباء (1) ومن «بجاية» قصد الجيش الموحدي إلى «قسنطينة» ، ففر «علي» وأخوه إلى جهة الجريد التونسي ، فلقيهما المنصور «بالجامة» ، فما وقف أصحاب المايورقي إلا يسيرا حتى انكشفوا عنه وأثخن هو جراحًا وخرج فارا بنفسه . فمات في خيمة لعجوز أعرابية بأرض نفزاوة من ناحية الجريد سنة 584 هـ (1188 م) . فبقي «يحي» يتحين الفرصة للقيام مرة أخرى . أما «بنو حماد» فقد أمر الخليفة بنفيهم إلى مدينة «سلا» التي كانت منفى سياسيا . ورجع الخليفة إلى «مراكش» ، لكن بدون أن يأتي على تلك الثورة جذريا إذ أنه لم يقض على أخوي «علي» «يحي وعبد الله» . فمر «المنصور» في طريقه «بتلمسان» وكان أول من تلقاه بهذه المدينة عمه السيد «أبو إسحاق ابراهيم بن عبد المؤمن» وكان قد نمي إلى الخليفة إن هذا العم يطعن في آرائه ويسفه تصرفاته ولاسيما عقبة هزيمة «عمرة» . فلما قدم للسلام عليه رده «المنصور» بجفاء وكان مريضا منذ مدة . فاشتد به مرضه ولم يلبث أن توفي .

لما عاد الخليفة إلى «مراكش» رجع «يحي» المايورقي إلى مغامراته ، ولم يلبث أن بسط نفوذه على سائر أفريقية والزاب . فلم يبق للموحدين إلا «بجاية» ، وكان لسقوط أفريقية وقع عميق في البلاط الموحدي .

فصمم الخليفة «الناصر» على محاربة «ابن غانية» والقضاء على أطماعه . فأعطى الأمر لتجهيز حملة ، فخرج الأسطول من «سبتة» إلى «أفريقية» . «والناصر» غادر «مراكش» على رأس قواته في أواسط جمادى الآخرة سنة 601 هـ (شباط سنة 1205 م) فمر «بتلمسان» و «بجاية» حتى وصل إلى «تونس» ، فلما علم «يحي» بدنو الأسطول الموحدي من مياه «تونس» ووصول الجيش إلى «بجاية» غادر أفريقية إلى الجنوب واتصل بالعرب وبذل لهم الأموال ، فانضموا اليه . فوقعت حروب دموية بين الموحدين والمايورقي وانتهت بمحق قوات هذا الأخير ، فلم ينفعه إلا الفرار إلى الجنوب . فصحا الجو في أفريقية ورجعت المياه إلى مجاريها . فأسند «الناصر» ولاية أفريقية إلى الشيخ «أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر

(1) طالع تاريخ الأدب الجزائري ، ص : 85 .

الهنتاتي» جد الأسرة الحفصية المتملكة بتونس وكان صهر الأسرة المالكة إذ كان متزوجا أخت «المنصور» . ثم قرر الخليفة العودة إلى قاعدة الخلافة بدون أن يقطع دابر «يحي المايورقي» . فغادر «تونس» من شهر شوال سنة 603 هـ . وسار «الناصر» أولا إلى «تلمسان» ، فوصل اليها في أوائل شهر ذي الحجة ، واستقر بها وقتا ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاة الأندلس . وقضى أيام عيد النحر «بتلمسان» وبقي بها حتى نهاية ذي الحجة . ثم غادرها إلى المغرب . وفي سنة 605 ، أقبل السيد «أبو الحسن علي بن عمر» والي «تلمسان» لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور وكثرة الاضطرابات في تلك النواحي ، وعيّن مكانه في الولاية السيد «أبا عمران موسى» أخا الخليفة ، فقدم إلى «تلمسان» في عسكر ليستعين بهم في ضبط الأمن هنـــاك .

لما عاد الخليفة إلى مراكش سنة 603 هـ ، أخذ «يحي المايورقي» يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى . ثم اتجه ، هذه الفترة ، نحو الجنوب الغربي بحشوده تاركا وراءه الدمار والخراب .

وتحالف مع زناتة تلك الجهات الخارجين على الموحدين ، وقصد سجلماسة وهاجمها ، وكان وقتئذ السيد «أبو عمران موسى» واليا على «تلمسان» . فقد خرج هذا منها يجوس بين قبائل زناتة الضاربة في جنوبها يسترضيهم ويستميل قلوبهم وضمائرهم حتى يلتزموا الطاعة أو على الأقل الحياد مع أداء الجبايات . واتصل زعماء زناتة في جنوب «تلمسان» بزناتة الخوارج على طاعة الموحدين الذين كانوا من بين قوات «المايورقي» وعرفوهم بنقطة ضعف جبهة السيد «أبي عمران» وعدم استعداده وابتعاده عن قاعدته المحصنة . فسار المايورقي في حشوده نحو الشمال ، فهجم على أرشقول وخربها . ثم اقترب من جنوبي «تلمسان» . فعلم السيد «أبو عمران» بمقدمه وتردد وقتا في لقائه .

ولكن «المايورقي» لم يتردد ، ففاجأه بمجموعة من المرابطين والعرب بحيث أن السيد «أبا عمران» لم يَرَ بُدّاً من أن يتلقاه في قواته القليلة . وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية القليلة بالنسبة اليهم ، وأثخنوا فيها بل قتلوها جميعها وقتلوا «أبا عمران» وأسروا بعض أولاده والكاتب «أبا الحسن بن عباس» وشرذمة

من طلبة «تلمسان» ، واستولوا على المحلة الموحدية وكل ما فيها من العتاد والسلاح والخيل . أما «تيهرت» فلا تسأل عما دهاها من لدن «المايورقي» . فقد نهبها حشوده وخربوها حتى غدت أطلالا سنة 605 هـ (1209 م) . فلم تنج من شرهم إلا «تلمسان» التي لم يسمع سكانها بما حدث في ضواحيها القريبة حتى أغلقوا أبوابها . فاتصل الخبر بالسيد «أبي زكرياء يحي» والي «فاس» ، فبادر إلى «تلمسان» في قوة من الموحدين ، فدخل اليها وطمأن أهلها وأذهب عنهم روعهم ، وفي الوقت نفسه أمر الخليفة الناصر بتجهيز حملة وعين لولاية «تلمسان» الوزير «أبا زيد بن يوجلن» وقدمه على العساكر ، فسار الوزير في قواته إلى «تلمسان» ، فعلم «يحيى ابن غانية» باحتشاد هذه الجيوش ، فغادر في الحين «تاهرت» في قواته وقصد إلى الصحراء

وقد سبق أن قلنا أن بطونا من زناتة كانت تحالفت مع «ابن غانية» في إقليم «تلمسان» ، فمن رؤسائهم «ابن عطية» الزناتي ، فدس اليه «ابن يوجلن» من اغتاله بمقره . فإن «يحي» لم تضعف له إرادة ، فحاول أن يغير على تخوم أفريقية ، لكن حشوده قلت وموارده تضاءلت ففشل . فنزل بمحلته بشلف حيث توفي ودفن على مقربة من «مليانة» ، وذلك حوالي 631 هـ « فانقرض بمهلكه أمر الملثمين من مسوفة ولمتونة من جميع بلاد أفريقية والمغرب والأندلس ، وذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره » (1) .

فما هو الحاصل ، يا ترى من صراع بني غانية والموحدين ؟

لم يُجْن من هذا الصراع الذي دام خمسين عاما أية نتيجة مادية ترجع على أحد الطرفين بالخير . فإن عَلَم الدولة المرابطية الذي حاول «بنو غانية» أن يرفعوه قد خبا بوفاة «يحي» إلى الأبد .

وهذا الصراع قد أثر في بناء هيكل الدولة الموحدية ، فقد هز أركانها هزا وساعد على تفكيكها وتبديد مواردها وقواها ، وكان عاملا من أهم العوامل التي اجتمعت في تلك الفترة إلى انهيارها وسقوطها (2) ، ولم تعرف الجزائر من جرائه إلا الخسائر في الأرواح وتخريب المدن ونهب البوادي وتعطل الفلاحة والتجارة .

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص : 197 .

(2) عصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان ص : 377 من القسم الثاني .

النظام الإداري والحركة الثقافية والحالة الإقتصادية

كان المرابطون يعترفون بسلطة الخلافة العباسية ويدعون لها على المنابر وكان رئيس الدولة يسمي نفسه بأمير المسلمين . أما الدولة الموحدية فكانت مستقلة استقلالا تاما . وأعلن أمراؤها أنفسهم خلفاء منذ عهد «عبد المؤمن» سنة 529 هـ . فقد عبر الزقاق إلى جبل طارق . فوفد اليه وجوه الأندلس للبيعة . واستدعى الشعراء في ذلك اليوم ، لأول مرة ، فمدحوه بأنفس القصائد . فقام أحدهم وأنشد :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب

فقال «عبد المؤمن» رافعا صوته : إلى أين ؟ إلى أين ؟ فقال الشاعر :

	أين المفر وخيل الله في الطلب
وأين يذهب في رأس شاهقة	وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس	والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

والقصيدة كانت طويلة . فلما انتهى منها قال «عبد المؤمن» : بمثل هذا تمدح الخلفاء . فمن ثم صار خليفة يدعى بأمير المؤمنين ، أما أولاده وحفدته فصاروا يلقبون بالسيد .

كانت المملكة الموحدية في عهدها الذهبي أوسع من المملكة التي سبقتها تشمل الأندلس والمغرب العربي كله من المحيط إلى حدود مصر . والدولة المترامية الأطراف مثل هذه فلا بد من أن تنقسم إلى ولايات يكون على رأسها سياسيون محنكون مخلصون ، ولهذا عمد «عبد المؤمن» إلى أشياخ «مصمودة» الذين يتوفر فيهم على الأقل الإخلاص . ولما استتب له الأمر قرر أن يجعل على رأس الولايات رجالا أكفاء سياسيا وثقافيا وإخلاصا . وقد رأينا أنه ربى لهذا الغرض نفسه شبانا اختارهم من مصمودة ومن مختلف الولايات . فحين صاروا أهلا للرتب العالية للقيام بالمسؤولية ، ولأهم الأعمال ووجه مع كل واحد شيخا على جهة التأديب وكاتبا يشرف على ديوان الرسائل .

وتعاقب على ولاية «تلمسان» سليمان بن محمد وانودين بن الهنتاتي» والسيد «أبو حفص عمر» «وأبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن» «وأبو عمران موسى» أخو المنصور ثم «أبو زيد بن يوجلن» .

وكل منهم قام أحسن قيام بمهمته ، وكانت أيامهم أيام أمن وعدل في تلك المدينة . ومن مبتكرات هذه الدولة ضبط مساحة المملكة وتكسيرها على الفراسخ والأميال وإجراء عملية الإحصاء العام للسكان وتحديد المناطق الصالحة للفلاحة ونقل المزارعين اليها . وعلى وقف هذا النظام كان وضع الخراج وتقدير حسب مساحة البلاد . و «تلمسان» ذات أراض شاسعة خصبة غنية وأهلها ذو ضرع وزرع . فكانت ترد منها على خزينة الدولة أموال طائلة ، فإن الأموال كانت تقدر عند الموحدين بالأحمال ما لم يكن مثله عند غيرهم من الملوك .

ويحدثنا «ابن خلدون» أن الموحدين قد بنوا المنازل والقصور «بتلمسان» وندبوا إلى عمرانها وذلك بعد ما كادوا يقضون عليها أيام الفتح ، فأرجعوا اليها ازدهارها ، ولكننا لا نرى بها اليوم بناء يخلد ذكرهم ويبرر ما قاله «ابن خلدون» ما خلا باب قرمادين (شكل 9 و 10) وبقايا من السور الذي شرع في تجديده «أبو الحسن علي بن عمر» عام 561 هـ (1170 م) . ولم يتم بناؤه حتى سنة 580 هـ (1184 م) على يد «أبي عمران موسى» . وهذه الأسوار شيدت بالطابية كأسوار المرابطين من قبل . ولكن هذه الطابية تتميز عن سابقتها بكثرة الجيار والنورة ، فجاءت أكثر منها متانة كما أنها أوفر منها عرضا .

فبفضل هذه الأسوار أمكن للمدينة أن تنجو من عيث «ابن غانية يحي» وأحلافه المتمردين من زناتة . فكانت مجموعة من «أقادير وتاقرارت» بينهما شوط فرس (1) . كان الجيش يتألف في أيامه الأولى من المصامدة . وكانوا يكافحون بإخلاص وإيمان ليعلو علم قبيلتهم ويذاع صيتهم ، ولهذا أينما دقوا ولَجُّوا وَلَجُوا . فكانوا أهل عصبية ومبدأ . لكن «عبد المؤمن» لجأ بعد ذلك إلى قومه من كومية واحتمى بهم واستقدَمَهُم سرا ، وكان عددهم أربعين الفا . فاجتهد في تهذيبهم وتنشئتهم نشأة رياضية صناعية حربية .

(1) ابن الأثير : الكامل : جـ 10 ، ص : 580 .

فاتخذ منهم بطانتة وحراسته اثر محاولة أقرباء «ابن تومرت» اغتياله . كان علماء «بتلمسان» . وكان الطلبة ينتالون عليهم ، وكان الولاة يهتمون بهؤلاء الطلبة يلقنونهم المذهب ، فلا بد من أن يعرفوا العقائد على سبيل التفصيل وعلى طريقة الأشعري . والموحدون على العموم يعتبرون من لم يعرفها كافرا . ومن ثم سموا أنفسهم بالموحدين .

عرف العالم الإسلامي التصوف . وهناك جماعة من المتصوفين قد غالوا وقالوا «انه لا موجود في كل شيء إلا الله» ومن هذا نشأ مذهب وحدة الوجود الذي خالف مذهب جمهور المسلمين ، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالا لا حقيقة كما وحد بين ذات الإنسان وذات الله . فأنشد «الحلاج» في اتحاده بالله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية قال الصوفية بوجوده في كل شيء (1) ، لكن الفقهاء أنكروا عليهم تعاليمهم وكفروهم ، فضعف شأن التصوف وبقي هكذا ضعيفا إلى أن جاءت الدولة الموحدية ، فعلت كلمة الصوفية .

فإن النهضة الموحدية أثرت على العقول ، والنظر الفقهي قد تطور بحيث أن التصوف لم يبق يعد منكرا كذي قبل ، ولم يبق للفقهاء على أهله تلك الصولة . والكلام أخذ حظه الكامل من الانتشار . فظهرت جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية ، وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس مثل «ابن عربي» . ومن مشاهير الصوفية «أبو مدين شعيب بن الحسين» الإشبيلي» ولد سنة 520 هـ بالأندلس قرب «اشبيلية» وقرأ بالأندلس وطنجة ومراكش وفاس حيث تلقى علوم الغزالي بواسطة «ابن حرزهم» . ثم اتصل بالمتصوف «أبو يعزى» ودرس على «أبي عبد الله الدقاق» «وأبي الحسن الشاوي» ، وتعرف في «عرفة» بالشيخ «عبد القادر الجلاني» الفارسي وأخذ عنه . فأمكنه هكذا أن يقف على تعاليم الصوفية في المغرب والمشرق . وعند إيابه من رحلته استوطن «بجاية» . فكثر فيها اتباعه ، فسعى به عند «يعقوب المنصور» الموحدي ، فاستقدمه إلى «مراكش» ، فقصد

(1) تاريخ الأدب الجزائري ، ص : 200 .

«أبو مدين» هذه العاصمة . ولما بلغ «تلمسان» توفي فيها سنة 594 هـ (1198 م) ودفن برباطة العباد ، ولازال ضريحه يتبرك به . والتصوف ظهر أثره قويا في الأدب الجزائري ، ومما ينسب إلى «أبي مدين شعيب» قوله :

بكت السحاب فأضحكت لبكائها ... زهر الرياض وفاضت الأنهار
وقد أقبلت شمس النهار بحُلّة ... خضرا وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده ... فتمتعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى ... فتسابق الأطيار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت ... والجو يضحك والحبيب يزار
والعود للغيد الحسان مجاوب ... والطائر أخفى صوته المزمار
لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا ... مزمارنا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه وغناؤنا ... نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل وكأسنا ... كأس الكياسة والعقار وقار
فتألفوا وتطيبوا واستغنموا ... قبل الممات فَدَهْرُكم غدّار
والله أرحم بالفقير إذ أتى ... من والديه فإنه غفار
ثم الصلاة على الشفيع المصطفى ... ما رنمت بلغتها الأطيار

والموحدون قد شجعوا الأدب وهم أنفسهم أدباء . فكانت مجالسهم مجالس علم وأدب وسياسة في آن واحد . فمن أدباء «تلمسان» الذين نشأوا فيها وأخذوا عن شيوخها «أبو علي عمر بن عبد الله بن الحسن بن الأشيري» الكاتب . كان من أهل العلم ، ولكن يغلب عليه الأدب ، فكان ناظما ناثرا ، اتصل بالخليفة «يوسف أبي يعقوب» فإذا أردت نموذجا من شعره فعليك بتاريخ الأدب الجزائري ص : 71 ـ 72 (1) .

ومن أدباء «تلمسان» في أيام «المنصور» «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان الوهراني التلمساني» .

كان والده من الأجناد وساد وولى مدينة «وهران» ، وبها ولد «أبو عبد الله» ، ولكن نشأ «بتلمسان» . فقد أكثر من مطالعة كتب «ابن حزم» ، فأثرت فيه ، فمال لعلم الظاهر . وصادف انحراف «المنصور» عن كتب الفروع وميله إلى مذهب

(1) الطبعة الأولى وص : 120 (الطبعة الجديدة) .

أهل الحديث . فتقدم عنده إلى أن ولاه قضاء قضاته (بمراكش) . فأبان عن صرامة وعفة ومروءة (1) . وكان له مشاركة في صناعتي الشعر والنثر ، فمدح أكثر من مرة «المنصور» فقال فيه :

اسيدنا ، يا ابن الإمامين أمركم منوط بأمر الله ما عنده مَعْدِل
نصرتم لأن الحق آن ظهوره وناصره في الله ما كان يخذل
أزلتم على ما ينفع الناس جهلها وعلمتم في الدين ما كان يجهل
وأردتم السلسال من شفه الظما أوان جرى ذلك الحديث المسلسل
قطعتم فروعا قد أضرت بأصلها ألاَ هكذا من كان بالعدل يشمل
ملأتم بساط الأرض خيرا وما بقي فأخباركم فيه تسير وتُنْقَل
أقِمْ ان نشر نحو الممالك راحلا فساكنها شوقا لعدلك يرحم

ان «أبا عبد الله» قد لزم «أبو جعفر بن مضاء» قاضي القضاة مدة ، فسأله يوما عن حاله . فارتجل «أبو عبد الله» هذه الأبيات :

يا من مضى وتسمى ولم يخنه زمانه
سألتني كيف حالي وقد كفاك عيانه
ان كان عندك خير يرجى فهذا أوانه

فقال «ابن مضاء» يكون الخير إن شاء الله ولأسعين فيه جهدي ـ فجعل «ابن مضاء» يسعى في ترشيحه للقضاء . فقال بعض أصدقائه : «أراك تقدم هذا الرجل وتعينه على نفسك» ـ فقال : «لاحت لي في هذا الرجل بوارق السعادة فلا بد أن يصل إلى ما هو له .» مرض «ابن مضاء» بعد ذلك في سفرة «المنصور» إلى أفريقية سنة 583 هـ ، فاشتغل «ابن مروان» بالحكم بين الناس ، فظهر منه حسن الخلق والسياسة ما أنسى «ابن مضاء» ، فأعجب به «المنصور» وجعله قاضي الجماعة عوض «ابن مضاء» . فصار «ابن مضاء» إذا رآه والناس مقبلون عليه أنشد :

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد

---

(1) الغصون اليانعة ، ص 29 .

ولم يزل «ابن مروان» قاضيا «للمنصور» حتى كانت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (592 هـ) فوقع بينه وبين أبي القاسم بن بقاء» كلام أظهر فيه «ابن مروان» الاعتذار عليه ، فحقد عليه ابن بقاء وأنشده :

الدهر لا يبقى على حالة لكنه يُقبل أو يُدبر
فإن تلقاك بمكروهه فاصبر فإن الدهر لا يصبر

فسعى «بابن مروان» ونسب له تقصير في صدقات خرجت على يده ، فعزله المنصور وولى على قضاء الجماعة «ابن بقاء» . فلقيه «ابن مروان» إثر ذلك فقال : «أترى ؟ لقد أقبل وأدبر ونحن نصبر كما صبرت ، فاستحي ابن بقاء ، فلم يجاوبه بحرف . ولما جلس «الناصر» على العرش رد «ابن مروان» إلى قضاء الجماعة فلم يزل عليه إلى أن توفي في سنة احدى وستمائة .

يقول صاحب الغصون اليانعة : انشدني له ابنه الكاتب القاضي «أبو زكرياء» شعرا يصف فيه دعوة صنعها بعض أصدقائه واحتفل فيها وكان هو المتصرف بين أيديهم بنفسه فعلق بخاطري منه :

يا حبذا دعوتك المرتضى جميعا من كل فضل عميم
كأننا الأغصان سكرا بها وأنت فيما بيننا كالنسيم

ومن بين الولاة الذين تعاقبوا على «تلمسان» كان السيد «أبو الحسن علي بن أبي حفص عمر» فقد حلاه «ابن سعيد الأندلسي» بقوله : «كان من أجل بيته قدرا وأطيبهم ذكرا وأسفحهم يدا وأمنعهم سندا ، وكان مألفا للشعراء والأدباء . كان واليا «ببجاية» ، ومدحه هناك «ابن الفكون» القسنطيني . ثم ولاه الخليفة بعد ذلك «تلمسان» ، فكتب عنه فيها «عبد الملك عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي (1) ،» وقد بنى بها المباني كما سبق أن قلنا ، ثم اشتد مرضه ، فرحل إلى «مراكش» حيث مات في سنة 605 هـ . كثيرا ما كانت الكتب والمقطوعات الشعرية تسير بينه وبين ابن عمه «سليمان» والي «بجاية» . فمن ذلك ما نظمه «سليمان» يستدعي عليا للاجتماع على خمر في يوم الجمعة .

(1) الذيل والتكملة للمراكشي : السفر الخامس ـ القسم الأول ، ص : 270 .

اليـــوم يـــوم الجمعـــة	يـــوم ســـرور ودعـــه
وشـمـلـنـا مـفـتـرق	فـهـل تـرى أن نـجـمـعـه

فأجابـه :

اليـــوم يـــوم الجمعـــة	وربـنـا قـد رفـعـه
والشـرب فيـه بـدعـة	فـهـل تـرى أن نـدعـه

فالجواب يدل على حسن تبصر «علي» ووعيه بالحالة السياسية حينئذ في المغربين الأدنى والأوسط فلابد من حزم وعزم ويقظة . فتعاطي الخمر لا يؤدي إلا إلى ما لا يحمد عقباه . ونشأ يومئذ «بتلمسان» «عبد الله بن عمرو بن محمد بن يوسف الخزرجي» ودرس القراءات والعربية ، وكان أديبا كاتبا بليغا . نزح إلى «قرطبة» واستقر بها . ودخل في خدمة ولاتها الموحدين بالكتابة عنهم ، وتوفي «بقرطبة» في رمضان سنة 613 هـ .

فالأدب كانت سوقه حينئذ نافقة «بتلمسان» ، وبقيت هكذا حتى في المرحلة التي بدأ الضعف يدب في مفاصل الدولة المؤمنية ، والعلوم الدينية والفقهية هي الأخرى بقيت رائجة ، وكثر عدد أصحابها ، منهم فتح بن عبد الله أبو النصر المرادي» التلمساني ، فكان من جلة المقرئين في المغرب في عصره ، فقد رحل إلى الأندلس وقرأ على «ابن هذيل» المتوفي سنة 564 هـ .

ومنهم «أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرحمن المعروف بابن أبي قنون» التلمساني . كان فقيها مالكيا . روى عن «أبي علي الصدفي» «وابن أبي تليد» «وأبي عبد الله الخولاني» وغيرهم . ولي قضاء الجماعة «بمراكش» «وتلمسان» قاعدتي الموحدين ، ولا يحصل على وظيفة القضاء في العواصم إلا من طال باعه في أصول الفقه وفروعه وفاق غيره فيها ، ويحدثنا عنه صاحب تعريف الخلف فيقول : «له تواليف كثيرة أجلها المقتضب الأشفى من أصول المستصفى ، توفي سنة 577 .

ومنهم «عبد الله بن محمد الفهري شرف الدين أبو محمد التلمساني» ولد «بتلمسان» سنة 567 هـ (1172 م) وقرأ بها . ولم يلبث أن رحل إلى «القاهرة» ، واستقر بها طويلا حتى أطلق عليه اسم المصري ، فكان فقيها أصوليا ، وقد تصدر للإقراء بعاصمة بلاد الكنانة إلى أن مات سنة 644 هـ (1246 م) . له شرح

التنبيه «لأبي اسحاق الشيرازي» في فروع الفقه الشافعي ، وشرح خطب «ابن نباتة» والمعالم في أصول الفقه للرازي والمجموع في الفقه . ومنهم «محمد بن عبد الرحمن الخزرجي التلمساني . ولد «بتلمسان» سنة 584 هـ (1188 م) . تعلم ببلده وأتم دراسته «بسبتة» «وبمصر» ، واستقر با«لاسكندرية» إلى أن توفي سنة 656 هـ (1258 م) له شرح الجلاب .

وفد على «تلمسان» «صالح بن أبي صالح خلف بن عامر» الأنصاري الأوسي من «مالقة» . أكب على العلوم ، وتتلمذ لأعلام عصره ، ولم يلبث أن صار فقيها متكلما . إلا أنه لم يستقر نهائيا «بتلمسان» ، فغادرها والتحق «بتونس» «والمهدية» ، وتوفي سنة 586 هـ ، ووفد عليها أيضا «أحمد بن سلامة بن أحمد بن يوسف بن سلامة» الأنصاري من أهل «لورقة» وسكانها . درس الحديث وبرع في صناعته ، وروى عن كبار شيوخ عصره مثل «ابن الدباغ وابن بشكوال وابن خير وابن الجد» . حدث وسمع منه كثير من الفضلاء . وذكر «ابن الأبار» الكاتب الشاعر أن شيخه«أبا الربيع بن سالم» كبير علماء «بلنسية» في عصره كان يطنب في الثناء عليه ، توفي في المحرم من سنة 599 هـ .

وهناك شخصية تتمثل في «أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن فرج» . أصله من «المرية» . وسكن «بلنسية» ، ويعرف بالذهبي ، كان فقيها مبرزا في علم الأصول ، متبحرا في علوم الأوائل ، حاذقا في العلوم اللسانية . استدعاه «المنصور» الموحدي إلى «مراكش» وحلى به بلاطه حيث تقام المجالس العلمية ، وكان «ابن فرج» أبرز أعضائها . وكان «المنصور» يميل إلى العلوم النظرية . فأخذ يتلقى على «ابن فرج» بعضها ، وقدمه للشورى والفتوى ، ولما انتقلت الخلافة إلى «الناصر بن المنصور» قرب ذلك العالم وأغدق عليه ، ولما خرج الجيش متجها إلى أفريقية سنة 601 رافقه ، ودخل «تلمسان» . فلا شك أنه جلس للإقراء وانتفع الناس من دروسه القيمة .

ويخبرنا «يحي بن خلدون» أن «يعقوب المنصور» استقدم «محمد بن أحمد بن محمد اللخمي أبا عبد الله بن اللحام التلمساني» إلى «مراكش» ، فاستوطنها ، وحظي عنده وعند «الناصر» والمستنصر» حتى مات سنة 614 هـ (1217 م) ،

وذلك «بمراكش» . كان شاعرا واعظا . أخذ عن شيوخ «تلمسان» ، ورحل إلى «فاس» فأخذ هناك عن «أبي الحجاج بن عبد الصمد» وغيره . خلف تآليف منها حجة الحافظين ومحبة الواعظين في الوعظ .

ومن النزلاء «أبو نصر فتح بن يحي بن سلمة بن مهدي المرادي الأندلسي» . سكن «تلمسان» ، تلا في «أشبيلية» بالسبع على «أبي الأصبغ الطحان وأبي محمد قاسم بن الزقاق» «وببلنسية» على «أبي الحسن بن هذيل» . روى عنه أبو زكرياء بن عصفور» ، وكان من جلة المقرئين والحفاظ المتفنين مبرزا في صنعة التجويد عارفا بالروايات حسن الضبط لما اختلف فيه القراء (1) .

في أيام «عبد المؤمن» ساد الأمن ، فنشطت الحركة الاقتصادية الداخلية وربط الأعراب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية وبين الجهات الشرقية والغربية .

فكانت «تلمسان» دوما متصلة اتصالا وثيقا بحواضر البلاد ، وقد عقد «عبد المؤمن» معاهدة تجارية مع دول أوربا سنة 584 هـ (1153 م) . ومرسى «تلمسان» التجارية كانت عهدئذ «هنين» ، فكانت «تلمسان» في عهدي «عبد المؤمن» «ويوسف» وفي أيام «المنصور» الأولى عامرة زاهرة . كانت قيساريتها تزخر بالتجار من مغاربة وتونسيين وأوربيين .

كان لتجار «بيزا» وجنوة «وفينيسيا» فنادق مشحونة بالسلع المختلفة ، وكانوا يتجرون بكل حرية ، وذلك عوض ضرائب اتفق عليها الخليفة ورؤساء الدول المعنية . لقد تعكر الجو السياسي الداخلي في عهد «ابن غانية» ورغم ذلك بقيت «تلمسان» تتمتع برواجها الاقتصادي ، والقوافل لم تزل غادية رائحة كعادتها وقد أخبرنا «الإدريسي» الذي عاش في ذلك الوقت أن سكان «تلمسان» كانوا أكثر الناس ثروة باستثناء أهل «فاس» «وأغمات» ، وأن هذه المدينة كانت سوقا يلتقي فيها التجار من كل مكان ، فتذر هذه التجارة على أهل البلد الأموال الطائلة فيطيب لهم العيش وتحلو لهم الحياة ، فمتى عظم الدخل عظم الخرج ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر (2) .

(1) الذيل والتكملة للمراكشي ـ السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص : 532.

(2) ابن خلدون : المقدمة ، ص : 316 .

كان للموحدين سكة من ذهب وفضة ، فكانوا يضربون الدينار بالذهب والدرهم بالفضة ، وكانت دور الضرب كثيرة في عهد الموحدين بحسب عدد الأعمال والولايات . فإن السلطة المركزية خولت العمال والولاة ضرب السكة باسم أمير المؤمنين في أقاليمهم ، «وتلمسان» كانت من جملة الأمصار التي كانت السكة تضرب فيها . ويدل على ذلك تلك الخابية المملوءة بالدراهم التي عثر عليها في حقل شمال المدينة مؤخرا . فبينما كان المزارعون يحرثون أرضا للسيد «م . ا . باريزان» ، شيخ بلدية «تلمسان»سابقا ، ويخبرنا الأستاذ «بال» بأن هذه الدراهم ضربت قبل ألف ومائتين وخمسين ، وأنها مربعة الشكل إلا واحدا فإنه مستدير وأن عددها 3800 نقد ، وأنها تحمل من الكتابة من الجهة الأولى الله ربنا

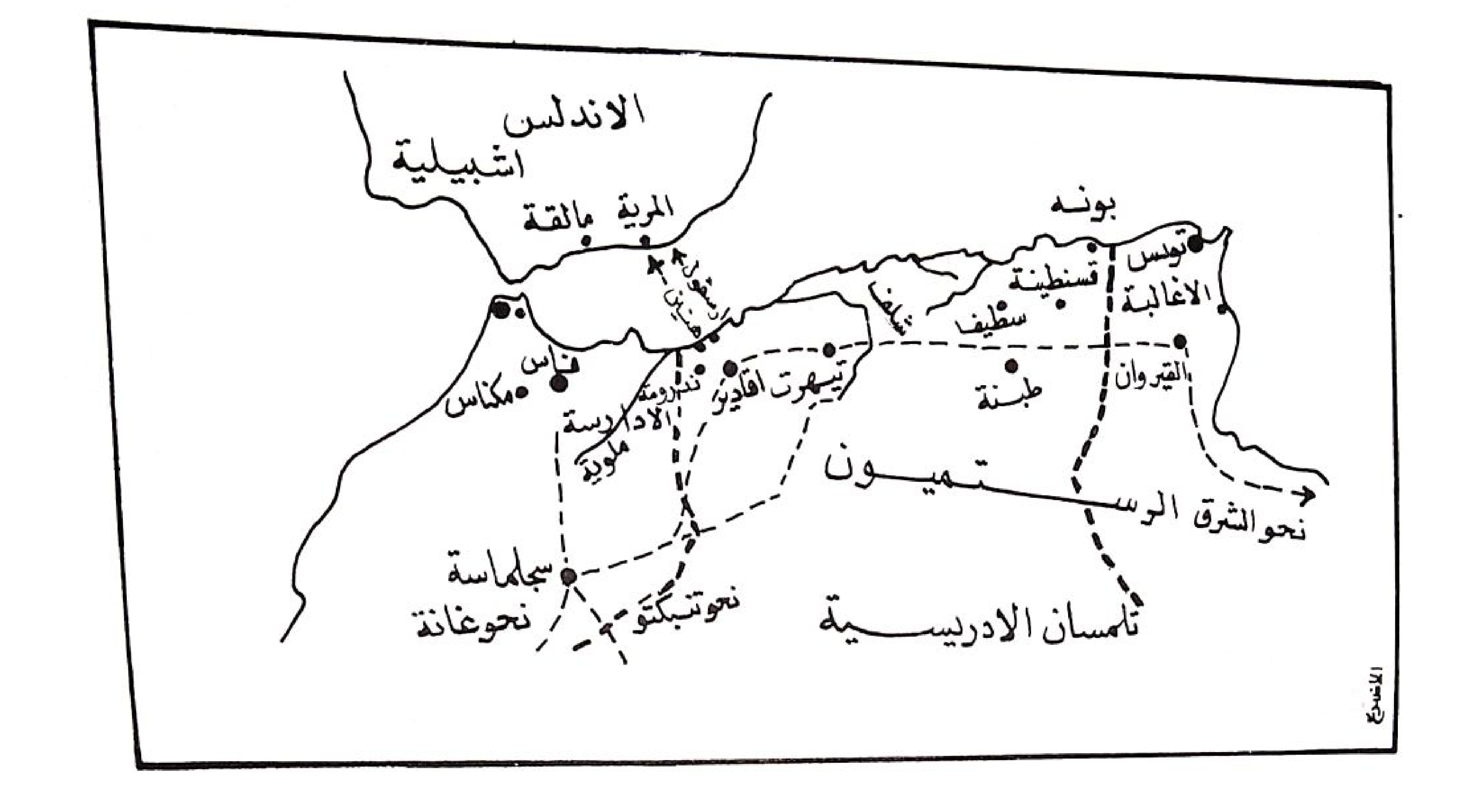
محمد نبينا المهدي إمامنا

ومن الجهة الثانية :

لا إله إلا الله محمد رسول الله الأمر كله لله

(شكل 11 و12) وتاريخ الضرب ومكانه .

فكان الاشراف يحبون أن يسكنوا الأطراف ، وهذه الدراهم كانت لأحد أولئك الأشراف . فلا شك أنه دفنها عندما أحس بالخطر لما اكتسح «أبو زكريا» الحفصي «تلمسان» سنة 1242م ، ثم هرب أو مات فبقيت مدفونة حتى جاء هؤلاء المزارعون وقت الاستعمار وحفروا فوجدوها سالمة . الأمر الذي يدل على أن ليس بها غش أو تدليس . وكلها موحدية ضربت قبل أن يستتب الأمر لبني حفص وبني عبد الواد . ان وظيفة الحسبة كانت لها أهمية خاصة في نظام الموحدين كما كانت من قبل في عصر المرابطين . كيف لا وحركة الموحدين قامت على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «فتلمسان» كبجاية وقسنطينة وفاس ومراكش» كان لها محتسب يراقب سير الحياة التجارية والصناعية والمعايير وأنواع الغش والتدليس ويلزم المسلمين بالتزام حياة جماعية محمودة توائم المبادىء الإسلامية ، فيأخذ بالشدة كل من يشرب الخمر أو يزني أو يمارس الملاهي المحرمة أو ينهك حرمة شهر رمضان ، ويراقب تصرفات النساء في الأسواق والطرقات . وله طرق في تأديب المخالفين ومرتكبي المناكر تجدها في كتب الحسبة .


الاندلس
اشبيلية
المرية
مالقة
بونه
تونس
قسنطينة
الاغالبة
سطيف
القيروان
طبنة
تيهرت
اقادير
ندرومة
الادارسة
ملوية
فاس
مكناس
تميون
الرستميون
نحو الشرق
سجلماسة
نحو غانة
نحو تنبكتو
تلمسان الادريسية
الاضرع

تلمسان الزيانية

عهد يغمراسن

إن الدولة لها أعمار طبيعية كما الأشخاص (1) ، ودولة الموحدين لم تفلت من هذه القاعدة . فكانت في طور شبابها قوية مترامية الأطراف ، ولكن ، مع توالي الأيام ، أخذ الضعف يدب في مفاصلها وذلك بضعف روح العصبية في صفوفها وتوزيع قواتها على شتى الأقطار وانغماس قوادها ورؤسائها في أنواع الترف ، فكانت هزيمة وقعة العقاب بالأندلس سنة 609هـ (1312م) ، وتلتها ثورة بني غانية ، ثم كانت وقعة بيْن الموحدين وبني مرين سنة 612هـ (1216م) ، ثم كان تنافس الولاة والأمراء على الرئاسة .

خرج على الموحدين قبائل زناتة ، فلم يجدوا بجانبهم إلا بني عبد الواد ، «فأقطعوهم بلاد بني وامنو» و «بني يلومي» جزاء مؤازرتهم لهم ضد هذه القبائل المنشقة ، وفي سنة 627هـ (1230م) عقد لهم الخليفة «أبو العلاء إدريس المأمون» على ولاية «تلمسان» . فتولاها «جابر بن يوسف» فقام يدبر شؤونها ويدخل تحت نفوذه جميع بطون «بني عبد الواد» . وقصد أهل «ندرومة» يطلب منهم الطاعة ، فأبوا ، فحاصر المدينة ، فرماه من سورها «يوسف الغفاري التلمساني» بسهم ، فقتله . فخلفه على «تلمسان» ولده «الحسن» . لكنه تخلى عنها بعد ستة أشهر لعمه «عثمان بن يوسف» . فعزل هذا بعد عام ونصف لاستبداده وسوء تدبيره . قام بعده بالأمر «أبو عزة زكران بن زيان» مدة ثلاث سنين . فأطاعه قومه ، ولم

(1) ابن خلدون : المقدمة ، ص : 147 .

يفلت إلا بنو مظهر . فشمر لمقاتلتهم ، لكنهم قتلوه سنة 633هـ (1235م) فلم تبق حينئذ «تلمسان» ولاية موحدية . فقد استولى عليها «يغمراسن بن زيان» وكان زعيم آل زيان تولى رئاسة القبيلة سنة 633 . فإنه أشد أبطاله بأسا وأعظمهم مكانة . وانضم اليه «بنو مظهر» و «بنو راشد» الخارجون من قبل على أخيه .

فجعل من «تلمسان» قاعدة امارة التي أخذ يوسع رقعتها على حساب الحامية الموحدية الضعيفة ، فهكذا سقطت المدينة من يد الدولة الموحدية ، إلا أن «يغمراسن بقي يدعو لخليفة مراكش» . فطار صيته ووفد عليه من الأندلس جماعة من الأعيان وعلى رأسهم «ابن وضاح» ، فأكرم وفادتهم ، وقرب «ابن وضاح» وقدمه للشورى . ووفد عليه أيضا «أبو بكر بن خطاب» (1) ، وكان كاتبا بليغا وشاعرا مفلقا ، فعينه لكتابته ولا سيما في مخاطبته للخليفة الموحدي وأمراء افريقية .

الصراع بين « يغمراسن » وجيرانه

كان «يغمراسن» يتحرز من نيات الموحدين والحفصيين ، وكان على حذر من أطماع «بني مرين» . فقد كان بينه وبينهم وقائع متعددة ، إلا أنه كان مرتبطا مع البلاط الموحدي برباط المودة .

وكان الخليفة «الرشيد» يحبوه بصداقة ويهاديه حتى لا يصير حليف مرين، جلس الخليفة «السعيد» على عرش أجداده بعد «الرشيد» . فأبى إلا أن تبقى أواصر المودة مع «يغمراسن» كذي قبل ، فبعث اليه بهدية من الخيل العتاق وكتب اليه يعاهده على قتال «بني مرين» الذين اعتدوا عليه واستولوا على جهات شاسعة بالمغرب الأقصى . وكان وقتئذ على العرش الحفصي بإفريقية الأمير «أبو زكرياء» فخشي أن يعقد السلم بين «يغمراسن» و «بني مرين» ثم يقع التحالف بين هؤلاء والخليفة على محاربته ، فعزم على مهاجمة «يغمراسن» . فجيش الجيوش وخرج إلى «تلمسان» . فضرب حولها الحصار أواخر سنة 639هـ ، فرأى «يغمراسن» أنه لا يقدر على مقاومة جموع أبي زكرياء ولا ينفعه إلا أن يغادر «تلمسان» . فخرج في أهله وخاصته فحاول الحفصيون أن يصدوه ، لكنه أمكنه أن يشق طريقا ويلجأ إلى جبل قريب فخلا الجو «لأبي زكرياء» ، ودخل المدينة ، ولم يمس أهلها بسوء ، وفكر فيمن

---

(1) تجد ترجمته في الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ص : 209 لمحمد بن عمرو الطمار .

يوليه عليها . فأشار عليه خاصته من الموحدين بتقدم «يغمراسن» فليس هناك من هو أقدر على القيام بهذا العبء منه ، فارسل اليه «أبو زكرياء» يستقدمه . فجاء «يغمراسن» ، فأمنه وولاه على «تلمسان» وعلى إقليمها وفق شروط قبلها «يغمراسن»

فهكذا تكون هذه الولاية حاجزا بين المملكة الحفصية وبين شمال المغرب الأقصى حيث يستفحل أمر «بني مرين» ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة 640هـ (1243م) (1) . ثم ارتحل «أبو زكريا» إلى عاصمته لسبع عشرة ليلة من نزوله .

وفي أثناء طريقه وسوس اليه بعض الحاشية باستبداد «يغمراسن» عليه وأشاروا بإقامة منافسين له من «زناتة» وأمراء المغرب الأوسط . فأجابهم ، وقلد «عبد القوي بن عطية الوجيني» و «العباس بن منديل» «المغراوي» و «علي بن منصور المليكشي» ، واذن لهم في اتخاذ الآلة (2) والمراسم السلطانية على سنن قريعهم . فاتخذوها بحضرته ويشهر من ملوك الموحدين ، وأقاموا مراسمها ببابه . وأخذ السير إلى «تونس» قرير العين بامتداد ملكه وبلوغ وطره والإشراف على إذعان المغرب لطاعته ، فلم يبق من الدولة الموحدية إلا «مراكش» وأحوازها في عهد «السعيد» . فخرجت من يده الأندلس وتوزع أراضيها «بنو هود» و «ابن الأحمر» ، وانفصلت افريقية واستقل بها «بنو حفص» ، وخرجت «سبتة» عن طاعته ، وتربع «يغمراسن» على عرش «تلمسان» ، وتوغل «بنو مرين» في أعماق المغرب الأقصى ، فاستولوا على «فاس» وعلى «مكناسة» وأخذوا يهددون السلطة المركزية ، فلم ير «السعيد» عندئذ إلا أن يشمر على ساعديه ليسترد ما ضاع من الأمبراطورية الموحدية . فألف جندا عرمرما ، إلا أن هذا الجند لا تربط جموعه تلك العصبية التي عرفها الجيش الموحدي في أيام «عبد المؤمن» . فإنه يتألف من حشود قصدها السلب والنهب ، فخرج «السعيد» بهذا الجيش في شهر ذي الحجة سنة 645 هـ (أبريل سنة 1248 م) وسار حتى نزل «بوادي تانسيفت» وكان همه الأول هو محاربة «بني مرين» وإجلاؤهم عن ربوع المغرب الأقصى . فرحل لهذا الغرض إلى جهة «ملوية» «وتازة» حيث

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر جـ 6 ص : 257 و جـ 7 ص : 81 والبيان ، ص : 361 ـ 312 والذخيرة السنية ، ص : 64 و 65 وتاريخ الدولتين للزركشي ، ص : 31 .

(2) من شارة الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون (المقدمة) .

كانت جيوش «بني مرين» مرابطة . فلما رأى أميرها «أبو يحي» جيوش «السعيد» أدرك أنه لا يقدر على مقاتلته ، فآثر السلم ونزل له عن البلاد والجهات التي احتلها «بنو مرين» وعقد معه صلحا يتعهد فيه أن يمده بفرق من الجنود المرينية في حرب ضد «يغمراسن» وصاحب أفريقية (1) . ثم ابتعد بجيوشه إلى بلاد الريف ، أما السعيد فقصد «مكناسة» . فخرج اليه أهلها وقدموا أمامهم أولادهم يحملون المصاحف والتمسوا اليه العفو مما حدث . فعفا عنهم وأمنهم ، ثم شخص «السعيد» بعد ذلك إلى «فاس» ونزل في ظاهرها وخرج إليه أشياخها وعلماؤها يؤدون له التحية ، فأكرم وفادتهم ، ولم يلبث أن غادر «فاس» في التاسع عشر من المحرم سنة 646 هـ . ثم سار متجها إلى «تلمسان» وهو همه الثاني فوصل إلى نواحيها . وكان من جملة حشوده فرقة من خمسمائة فارس من بني مرين التي وعده بها «أبو يحي» فبعث «السعيد» إلى «يغمراسن» يطلب منه أن يدخل في طاعته وأن يستعد للقائه . فأرسل اليه «يغمراسن» في الحين وزيره الفقيد «عبدون» يؤكد له الطاعة والاستعداد لارسال فرقة من بني عبد الواد ليحاربوا تحت رايته ، ويعتذر عن قدومه . ثم غادر عاصمته في أهله وولده وخاصته ولجأ إلى قلعة « تامزجدارت » الواقعة جنوبي «وجدة» واعتصم بها ، فأبى «السعيد» إلا أن يقدم «يغمراسن» اليه بنفسه . لكن «يغمراسن» أصر على موقفه . فقرر حينئذ «السعيد» قتاله ، فقصد إلى «القلعة» وكان الوصول اليها خلال شعب وأوعار ضيقة قد كمن بها بنو عبد الواد» فنصح «السعيد» وزيره «ابن عطوش» أن لا يسلك مضايق تلك القلعة فقد يخاطر بنفسه لكن «السعيد» أصر على اقتحام القلعة ، فاعتمد الجبل في قواته وأمامه وزيره «ابن عطوش» راجلا شاهرا سيفه . فلما توسط الموحدون تلك الأوعار انقض عليهم ، على بغتة ومن كل صوب ، بنو عبد الواد بمنتهى الشدة والعنف ، فقتل الوزير ، وسقط «السعيد» من فوق مطيته ، وذلك في يوم الثلاثاء آخر صفر سنة 646 هـ (23 يونيه 1248 م) (2) وقد طعنه فارس يدعى «يوسف عبد المؤمن الشيطان» ، وكان كامنا أسفل الجبل ومن ورائه «يغمراسن» وابن عمه «يعقوب بن جابر» ،

(1) الذخيرة السنية ، ص : 76 و77 ، والبيان ص : 386 و387 وابن خلدون جـ 7 ص : 172 .
(2) الذخيرة السنية ، ص : 78 ، والبيان ص : 387 و388 وابن خلدون جـ 6 ص : 58 وجزء 7 ص : 82 وروض القرطاس ، ص : 102 .

فبادر «يغمراسن» إلى الخليفة وهو صريع في الأرض ، فاقترب منه وحياه وأقسم له على براءته من هلكته «والسعيد» لاينبس ببنت شفة إلى أن فاض . عند ذلك أمر «يغمراسن بغسله وتكفينه ، ثم حمل فدفن بالعباد . لما طار خبر موته أجفل عسكره ، وقتل منهم عدد كبير ، وارتد ما فل منهم إلى «مراكش» .

وانتبهت محلة «السعيد» وأخذ بنو عبد الواد ما فيها واختص «يغمراسن» بفسطاط الخليفة واستولى على الذخيرة التي كانت فيه منها مصحف «عثمان بن عفان» رضي الله عنه . أما حرم «السعيد» وأخته «تاغرِونت» فقد تقدم اليهن «يغمراسن» وأعرب لهن عن تأسفه على ما وقع وألحقهن بالمغرب . فوصلن إلى «مراكش» آمنات سالمات . فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعي مراتب الملك (1) . لما علم الأمير «أبو يحي بن عبد الحق المريني» بمصرع «السعيد» الموحدي نهض للعمل ، فاستولى على «تازة» ثم على «فاس» التي لم يكن فيها إلا مئتا جندي من الروم وفدوا اليها عقب موت «السعيد» مع قائدهم «شديد» فبايعوا على الطاعة وبايعه عميد فقهاء «فاس» «أبو محمد الفشتالي» وجميع علماء المدينة . فغادر حينئذ الوالي الموحدي السيد «أبو العباس» ولايته في أهله وولده وأمنه «أبو يحي المريني» وأعطاه خمسين فارسا يحرسونه إلى وادي أم الربيع ، فخلا إذا الجو «لأبي يحي» . واستولى على المدينة ، وذلك في شهر ذي الحجة سنة 647 هـ . وقد اجتمعت كلمة الموحدين على مبايعة السيد «أبي حفص عمر بن السيد ابراهيم ابن الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن» ، وكان من قبل واليا «بسلا والرباط» ، وعقدت له البيعة بجامع «المنصور» في أوائل شهر ربيع الأول سنة 646 هـ . وتلقب الخليفة «بالمرتضى لأمر الله» . فعجز إدراك «فاس» وإبعاد «أبي يحي» عنها ، فبعث إلى «يغمراسن»«بن زيان» يغريه على انتهاز الفرصة في بني مرين . فأجاب «يغمراسن» داعيه ، وقصد «تازة» في قواته وقد نفر منه «عبد القوي بن عطية» بقومه «بني توجين» وكافة القبائل من زناتة والمغرب (2) فطار الخبر إلى «أبي يحي» المريني ، فأغذ السير إلى «تازة» . لكن «يغمراسن»

(1) ابن خلدون : كتاب العبر جـ 7 ص : 184 و 185 ، والذخيرة السنية ص : 81و82 والبيان ص : 299 وروض القرطاس ص : 196 .

(2) ابن خلدون جـ 7 ص : 175 ، والذخيرة السنية ص : 83 .

ارتدّ عنها . فسار «أبو يحي» في اثره ، ونشبت بين الفريقين عدة معارك بوادي «إيسلي» على مقربة من «وجدة» ، فانهزم «يغمراسن» ورجع في فلوله إلى «تلمسان» وذلك في شهر ذي الحجة سنة 647 هـ (1) . أما «أبو يحي» فقد قصد «فاس» ونزل بقصرها .

بعد مقتل «السعيد» الموحدي بقلعة «تامزجدارت» استخدم «يغمراسن» طائفة من جند النصارى ليكونوا له عونا في حركاته . وما أكثر ما كانت هذه الحركات ! وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، خرج إلى «توجين» يحملهم على الطاعة ، وبعد عودته ركب يوما يستعرض كعادته جنوده بباب القرمادين ، وبينما هو واقف في موكبه عدا عليه قائد فرقة المرتزقة النصارى وأشار له بالنجوى فبرز من الصف لإسراره وأمكنه من أذنه ، فتنكبه النصراني يريد اغتياله ، وقد خالطته روعة أحس منها «يغمراسن» بمكره . فانحاص منه ، فركض النصراني أمامه يطلب النجاة ، وكان النصارى قد بادروا إلى «محمد بن زيان» أخي «يغمراسن» فقتلوه . فأخذهم الفزع حينئذ ، وجروا طالبين الفرار ، لكن القوم كانوا لهم بالمرصاد ، فأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم ومزقوهم شر ممزق ، ومن ثم لم يعد «يغمراسن» يستخدم جند النصارى «بتلمسان» حذرا من غائلتهم . ويقال : إن «محمد بن زيان» هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه «يغمراسن» وبما أن اغتياله لم يتم فقتلوا «محمدا» . تبريا من مداخلته (2) .

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة نهض «أبو يحي بن عبد الحق» إلى قتال «يغمراسن» ، فبرز اليه هذا والتفت جموع الأميرين بباب «سليط» ، فانهزم «يغمراسن» ، واعتزم «أبو يحي» على إتباعه ، فثناه عن ذلك أخوه «يعقوب بن عبد الحق» ، وحاول «يغمراسن» بعد ذلك الاستيلاء على «سجلماسة» التي كانت تابعة لمرين ، فلم يفلح ، فرجع إلى «تلمسان» . هلك «أبو يحي» اثر ذلك . فجيش «يغمراسن» الجيوش من زناتة وأحياء «زغبة» ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين وستمائة وانتهى إلى «كلدمان» ، فلقيه «يعقوب أبو يوسف بن عبد الحق»

---

(1) ابن خلدون جـ 7 ص : 172 .

(2) ابن خلدون : جـ7 ، ص : 175 .

في قواته وهزمه ، فولى «يغمراسن» ، ومر في طريقه «بتافرسيت» ، فانتسفها ، وعاث في نواحيها .

فجنح بعد ذلك الخصمان إلى السلم ، وبعث « يعقوب » ابنه « أبا مالك » لذلك ، فكان التقاء لجنتي الصلح سنة تسع وخمسين وستمائة «براجر» قبالة بني يزناسن ، وكانت الهدنة بين الدولتين ، لكنها لم تدم طويلا، كما سترى .

توفي «عمر المرتضى» الموحدي في صفر سنة 665 هـ وخلفه «أبو العلاء إدريس» الواثق بالله بن السيد «عبد الله محمد»بن السيد «أبي حفص عمر بن عبد المؤمن» ، وقد لقب بأبي دبوس» . بينما كان هذا الخليفة يأخذ في الأهبة للزحف على السوس وردت عليه هدية ورسالة من الأمير «يغمراسن بن زيان» يقدم فيها بيعته للخليفة الموحدي ويحذره من أطماع بني مرين فيما بقي من أقطار الدولة الموحدية ويعده بمخالفته وتعهده بأن يكفيه شر بني مرين . وذاع أمر هذه البيعة بين الجند وضربت الطبول ابتهاجا بها (1) . وقد شعر «أبو دبوس» بوطيد سلطانه مذ وعده «يغمراسن» بحلفه ومساعدته ومذ توالت عليه بيعات القبائل من العرب والبربر . وكان يومئذ « أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق » أميرا على مرين ، فبعث إلى صاحب «مراكش» نذيرا ، فرد الرسول بجفاء وتهديد . فثار لذلك «أبو يوسف» وقصده في قواته ، فامتنع «أبو دبوس» بالحضرة ، وبعث إلى حليفه «يغمراسن» هدية مشفوعة برسالة يستصرخه فيها على عدوه . فنهض «يغمراسن» في حشود منتهزا فرصة ابتعاد «أبي يوسف» بالقوات المرينية ، وأخذ يغير على الأقاليم الخاضعة لبني مرين ، ويعيث تخريبا ونهبا وسلبا (2) . فوصل خبر ذلك إلى أذن «أبي يوسف» ، فأقلع مؤقتا عن حصار «مراكش» وأغذ السير لقتال «يغمراسن» في جموع كثيرة ، وذلك في منتصف شهر ربيع الأول سنة 666 هـ . وكان «يغمراسن» استكمل من جانبه لملاقاة مرين . فالتقى الفريقان بوادي «تلاغ» . ونشبت معركة عنيفة بينهما ، وامتازتِ بمثول النساء في الهوادج يحرضن الرجال على الثبات والإقدام ، وانتهت بانتصار مرين وهزيمة «يغمراسن»

(1) الذخيرة السنية ، ص : 127 والبيان ص : 461 .

(2) ابن خلدون : جـ 7 ص : 177 .

ومصرع جماعة من أبطال «بني عبد الواد» وفي مقدمتهم «أبو حفص عمر» نجل الأمير . ففر «يغمراسن» بفلوله نحو «تلمسان» تاركا وراءه محلته التي استولى عليها عدوه ، وكان ذلك في الثاني عشر من جمادى الآخر سنة 666 هـ (1) .

نهض «يغمراسن» اثر ذلك إلى إخضاع القبائل المخالفة عنه من «توجين» «ومغراوة» ، ووصل إلى مليكش والثعالبة ، وكان «عمر بن منديل» المغراوي أميرا على «مليانة» فنزل عنها ليغمراسن على شرط المؤازرة على إخوته ، فاحتلها «يغمراسن» سنة 668 هـ (1270 م) . وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته .

لما قضى «يعقوب» على قوى «يغمراسن» أمكنه بذلك أن يعود إلى «مراكش» ويستأنف حصارها ، ولم يلبث أن دخلها عنوة ومحا أثر بني عبد المؤمن منها ، ففرغ «يعقوب» حينئذ لمحاربة «يغمراسن» بن زيان» ، فحشد جموعا عظيمة وقصد عدوه سنة سبعين وستمائة ، فبرز اليه «يغمراسن» في قومه وحلفائه من مغراوة والعرب ، وتزاحف الجمعان «بايسلي» من نواحي «وجدة» فدارت الدائرة على «يغمراسن» ، فانكشفت جموعه ، وقتل ابنه «فارس» ، ونجا هو بأهله بعد أن أضرم معسكره نارا تفاديا من معرفة اكتساحه (2) ، فدخل قاعدته .

وكان مع «يعقوب» شاعره «الملزوزي» . فرفع اليه قصيدة منها هذه الأبيات :

هنيئا لكم نصر مبين على العدا ... وصول سعود شأنها متداوم
أمير «تلمسان» أبدت جيوشه ... وما هو مظلوم ولا أنت ظالم
فديتك يا يغمور هل لك زاجر ... أيقظان حِسٍّ أنت أم أنت نائم ؟
أفي كل عام تترك ابنك للقنى ... وتسبى الك الغيد الحسان الكرائم ؟
أتيت لأخذ الثأر ويحك منهم ... وقلت عسى الأيام يوما تسالم
فخلفت أيضا للصوارم فارسا ... وليدك لم تشفق عليه الضراغم
فها أنت كالعَيْر الذي يبتغي ... بحرمانه قرنا فمرّ يزاحم (3)

---

(1) الذخيرة السنية ص : 131 ـ 132 وابن خلدون جـ 7 ص : 180 .
(2) ابن خلدون : جـ 7 ص : 177 .
(3) ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم : 9 : الملزوزي ، ص : 18 عبد الله كنون .

فهدم «يعقوب «وجدة» حتى لا يبقى فيها لعدوه ولي ولا نصير ، ثم سار إلى «تلمسان» ينازله بها ، وقد اجتمع اليه هنالك بنو توجين مع أميرهم «محمد بن عبد القوي» . فحاصروا جميعا «تلمسان» أياما فامتنعت عليهم . فأفرجوا عنها وعادوا إلى أوطانهم . انعقدت بعد ذلك المهادنة بين «يغمراسن» «ويعقوب» سنة 673 هـ (1274 م) . وإثر هذا الصلح نهض «يغمرسان» يأخذ الثأر من «توجين» ومغالبتهم . أما «يعقوب» فعاد إلى «فاس» . وكانت جميع أقاليم المغرب الأقصى خاضعة لسلطانه إلا «سجلماسة» فكانت بيد «يغمراسن ابن زيان» وحلفائه من عرب المنبات من بطون معقل . فسار اليها «يعقوب» في جيش عرمرم وضرب حولها الحصار ، ثم اقتحمها عنوة ، وكان افتتاحها في صفر سنة 673 هـ (6 أيلول 1274 م) . فقتل القائدان «عبد الملك بن حنيفة» «ويغمراسن بن حمامة» ومن كان معهما من بني عبد الواد وأمراء المنبات ، الأمر الذي حمل «يغمراسن» بن زيان» على نقض الصلح ومحاربة بني مرين .

وفي سنة 676 هـ (1277 م) جاز «يعقوب» إلى الأندلس يقاوم أعداء الإسلام فيخفف من وطأتهم على الرقعة الإسلامية هناك ، وذلك للمرة الثانية ، فحاصر «اشبيلية» ثم «قرطبة» وهاجم مدينة «جيان» واكتسح حصونا كان العدو قد استولى عليها. وتخلى له «ابن اشقيلولة» عن «مالقة» ، فملكها وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير «محمد» المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر وهو الذي استدعى «يعقوب» بن عبد الحق» للجهاد . فلما استفحل أمر «يعقوب» بالأندلس وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشية «ابن الأحمر» على نفسه فيزيله كما أزال «يوسف بن تاشفين» ملوك الطوائف ، فسعى في تعكير الجو «ليعقوب بن عبد الحق» . فداخل ملك «قشتالة» في اتصال اليد والمظاهرة عليه . وكانت «مالقة» «لعمر يحي بن علي» استعمله عليها «يعقوب بن عبد الحق» حين ملكها من يد «ابن اشقيلولة» ، فاستماله «ابن الأحمر» واقترح عليه أن يديله «بشلوبانية» من «مالقة» . فقبل «يحي» . فلم يتخل عنها حتى ظهرت أساطيل الطاغية في البحر لمنع النجدات من أن تصل إلى «يعقوب» من المغرب عند مسيس الحاجة اليها ، وراسل ابن الأحمر والطاغية «يغمراسن» من وراء البحر في شن الغارات على ثغور «يعقوب بن عبد الحق» ليكون ذلك شاغلا له عن الأندلس ، وكان «يغمراسن» حاقدا عليه ،

مرتين حتى يفرغ لجهاد العدو . فأبى «يغمراسن» وأقسم أن لا يصلحه أبدا حتى يأخذ منه الثأر ، وكتب كتابا من بعض فصوله هذان البيتان :

فبادر إلى إجابتهما ، فشغل «يعقوب» عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة

فلا صلح حتى نروي السيف والقنا — وتأخذ عبد الواد منكم بثأرها

وأشفي غليلي من مرين التي طغت — بسبي غوانيها وقتل خيارها

وتمادى في تدويخ شرق المغرب الأقصى . فاضطر «يعقوب» إلى العودة إلى المغرب وأول ما فعل هو أخذ الثأر من «يغمراسن» .

فرفع حينئذ «الملزوزي» قصيدة يمدحه ويحرضه على «يغمراسن» . اليك بعضها :

أرى كل جبار بسيفك يصغُر — وكل مليك عن فعالك يقصر

بعثت إلى «يغمور» بالصلح معلما — وقلت عساه بالبصيرة ينظر

فلم يغتبط بالصلح جهلا وغلظة — فيا عجبا من خاسر كيف يخسِر!

أردت بأن تهديه للرشد والهدى — وكيف يرى رشدا شقي مغيّر ؟

فإنك لا تهدي من أحببت للهدى — أتدفع عنه ما عليه مقدر ؟

أبى الله إلا أن يخصك بالهدى — ويعطيك في أخراك ما هو أكثر

ويحرم يغمورا جهاد عدونا — ويجعله في بحر بأسك يغمر

فأسبق به فهو الجهاد بعينه — فحتى متى في الدين يغمور يقصر

فتأخذه قهرا وتملك أرضه — فأنت عليه في الملاحم أقدر

أينسى نفيض «إيسلي» ثم «وجدة» — ويوم «تلاغ» والقنا تتكسر ؟

وقد سطعت بيض خفاف صوارم — وقد حجبت الشمس المنيرة أغبر

ولا شمس إلا وجه يعقوب إذ بدا — تراه لدى الهيجاء والحرب تسعر

«ويغمور» قبل الحرب يحلف أنه — إذا ما التقى الجمعان للأسر يذعر

فلما رأى أسيافكم تستبي الطلى — وأبصر خيل الله كالأسد تزأر

تولى على أعقابه متحسّرا — فأين مضت أيمانه والتجبر ؟

أيجحد «يغمور» فضائلك التي — إذا عددت عند الوفا ليس تحصر؟ (1)

(1) ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 14 رقم : 9 ـ عبد الله كنون .

فسار «يعقوب» إلى «يغمراسن» في جموع غفيرة . والتقى الجيشان «بوادي تافنة» ، فانكشف بنو عبد الواد ، وانتهبت محلتهم ، وعاد «يغمراسن» في فلوله إلى دار ملكـه .

وفي سنة ثمانين وستمائة عاود «يعقوب بن عبد الحق» منازلة «تلمسان» ولقيه «محمد بن عبد القوي» سيد «توجين» بالقصبات وأجمعا رأيهما على تخريب بلاد «يغمراسن بن زيان» فحاصرا «تلمسان» ، ولكنهما عجزا من الاستيلاء عليها . ثم افترقا ، ورحل كل إلى بلاده .

ولم يتنفس «يغمراسن» الصعداء حتى زحف في قواته إلى «توجين» منتقما منهم لانحيازهم إلى مرين ، وأوطأت عساكره أرض مغراوة ، وعاد ظافرا إلى حـاضـرتـه .

توفي «أبو زكريا» صاحب أفريقية في ليلة الجمعة 12 جمادى الثاني سنة 647 هـ (22 أيلول 1249 م) وخلفه ابنه «محمد المستنصر» . فخرج عليه أخوه الأمير «أبو إسحاق» في أحياء الدواودة من رياح ، لكن «المستنصر» قضى على ثورتهم وشتت شملهم . فتمكن «أبو اسحاق» من الالتحاق «بتلمسان» في أهله . فأكرم «يغمراسن» نزلهم ، ومن هناك شخص «أبو اسحاق» إلى الأندلس للمرابطة بها والجهاد .

ولم يلبث المستنصر أن هلك سنة خمسة وسبعين وستمائة وخلفه «أبو زكرياء يحي» الثاني الواثق . فاتصل بأبي اسحاق خبر مهلكه ، ورأى أنه أحق بالخلافة . فأجاز البحر ، ونزل بمرسى «هنين» سنة 677 . فاحتفل «يغمراسن» بقدومه ، وبايعه على عادته مع سلفه ، ووعده بالتأييد والمؤازرة على أمره ، ثم اصهر اليه في احدى بناته بابنه «عثمان» ولي عهده . وانتقض «محمد بن أبي هلال» عامل «بجاية» على «الواثق» ، ودعا للأمير «أبي اسحاق» واستحثه للقدوم . فأغذ اليه السير من «تلمسان» ودخل «بجاية» آخر شهر ذي القعدة سنة 677 هـ (أبريل سنة 1279 م) . فاجتمع عليه أهلها ، وبايعوه بالملك ، فلم ير «الواثق» بدا من أن يتنازل مكرها عن العرش غرة ربيع الأول سنة 678 هـ (12 يوليوس 1279 م) .

خرج «يغمراسن» إلى بلاد مغراوة سنة إحدى وثمانين وغلبهم على الضواحي والأمصار ومن هناك بعث ابنه «ابراهيم أبا عامر» في جماعة من قومه إلى الخليفة

«أبي اسحاق» لإحكام الصهر بينهما ، فرحب بهم . فعاد «ابراهيم بن يغمراسن» بالأميرة فابتنى عثمان لحين وصولها أصبحت عقيلة قصره . فكان ذلك فخرا لدولته وذكرا له ولقومه (1) .

فإن أباه كان«بتنس» التي نزل له عنها «ثابت بن منديل» لما بلغه الخبر بإقبال «أبي عامر» من تونس بابنة «اسحاق» فقصد الركب ولحقه بظاهر «مليانة» . فارتحل إلى تلمسان فأصابه الوجع في طريقه ، وعندما احتل «شربونة» اشتد به وجعه ، فهلك هناك آخر ذي القعدة سنة 681 هـ (1281 م) . فحمله ابنه «أبو عامر» فلقيه أخوه عثمان بن «يغمراسن» ولي عهد أبيه في قومه . فجلس ذلك العاهل الكريم على عرش تلمسان 49 سنة من 633 إلى 682 هـ ، (1235 م- 1284 م) .

(1) ابن خلدون : جـ 7 ، ص : 187

خلال « يغمـراسن » ومشـاريعـه

كان «يغمراسن» يمتاز بخصال مكنته من السيادة على بني عبد الواد ، فكان أشدهم شجاعة وأعرفهم بمصالح القبائل وأكثرهم اضطلاعا بالتدبير والرئاسة . فقد أحسن السير في الرعية ، وساعد المظلوم . واستمال عشيرته وقبيلته وأحلافهم من عرب زغبة ومعقل بحسن السياسة والاصطناع ، وخلاصة القول أنه كان كفئا لحمل أثقال الملك . فاتخذ الآلة ، ورتب الجنود والمسالح ، واستلحق الروم المرتزقة الذين كانوا قاتلوا في صفوف الجند الموحدي . واتخذ الوزراء ، ومن وزرائه القاضي «أبو محمد عبدون الحباك» «ويحي بن مجن أو مقن» وأخوه «عمروش» الذي مات سنة 636 هـ وخلفه ولداه «يحيى» «وعمر» «ويعقوب» «ابن جابر بن محمد» الخراسانيّان . فكان لا يعزم على القيام بأمر خطير حتى يجمع مجلس الشورى المكون من أولاده وكبار قبيله ورجال امتازوا بالراي السديد والحكمة مثل «ابن وضاح» الذي وفد عليه في جماعة من الأندلس ، وكان يخاطب الخلفاء والأمراء ، فاستخدم لذلك كتابا حذاقا مثل «أبي بكر بن خطاب» الأندلسي (1) «ومحمد بن غالب» الذي قتل يوم ثورة النصارى ، ثم «أبو عبد الله محمد بن جدار» .

كانت «ليغمراسن بن زيان» مواقف سياسية مع جيرانه «بني حفص» ، وظهر فيها سياسيا ماهرا ، فقد عمل على ربط صلته للسلطان «أبي اسحاق ابراهيم» الحفصي وأكد هذه الصلة بالمصاهرة . فخطب كريمته لولده وولي عهده «أبي

---

(1) مراصد الاطلاع ـ ص : 134 .

سعيد عثمان» ، كما سبق أن قلنا ومن حنكته في السياسة التضريب بين رؤساء قبيلة مغراوة للمنافسة التي كانت بينهم في رئاسة قومهم .

وكانت بينه وبين بني مرين «ملوك فاس» وقائع متعددة كان التفوق فيها لمرين . وذلك لأسباب منها أن توجين ومغراوة نابذوه العهد ، وشاقوه الطاعة ، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة ، وانحازوا إلى أعدائه ضده ، ثم أن المغرب الأوسط أصبح ضعيفا اقتصاديا ، قد ضعفته الاضطرابات التي تعرض لها وقت الصراع بين المرابطين والموحدين من جهة وبين الموحدين والمايورقيين من جهة أخرى ، فلم يقدر «يغمراسن» على أن يتغلب على بني مرين الذين أصبحوا سادة المغرب الأقصى الذي كان أوفر سكانا وأكثر غنىً من إقليم «يغمراسن» فكان ملوكهم يستطيعون جمع ما أرادوا من الحشود والمال ، إلا أنهم لم يتمكنوا البتة من أن يستولوا على «تلمسان» . فإن «يغمراسن» قد حصن بلاده وأحاطها بما يدرأ عنها العدو . فجاء بقبيلة بني عامر العربية من صحراء بني يزيد وأقطعها نواحي «وهران» «وتلمسان» ، وكانت له هنالك خير وقاية احتمى بها من مهاجمة خصومه المعاقل المقيمين بسهول متيجة ، وجاء أيضا بقبيلة «حميان» الهلالية ، فأقامها بصحراء «تلمسان» ، فكانت له حصنا منيعا من بني مرين ، وأسكن فريقا من «عكرمة» بجبل كركرة قبلة السرسو .

وهناك من يلوم على «يغمراسن» اتفاقه مع بني الأحمر وملك «قشتالة» في شن الغارات على ثغور المغرب الأقصى عندما كان «يعقوب بن عبد الحق» مرابطا بالأندلس . فإنه لم يفعل ذلك حبا في ملك «غرناطة» ولا في ملك «قشتالة» ، وإنما انتقاما من «يعقوب» الذي نقض الصلح المبرم بينهما بهجومه على «سجلماسة» التي كانت على يد «يغمراسن» وسعيا في النيل من شوكة مرين .

إن «تلمسان» في عهد هذا العاهل قد عظم شأنها واتسعت أرجاؤها . «بتاقرارت» كانت تقيم الأسرة المالكة ودواوين الدولة والقوات المسلحة ، وكان «يغمراسن» يسكن بالقصر الذي شيده المرابطون لصق المسجد الجامع ، وقد سكنه ولاتهم وولاة الموحدين من بعدهم . لكنه لم يطل عهده به ، فإنه ابتنى قصرا جديدا بالمكان الذي يسمى اليوم بالمشور ، وانتقل اليه أوائل القرن الثالث عشر ، فقد

وصف لنا «محمد التنسي» منازله الجليلة وحدائقه النضرة ، هدم بعض حجراته باي الجزائر سنة 1670 م إثْر ثورة قام بها التلمسانيون على الحاكمين.ثم قضى على ما بقي منه الفرنسيون سنة 1843 م ، هدموه واتخذوه معسكرا ، إلا أنهم تركوا صومعة قصيرة جميلة تدل على أنه كان للقصر مسجد .

أما «أقادير» فكان يسكنها الشعب الذي لم يرد عنها بديلا . فقد سكنها آباؤهم وأجدادهم من قبل ، وقد نزل بها «إدريس بن عبد الله» وبنى مسجدها . فإن أداء الصلاة في هذا المسجد يعد من الفضائل ، «يغمراسن» نفسه كان يعتني به اعتناءه بمسجد «تاقرارت» ، فقد حلى ذا وذاك بصومعة هي أجمل ما بقي لنا من الآثار الزيانية بالمدينة فكلتا الصومعتين مثيلة لما سبقها بالأندلس وسوريا من حيث زخارف واجهاتها ورشاقة جدرانها ، ومناسبة طولها بعرضها . فإنها تمتاز بعزريّ يخالف عزريّ كل من مآذن المرابطين والموحدين والمرينيين .

إن الجزء الأسفل من منابر أقادير «مبني بحجر أطلال» «يومارية الرومانية» ، كما سبق أن ذكرنا ، والأعلى بالآجر ، أما صومعة مسجد «تاقرارت» (شكل 13) فإنها مشيدة كلها بالآجر وزخارف واجهاتها وواجهات أختها مصنوعة بالآجر أيضا لا بالجبس كما تظهر لك من بعيد ، فإنها من هذا القبيل ، تشبهان منار الكتبية (شكل 14) «بمراكش» وحسان (شكل 15) «بالرباط» والجرالدا «إشبيلية» (شكل 16) وقد حلى «يغمراسن» بيت الصلاة بثريا ضخمة على شكل مخروط كانت معلقة بالقبة الوسطى ، فقد بليت فنرى قطعا منها اليوم بالمتحف البلدي ، وعوضت بأخرى أصغر منها بكثير (شكل 17).فكان يدخل مرة بيت الصلاة ليسمع الدروس التي كان العلماء يلقونها على الطلبة . وقد دفن قرب المسجد فإن المقبرة كانت تقع وراء المحراب وتمتد إلى الجهة الغربية ولا تبعد عن القصر الملكي . وهذه سنة متبعة في جميع البلدان الإسلامية ، فإن قصر كل من قرطبة وحمراء غرناطة وقصبة «مراكش» كانت لاصقة به مقبرة يدفن بها الأمراء . وكان يدفن في تلك المقابر مع الأمراء كبار العلماء وأشهر الأولياء ، فإن «الجزولي» مدفون مع الشرفاء السعديين بمراكش (شكل 18) والشيخ العالم النحوي «مرزوق» مدفون مع الزيانيين (1439 م) ، ولازال ضريحه لاصقا بالمسجد في زاوية ملتقى ساحة

الأمير عبد القادر وشارع الاستقلال والولي «أحمد بن الحسن الغماري» مدفون بجوار المسجد من الجهة الشرقية . فكان يقوم الليل بمقصورة المسجد ويتلو القرآن ، وفي صباح يوم من أيام سنة 1470 م وجد ساجدا ولكنه ميت رحمه الله .

الحالة الإقتصادية والحركة الثقافية في عهد « يغمراسن »

عرفت «تلمسان» في عهد «يغمراسن بن زيان» رواجا اقتصاديا كبيرا ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى الأمن الذي ساد المدينة وضواحيها . فقد حارب « يغمراسن» عناصر الفساد والفوضى بدون هوادة وأرغم خصومه من توجين ومغراوة على الطاعة والخضوع . فالمدينة أصبحت هادئة عامرة ، يمارس صناعها أعمالهم في اطمئنان ، والإقليم كله لم يتضرر من هجوم الحفصيين عليه ولا من حصار «تلمسان» من طرف «يعقوب بن عبد الحق» بحيث أن الفلاحين كانوا يقومون بأعمالهم ناشطين ، والتجار يجوبون أنحاء البلاد لا يفتك بهم أحد فقوافلهم غادية رائحة ، وأسواق التجارة نافقة ، والتبادل قائم كالعادة بين «تلمسان» والمغرب وتونس والسودان والأندلس ، كل هذا من شأنه أن يضمن للشعب الرخاء والرفاه ويدر على الخزينة الأموال الكثيرة التي تساعد الدولة على القيام بالمشاريع الإدارية والدينية والاجتماعية والفنية والعسكرية .

والحالة الثقافية لم تكن يومئذ أقل رواجا . فكان «يغمراسن» شديد العناية بها ، يقرب العلماء ويشجع الأدباء . فكان يحلو له أحيانا أن يدخل المسجد الجامع لسماع الدروس التي كان الشيوخ يلقونها على الطلبة ولاسيما دروس «أبي اسحاق ابراهيم بن خلف بن عبد السلام التنسي» فإن هذا العالم وليد «تنس» وبها تعلم ، روى عن «ابن كحيلاء» «وأبي على ناصر الدين المشدالي» ، وقرأ بتونس ، وارتحل إلى المشرق فزار مصر والشام والحجاز ، واتصل هناك «بشمس الدين الاصبهاني» «والقراني» «وسيف الدين الحنفي» ثم عاد إلى بلدته فطبقت شهرته الآفاق المغربية وقد انتهت اليه رئاسة الفتوى ، ومن تلاميذه «أبو عبد الله بن الحاج العبدري» صاحب المدخل .

فكان يقبل مرة مرة إلى «تلمسان» ويدخل مسجدها للتدريس فينثال عليه الطلبة . وكان «يغمراسن» يستحثه على الاستقرار بالعاصمة ، فيأبى معتذرا ويرجع إلى موطنه .

لكن الاضطرابات كثرت فيه فاضطر إلى مغادرته ، وأجمع على الانتقال إلى «تلمسان» ، فاستقر بها مزاولا التدريس والعبادة. فأدناه «يغمراسن» وأغدق عليه إلى أن مات سنة 670 هـ وشيعه إلى مرقده الأخير ، فقد خلف شرحا كبيرا على كتاب التلقين للقاضي «عبد الوهاب بن علي بن نصر» في عشرة أسفار ضاع في حصار «تلمسان» . وقد تبعه أخوه إلى هذه المدينة ومن ثم رحلا إلى الشرق للحج وللبحث عن المعرفة . فلقيهما «محمد العبدري البلنسي» هنالك فيصفهما لنا في رحلته فيقول «فقيهان مشاركان في العلم مع مروءة تامة ودين متين ، وأبو اسحاق أسنّهما وأسناهما وهو ذو صلاح وخير . وكان شيخنا «زين الدين أبو الحسن بن المنير» حفظه الله ــ يثني عليه كثيرا ــ وقد أدركناهما بمصر ، وكان «أبو الحسن» لم يحج ، فحج معنا ، فلقيت منه خيرا فاضلا ، وقد لازم «أبا الفتح» بمصر مدة وأخذ عنه كثيرا ، ولما حج عاد مع أخيه إلى «تلمسان» (1) . ولكن هناك علماء غادروا «تلمسان» ولم يرجعوا ، منهم «عبد العزيز بن عمر بن مخلوف أبو محمد التلمساني» . فقد استقر «ببجاية» وكانت تزخر بالعلماء والأدباء وقتئذ من جزائريين ونـزلاء أندلسيين ، فاتصل بهم ولازم بصفة خاصة «أبا بكر بن محرز» «وأبا الحسن الحرالي» ، فأصبح بعد حين أستاذا وانتصب للتدريس . فقد تلمذ له خلق كثير منهم «الغبريني» صاحب عنوان الدراية الذي قال فيه : «إنه كان فصيح اللسان والعبارة وحسن الاشارة» . وولي القضاء «ببجاية» «وبسكرة» «وقسنطينة» «والجزائر» حيث توفي رحمه الله ــ في جمادى الآخر سنة 686 هـ .

ومنهم «علي بن عبد الكريم أبو الحسن» . فقد قرأ ببلده «تلمسان» ، وكان بها «فتح بن عبد المرادي» فأخذ عنه القراءات ، فتضلّع منها وصار بدوره أستاذا فيها . وانتقل إلى «سبتة» وأقرأ فيها ، ومن تلاميذه «الحافظ أبو الحسن الخضار علي بن محمد» التلمساني المتوفى مثل أستاذه 677 هـ .

ومنهم «يحيى بن محمد بن موسى أبوزكريا» التجيبي التلمساني ، كان مفسرا حاذقا . حج وجاور وسمع «بمكة» المكرمة من «أبي الحسن بن البناء» . ولما قفل

---

(1) الرحلة المغربية ص : 11 .

راجعا من المشرق ألقى عصا التسيار «بالاسكندرية» واستقر بها . ولم يمت سنة 652هـ (1254 م) ، حتى خلف تفسير القرآن والرقائق .

ومنهم «محمد بن عبد الحق بن سليمان» الكومي اليعفري التلمساني ، ولد سنة 536 هـ، كان فقيها ومتكلما . ولي قضاء «تلمسان» مرتين ، ودخل الأندلس كغيره من الجزائريين ، وكرع من حياض العلم فيها . فقد قربه «يغمراسن» ، وأحظاه الأمراء ، وقد شهد له المترجمون بالفضل والباع . فقال «ابن الأبار» «كان حميد السيرة ، مشاركا في الفقه وعلم الكلام ، معتنيا بالحديث وروايته ، معظما عند الخاصة والعامة» وذلك بفضل خصاله الحميدة ودروسه المفيدة التي كان يلقيها عليهم في المسجد الجامع ، وقال الحافظ الذهبي : «كان اليعفري» إماما متفننا جميل السيرة معظما في النفوس كثير الكتب» . وبالفعل قد خلف كتبا كثيرة منها : المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار في عشرين سفرا في نحو ثلاثة آلاف ورقة على حسب «ابن الأبار» وكتاب في غريب الموطأ والتسلي عن الرزية والتحلي برضا باري البرية ، ونظم العقود ورقم الحلل والبرود والاقناع في كيفية الأسماع ، توفي رحمه الله ـ سنة 625 هـ .

وكانت وقتئذ شخصية تتمثل في «محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر أبو عبد الله» الزناتي التلمساني من أئمة العربية في عصره ، ولد «بتلمسان» سنة 606 هـ . أخذ عن «محمد بن منداس» صاحب «الجزولي» وعن «عبد الرحمن بن الزيات» . ثم انتقل إلى مصر واستقر «بالاسكندرية» . فأخذ عن مواطنه «عبد العزيز بن عمر مخلوف» التلمساني . ولم يلبث أن تصدر لإقراء العربية ، فتخرج به جماعة من الفضلاء ، قال «أبو حيان» «كان شيخ أهل «الاسكندرية» في النحو ، تخرج به أهلها . ولا أعلمه صنف شيئا » . وقد اختلف المترجمون له في وفاته ، فقد جاء في فوات الوفيات أنه مات سنة 680 . وفي بغية الوعاة سنة 693 ، وعن «ابن حيان» سنة 691 ، وقد عاصر «ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى» «أبو اسحاق الأنصاري» ، ولد «بتلمسان» سنة 609 هـ ، وانتقل مع أبيه إلى الأندلس وهو ذو تسعة أعوام ، ثم رحل إلى مالقة ، فسكن بها مدة

قرأ معظم قراءته ثم انتقل إلى «سبتة» واستقر بها إلى أن توفي طاعنا في السن عام 690 . فقد حلاه صاحب الإحاطة فقال : «كان فقيها عارفا بعقد الشروط مبرزا في العهد والفرائض أديبا شاعرا محسنا ماهرا في كل ما يحاول . نظم في الفرائض ، وهو ابن ثمانية وعشرين عاما ، أرجوزة محكمة بعلمها» . وحلاه أيضا «ابن الزبير» بالأديب اللغوي والفاضل الإمام في الفرائض . له أرجوزة أعجبت «لسان الدين بن الخطيب» فقال : «لم يصنف في فنها أحسن منها» . وله شعر كثير ومطولات جيدة ، فمن قوله يمدح الفقيه «أبا القاسم العزفي أمير «سبتة» .

أرأيت من رحلوا ورموا العيسا	ألا يزول على الطلول حسيسا
أحسبت سوف يعود نسف ترابها	بما يشفي لديك نسيسا
هل مؤنس نارا بجانب طورها	لأنيسها أم هل نحس حسيسا

وكان وقتئذ «بتلمسان» «أبو عبد الحق» ، لقيه فيها «علي بن عبد الله بن ابراهيم» وقرأ عليه برنامجه وأجاز له ، وكان من أهل الصوت والتعفف والاقتصاد محبا في الأدب مؤثرا له ، ينظم وينثر ، توفي ببلده «بلنسية» سنة 670 (1) . فيتراءى مما سبق أن عصر «يغمراسن» يمتاز بحياة فكرية خصبة وأن علماء الجزائر وأدباءها يحبّون العلم والأدب ويرحلون من أجله شرقا وغربا .

عهد عثمان بن يغمراسن

دفن «عثمان» أباه بالمقبرة التي كانت لصق المسجد الجامع ، ولكننا نجهل تماما موقع ضريحه . فبايع الناس وليّ العهد «عثمان بن يغمراسن» . فخاطب لحينه الخليفة الحفصي بتونس «أبا اسحاق» وبعث اليه ببيعته . فراجعه بالقبول ، وعقد له على إمارته . ثم خاطب «عثمان» السلطان «يعقوب بن عبد الحق» يطلب منه السلم لما كان أبوه أوصاه به ، يخبرنا «عبد الرحمن بن خلدون» أن شيخه «أبا عبد الله محمد إبراهيم الآبلي» (2) قال : «سمعت من السلطان أبي عمر موسى بن عثمان» يقول : «أوصى دادا (3) «يغمراسن» لدادا «عثمان» أن بني مرين ، بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة

(1) الذيل والتكملة السفر الخامس ـ القسم الأول ص : 220 (المراكشي) .
(2) كان أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي قهرمانا بدار السلطان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن .
(3) كلمة بربرية كناية عن غاية التعظيم .

بمراكش ، لا طاقة لنا بلقائهم اذا جمعوا لوفود مددهم . ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرّة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها . فإياك واعتماد لقائهم ، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك ، وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك وتكافي حشدا العدو بحشودك ولعلك نصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك» .

فلم ينس «عثمان» وصية أبيه ، وجنح الى السلم مع بني مرين ، وأوفد أخاه «محمد بن يغمراسن» على «يعقوب بن عبد الحق» ، فلقيه برّا وكرامة ، وعقد له من السلم ما أحبّ ، ثم عاد «محمّد بن يغمراسن» مستبشرا الى أخيه ، فارتاح «عثمان» لذلك ، وصرف حينئذ وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءهما من أعمال الحفصيين . فوصل بجاية ، فحاصرها لكنّها امتنعت عليه .

حصار تلمسان من طرف يوسف المريني

مرض «يعقوب بن عبد الحق» بالجزيرة الخضراء ومات سنة 1286 م . فخلفه ولده «أبو يعقوب يوسف» . بايعه وزراء أبيه وقواد الجيش والعلماء . وعبر الزقاق ودخل «فاس» . فبايعه سكانها إلاّ أن أيامه الأولى عرفت ثورات قام بها الطامعون من الأسرة المالكة والعرب ، ثار «محمد بن ادريس بن عبد الحق» ابن عم الملك بنواحي الورغة . (1) فأرسل اليه أخاه ، لكنه انضمّ الى الثائر ، وحاولا جميعا أن يفرا الى «تلمسان» .

فقبض عليهما «بتازة» وقتلا «بفاس» . وثار أيضا عرب المعقل بسوس ، وثار في الريف بنو وطّاس . فقصدهم «أبو يعقوب يوسف» وأوقع بهم . لكن رئيسهم «عمر بن يحي» الوزير فر إلى «تلمسان» ، ولم يلبث أن رجع وعفا عنه السلطان .

فكان «عثمان بن يغمراسن» يستقبل كل من الثوار ، فأغاظ «يوسف» موقف «عثمان» من أعدائه . فعقد السلم مع ملك قشتالة لحينه ، ونزل لابن الأحمر عن ثغوره بالأندلس . وفرغ لحرب بني عبد الواد . فولى وجهه شطر «تلمسان» لما رفض «عثمان» أن يسلّم اليه «محمد بن عتو» سنة 1288 م .

---

(1) جنوبي فاس .

فلاذ منه «عثمان» بالأسوار . فنازلها أربعين يوما وقطع شجراءها ونصب عليها المجانيق والآلات ، لكنها امتنعت عليه ، فأخرج عنها وولى إلى المغرب ، فداخل «عثمان» «ابن الأحمر» وملك قشتالة ، وأوفد رسله إليهما ، فلم يجدوا أذنا صاغية ، ورجعوا بخف حنين . وكان مغراوة قد لحقوا «بيوسف بن يعقوب» على «تلمسان» ، فعاثوا في ضواحي المدينة . فقصدهم «عثمان» ودوّخ بلادهم . وفي سنة (693 هـ) 1290 ـ 1291 ، دلف «يوسف المريني» إلى «تلمسان» ، فدخل بنو عبد الواد المدينة ، وسدّوا أبوابها ، فأفرج عنها مرين ، ورجعوا مارّين ببني يزناسن ، ودخلوا «تازة» سنة 1291 م (694 هـ) وفي نفس السنة استصرخ «ثابت بن منديل» ، رئيس مغراوة بالسلطان «يوسف بن يعقوب» المريني مستشفعا به لدى ملك «تلمسان» ، «عثمان» ، في ردّ هجماته وكفّ عادية قومه عنه

فأرسل «يوسف» شفاعته في ذلك إلى «عثمان» . فرفضها ، فخرج «يوسف» لغزو «تلمسان» سنة 695 هـ (1295 م) انتقاما لشرفه . فاندفعت الحشود المرينية نحو «تلمسان» ، فمروا «بوجدة» وهدّموا أسوارها ، واقتحموا «ندرومة» ، لكنها امتنعت عليهم ، بيد أنهم لقوا القوات الزيانية بضواحي «تلمسان» ، فتغلّبوا عليهم ، وقفلوا راجعين الى المغرب . وفي سنة 698 هـ (1298 م) قام يوسف بحركة أخرى ، فبنى في طريقه إلى «تلمسان» ، أسوار «وجدة» ، ثم أغدّ السير إلى بني عبد الواد ، فحاصرهم مدة ثلاثة أيام ، ثم انكفأ راجعا الى المغرب . فخالفه «أبو يحيى بن يعقوب بن عبد الحق» إلى «ندرومة» . فاقتحمها بعسكره ، وفتحها بمداخلة قائدها «زكريا بن يخلف المطغري» صاحب «تاونت» ، فاستولى بنو مرين على «ندرومة» و «تاونت» ، ثم جاء «يوسف بن يعقوب» في سنة 698 هـ (1299 م) لفض النزاع بينه وبين «عثمان بن يغمراسن» ، فانضمّت حشود «أبي يحي» إلى قوات «يوسف» ، ودلفوا جميعا الى «تلمسان» فبلغ الخبر الى «عثمان» وكان محاصرا «القلعة» . فقصد من حينه عاصمته ، ووصل إليها قبل «يوسف» . ثم أشرفت طلائع مرين عشية ذلك اليوم ، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وأحاط بها العسكر من جميع جهاتها وضرب يوسف سياجا من الأسوار وفتح فيه أبوابا ، واختلط لنزله مدينة سماها المنصورة (شكل 19)

وقام على ذلك سنين يغاديها ويراوحها ، وأرسل حشودا لافتتاح أمصار المغرب الأوسط وثغوره .

فملك بلد مغراوة وبلد توجين ، وجثم هو بمكانه من حصار « تلمسان » لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته الى أن هلك « عثمان » وهلك هو من « بعده » .

فقد بنى « يوسف » في مكان فساطيط المعسكر قصرا لسكناه ومسجدا لمصلاه ، وأدار بهما سورا ، وأمر الناس بالبناء ، فقاموا وشيدوا الدور والحمامات ومارستانا ومسجدا جامعا ومئذنة على شاكلة المآذن الموحدية من حيث الارتفاع والعرض وزخارف الجدران مزينة واجهاتهما بقطع من الزليج الأخضر والقصطلي والأزرق ، ولكنها تختلف عنها من حيث المتانة . فالأولى وصلت الينا كاملة باستثناء صومعة حسّان التي تهدم عزّيها من جرّاء الزلزال الذي حدث سنة 1755 م والثانية وصلت مخرّبة مع أنها متأخّرةعنها ، وذلك يرجع إلى أنها شيّدت على عجل . يقال أنه كان بأعلاها مفاتيح من الإبريز يقدّر ثمنها بسبعمائة دينار ولم تلبث المنصورة أن استبحرت عمارتها . وأمر « يوسف » بإدارة سور عليها لحمايتها من الطوارىء ، لازالت بقاياه ماثلةتعطينا فكرة عن مدى اتساعها . فهالت أسواقها وقصدها السكّان من كلّ فجّ وصوب ، فكثر الرّخاء ، وحلت فيها الحياة ، بينما كان « يوسف » مستجمعا لمطاولة الحصار والتضييق والأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات الى « تلمسان » .

لما طال الحصار « بتلمسان » استجاش « عثمان » بصهره « أبي زكريا » الحفصي صاحب «بجاية» ، فبعث «زكريا» إليه بالنجدة يقودها أخوه «يحي» ، ولكن ، ما كادت الحامية تبلغ غايتها حتى اعترضتها جيوش مرين بجبل الزاب ، فاستلحموا هنالك ، وكانت الدبرة على حامية « بجاية » ، ولوفرة ما تساقط من القتلى والجرحى سميت هذه الملحمة بمعركة مرسى الرؤوس ، فارتاح لها أمراء المملكة الحفصية الشرقية بتونس ، فاستنصروا بني مرين ، واستظهروا بهم على حصار «بجاية» . وكان ذلك سببا في تنكر سلطان بني زيان للأسرة المالكة الحفصية فرفض دعوتهم وأسقط ذكرهم من المنابر (1) .

فقد انحجر «عثمان» مدة خمس سنوات ، وقد صوره لنا التاريخ بطلا أبيّا ، فلا شك أنّه فكّر في الخروج في قومه إلى مبارزة العدوّ ، ولكنه أبى أن يرمي بشعبه

(1) عبد الرحمن الجلالي : تاريخ الجزائر العام جـ 2 ص : 77 .

إلى التهلكة نظرا لتفوق مرين عددا وعددا ، والنفس الشريفة كنفسه لا تقبل الحياة وراء الأسوار ، فلا نتعجب اذا من أن نراه يدوف السم في اللبن ويشربه فيموت موتا يريحه من معرّة العدوّ يوم السبت غرّة ذي القعدة سنة 703 هـ (1304 م) . فالحالة خطرة فلا ينفع إلاّ الوئام والوفاق بين اعضاء الأسرة الزيانية .

فموقف «أبي حمو بن عثمان» كان مشرّفا ويدلّ على وعي كبير ، فأكبّ من حينه على يد أخيه «أبي زيان» يقبّلها وأعطاه الصفقة بيمينه ، فاقتدى به المشيخية ، فانعقدت بيعة «أبي زيان» لوقته في هدوء واطمئنان .

اتصل خبر موت «عثمان» «بيوسف» المريني ، ويبدو أنه تفجّع له وعجب من صرامة قومه من بعده وصمودهم ، ولكن ، لم يمنعه ذلك من مواصلة الحصار إلى ثماني سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله نال فيها الشعب التلمساني من الجهد والجوع ما لم يسمع بمثله في البلدان . فأظهر هذا الشعب الأبي ثباتا لا نظير له . مات منه نحو العشرين ومائة ألف شخص واضطر من بقي إلى أكل الجيف والقطط والفئران وحتى أشلاء الموتى من الأناسي وإلى تخريب السقف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب بصفة باهظة . فكان ثمن مكيال القمح ، الذي يسمونه من الذهب العين ، وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا ، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف ، وثمن الرطل من لحم البغال والحمير الجيف ثمن المثقال ، ومن لحم الخيل عشرة دراهم ، وثمن الرّطل من جلد البقر ميتة أو مذكىء ثلاثون درهما ، وكانوا يشترون الهر الواحد بمثقال ونصف ، والكلب بمثله ، والفار بعشرة دراهم ، والحية بمثله ، والدجاجة بستة عشر درهما ، والبيضة بستة دراهم ، والعصافير كذلك ، والأوقية من الزيت أو السمن باثني عشر درهما ، ومن الشحم أو الفول بعشرين درهما ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك ، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ، ومن اللفت بخمسة عشر درهما ، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما ، والخيار بثلاثة أثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما ، والحبة من التين ومن الإجاص بدرهمين (1) .

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر الجزء السابع ـ ص : 196 ـ 197 .

فمن الطبيعي إذاً أن يستهلك الشعب أمواله ويجوع ويمرض ، ولولا لطف الله لأصابه الوباء فيذهب به عن آخره . بينما كانت حال التلمسانيين يرثى لها ، كانت المنصورة تزيد كل يوم اتساعا وازدهارا ، ويرحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق ، ويخطب الملوك سلم «يوسف بن يعقوب» روده ، وتفد عليه رسل الحفصيين من «تونس» «وبجاية» ورسل صاحب مصر والشام وهداياهم . فاعتز «يوسف» حينئذ اعتزازا لا كفاء له .

فإن صبر التلمسانيين قد نفد من ذلك الحصار وذلك التضييق ولم يبق لهم إلا الخروج والاستماتة ، لكن الله أنزل لطفه عليهم ونفس على مخنقهم بمهلك «يوسف» على يد خصي اعتمده في عقر غرفته وطعنه بخنجر قطع أمعاءه وهرب إلا أنه أدرك ومزقت أشلاؤه . وكان ذلك يوم الأربعاء 7 ذي القعدة سنة 706 هـ (10 ماي سنة 1307 م) . فتخلص حينئذ أهل زيان وأهل المدينة من عدوهم ، وأمكنهم أن يتنفسوا الصعداء ، ولله در أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

بـذا قضت الأيـام ما بين أهلهـا   مصـائب قـوم عنـد قوم فـوائد

يخبرنا «عبد الرحمن بن خلدون» نقلا عن شيخه «الآبلي» بحالة البلاط الزياني عندما ازدادت الضائقة استحكاما فيقول : «جلس السلطان «أبو زيان» صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة من زوايا قصره واستدعى «ابن حجاف» خازن الزرع ، فسأله : «كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة ؟» فقـال : «إنمـا بقي عولـة اليـوم وغـدا» فاستوصاه بكتمانها ، وبينهمـا في ذلك دخل عليه أخوه «أبو حمو» . فأخبره . فوجم لها ، وجلسوا سكوتا لا ينطقون ، وإذا بالخادم «دعد» قهر مانة القصر من وصائف بنت السلطان «أبي إسحاق» حظية أبيهم خرجت من القصر اليهم ، فوقفت وحيتهم تحيتها وقالت : «تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ، ما لنا وللبقاء ، وقد أحيط بكم واسف لالتهامكم عدوكم ولم يبق إلا فواق بكيئة لمصارعكم ؟ فأريحونا من معرة السبي وأريحوا فينا أنفسكم . وقربونا إلى مهالكنا .

فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم : » فالتفت «أبو حمو» إلى أخيه وكان من الشفقة بمكان وقال : «لقد صدقتك الخبر فما تنتظر فيهن ؟» .

فقال : «يا موسى ، أرجئني ثلاثا لعلّ الله يجعل بعد عسر يسرا . ولا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرّح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعال إليّ نخرج مع قومنا إلى عدوّنا فنستميت ويقضي الله ما شاء» ، فغضب له «أبو حمو» وأنكر الإرجاء في ذلك وقال : «انا نحن والله ، ونتربص المعرة بهن وبأنفسنا» وقام عنه مغضبا ، وجهش السلطان «أبو زيان» بالبكاء ، قال «ابن حجاف» : «وأنا بمكاني بين يديه واجم لا أملك متأخرا ولا متقدما إلى أن غلب عليه النوم . فما راعني إلاّ حارس الباب يشير إليّ أن أذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسدّة القصر . فلم أطلق أرجع جوابه إلا بالإشارة . وانتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعا . فأذنته واستدعاه ، فلما وقف بين يديه قال له : «ان يوسف بن يعقوب» هلك الساعة وأنا رسول حافده «أبي ثابت» اليكم (1) . »

ذلك كان الحاصل من ربط «عثمان» صلته بملوك بني الأحمر ومن موقفه من الثوار على دولة مرين ومن رفض شفاعة «يوسف» اليه لصالح مغراوة .

ونستخلص من هذه المحنة أن «عثمان» قد وقف في سلوكه السياسي إلى جميع كلمة قومه واكتساب قلوب الرعية . فإن الناس ذاقوا أنواعا من الآلام مدّة الحصار الطويل ومع ذلك لَمْ يَدُرْ بخلدهم يوما ما أن يثوروا على الملك أو يستسلموا إلى المرينيين إلى أن جاء الفرج . أما نساء بني عبد الواد فقد برهن على إخلاصهن وشجاعتهن وشرفهن بطلبهن من الملك أن يقربهن من مهالكهن خشية ما قد يحصل لهن من السبي والذلّ والعار إذا ما استشهد بعولهن عند ملاقاتهم بمرين .

وقد احتفظ «عثمان» بالوزراء والكتاب الذين كانوا في خدمة أبيه «يغمراسن». وقد حلّى بلاطه «بابن خميس» التلمساني سنة 681 ، كتب له ، ولكنه سرعان ما رغب عن الوظيف . وقد ورد «محمد العبدري» البلنسي تلمسان سنة 688 ، ويصفها لنا في رحلته فيقول : «تلمسان» مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين (2) بينهما سور . ولها جامع (3) عجيب مليح متّسع ، وبها أسواق

---

(1) ج 7 ـ ص : 199 .

(2) أقادير وتاقرارت .

(3) قد وصفناه فانظر إلى الصحيفة 38 من كتابنا هذا .

قائمة ، وأهلها ذوو ليانة ولا بأس بأخلاقهم . وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير . وبه مزارات كثيرة ، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه «أبي مدين» رحمه الله ورضي عنه ورزقنا بركته .

وعليه رباط مليح مخدوم مقصود ، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الأسوار وأصحّها . وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور قلّ أن يرى له نظير . وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متّسعة ، ومبانيها مرتفعة ، ولكنها مساكن بلا ساكن ، ومنازل بغير نازل ومعاهد اقفرت من معاهد تبكي عليها فتسكب الغمام الهمع وترثي لها فتندب الحمام الوقع ان نزل بها مستظيف قرنه بؤسا ، أو حل فيها ضعيف كسته من رداء الردى لبوسا . وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد وغاضت أنهاره ، فازدحم على التمادي .

فما ظنك بها وهي رسم عفاه الله ومنهل جفّ وشله (1) وذلك لما دهى الإقليم من الاضطرابات المتوالية الخطرة . فكان لحركات مرين وأحلافهم من توجين ومغراوة أثرها في جميع مرافق الحياة ، ومن الطبيعي أن يقع في الميدان العلمي ذلك الفتور الذي يتعجب منه العبدري ، فالازدهار لا يحصل إلاّ في جوّ من الاستقرار والاطمئنان . فكان شيخ «العبدري» «زين الدين أبو الحسن بن المنير» قد سأله عن الغرب . فذكر له قلة رغبة أهله في العلم . فأجابه الشيخ : «أما بلاد يكون فيها مثل (أبي اسحاق التنسي) فما خلي من العلم . فإن هذا الجواب لدليل على أن الجوّ الثقافي والفكري في «تلمسان» في ذلك العهد لم يكن كما يتصوّره «العبدري» .

قد قام «العبدري» «بتلمسان» مدّة منتظرا الركب ، فكان يأنس «بابن خميس» ويكثر من مجالسته ومفاوضته ، أعجبه ذهنه وحاله . فقد قال : «ما رأيت بمدينة «تلمسان» من ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا «أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس» . وهو فتيء السن مولده عام خمسين ،

(1) ص : ـ 9 ـ

وله عناية بالعلم مع قلة الراغب فيه والمعين عليه ، وحظ وافر من الأدب ، وطبع فاضل في قرض الشعر ، ولم يقر بفضله وعلوّ كعبه في الأدب «العبدري» فقط فقال فيه «ابن خلدون» : «كان لا يجارى في البلاغة والشعر» .

وجاء في عائد الصلة «لابن الخطيب» أنه طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الأوزان من المطوّل ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب» . وقد وصفه «ابن خاتمة» بالشّاعر المجيد ، وقال في كتابه «مزيد المرية على غيرها من البلاد الأندلسية» إنه نظم في الوزير «ابن الحكيم» بالأندلس القصائد التي حليت بها لبنات الآفاق ، فتنفست عنها صدور الرّفاق . وكان من فحول الشعراء وأعلام البلغاء يرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطار ذي القوادم الباسقة والخوافي . حافظا لأشعار العرب» . ومكانة «ابن خميس» في ميدان الأدب والعلم يثبتها «ابن خطاب» كاتب الدولة الزيانية يومئذ في هذه الأبيات :

رقّت حواشي طبعك ، ابن خميس	فهفا قريضك لي وهاج رسيسي
ولمثله يصبو الحليم ويمتري	ماء الشؤن به وسير العيس
لك في البلاغة ، والبلاغة بعض ما	تحويه من أثر ، محل رئيسي
نظم ونثر لا تبارى فيهما	عززت ذاك وذا بعلم الطوسي

نعم «لابن خميس» شعر كثير جميل ، جمعه القاضي «أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمي» في جزء سماه : الدر النفيس في شعر ابن خميس . وكان ناثرا على أنه بشعره كان أشهر منه بنثره . فقد مدح عاهل «تلمسان» ومدح الأسرة الزيانية . فأنصت اليه وهو ينشد قصيدته في «أبي زيان بن عثمان بن يغمراسن» .

أرق عيني بارق من أثال	كأنه في جنح ليلي ذبال
أثار شوقا في صميم الحشى	وعبرتي في صحن خدّي أسال
حكى فؤادي قلقا واشتغال	وجفن عيني أرقا وانهمال
جوانح تلفح نيرانها	وأدمع تنهل مثل العزال (1)
قولوا . وشاة الحبّ . ما شيتم	ما لذة الحبّ سوى أن يقال
اعذر لوامي ولا عذر لي	فزلة العالم ما أن تقال

قم نطرد الهمّ بمشمولة ... تقصّر الليل اذا الليل طال
وعاطها صفراء ذميّة ... تمنعها الذمة من أن تنال
كالمسك ريحا واللمى مطعما ... والتبر لونا والهوا في اعتدال
عتقها في الدنّ خمارها ... والبكر لا تعرف غير الحجال
لا تتقب المصباح لا واسقني ... على سني البرق وضوء الهلال
فالعيش والردى يقظة ... والمرء ما بينهما كالخيال
خذها على تنغيم مساهرها ... بين خوابيها وبين الدوال
في روضة باكر وسميها ... أحمل دارين (1) وأنسى أوال (2)
كأن فار المسك مفتوقة ... فيها اذا هبت صبا أو شمال
من كفّ ساجي الطرف ألحاظه ... مفوقات أبدا للنضال
من عاذري والكل لي عاذر ... من حسن الوجه قبيح الفعال
من خلبي الوعد كذابه ... ليان لا يصرف غير المطال
كأنه الدهر . وأي امرىء ... يبقى على الدهر اذا الدهر حال
أما تراني آخذا ناقصا ... عليه ما سوغني من محال
ولم أكن قط له عائبا ... كمثل ما عابته قبلي رجال
يأبى ثراء المال علمي وهل ... يجتمع الضدّان علم ومال
وتأنف الأرض مقامي بها ... حتى تهاداني ظهور الرحال
لولا «بنو زيان» ما لذّ لي العيش ... ولا هانت علي الليال
هم خوّفوا الدهر وهم خففوا ... على بني الدنيا خطاه الثقال
الغيث من عامرهم سيدا ... غمر رداء الحمد جمّ النوال
وكعبة للجود منصوبة ... يسعى اليها الناس جمّ في كل حال
خذها «أبا زيان» ، من شاعر ... متعذب النزعة عذب المقال
يلتفظ الألفاظ لفظة الندى ... وينظم اللالآ نظم اللآل
مجاريا مهيار في قوله ... «ما كنت لولا طي في الخيال»

---

(1) فرضة بالبحرين كان بها سوق للمسك .

(2) أوال : جزيرة كبيرة بالبحرين عندها مغاص اللؤلؤ .

ومطلع قصيدة «مهيار» التي عرضها «ابن خميس» هو قوله :

ما كنك لـولا طمعي في الخيـال أنشـد ليـلي بـين طـوال الليالي

فكان «ابن خميس» مولعا بالسفر ، فرغب عن الوظيف وغادر بلدته «تلمسان» سنة 693 هـ (1394 م) .

وامّ المغرب الأقصى ، وزار عواصمه ومدح رؤساء «سبتة» من بني العزفي إليك مطلع قصيدة غراء قالها في أحدهم فينبئك بحبه وشوقه إلى مسقط رأسه :

«تلمسان» لـو أن الزمـان بها يسخو منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ (1)

ومن «سبتة» أبحر قصد الديار الأندلسية ، فدخل «المرية» سنة 702 هـ (1303 م) . فنزل فيها في كنف القائد «أبي الحسن بن كماشة» من خدام الوزير «ابن الحكم» . فأكرم وفادته وآثره . وبها قال في مدح الوزير المذكور قصيدته التي مطلعهـا :

العـشـي تعيـا والنـوابـغ عـن شكـر أنعمـك السـوابغ

ووجه بها اليه من «المرية» .

وجال شاعرنا في الأندلس ، ومال إلى التصوف ، وجلس لإقراء العربية بحضرة غرناطة ، أواخر سنة 703 هـ (1304 م) . فطار بها صيته وضمّه الوزير «ابن الحكم» إلى مجلسه فقال فيه الشعر الكثير . من قصائده فيه هذه التي يذكر في مطلعها حنينه إلى بلده «تلمسان» ويشير إلى حصاره الشنيع من طرف مرين يقول «ابن خميس» :

سل الريـح ان لم تبعد السفن أنواء فعنـد صباهـا من تلمسان أنبـاء
وفي خفقـان البرق منـها إشارة إليك بما تنمـي إليـك وإيماء
تمـر الليـالي ليلـة بعـد ليلـة ولـلأذن إصـغـاء وللعين أكلاء
وإنّي لأصبـو للصبـا كلّما مرت وللنجم مهما كان للنجم اصباء
وأهـدي اليهـا كل يوم تحيـة وفي ردّ إهـداء التحية اهـداء
واستجلب النـوم الفرار ومضجعي قتـاد كما شاءت نواها وسلاء

لعل خيالا من لدنها يمر بي — فني مرّه بي من جوى الشوق إبراء
وكيف خلوص الطيف منها ودونها — عيون لها في كل طالعة راء
وإني لمشتاق اليها ومنبىء — ببعض اشتياقي لو تمكّن أنباء
وكم قائل تغنى غراما بحبها — وقد أخلفت منها ملاء واملاء (1)
لعشرة أعوام عليها تجرّمت — اذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء (2)
يطنب فيها عائثون وخرّب — ويرحل عنها قاطنون وأحياء (3)
كأن رماح الناهين لملكها — قداح وأموال المنازل أبداء (4)
فلا تبغين فيها مناخا لراكب — فقد قلصت منها ظلال وأفياء
ومن عجب أن طال سقمي ونزعها — وقسم أضناء علينا وأطناء (5)
وكم أرجعوا غيظا بهائم أرجأوا — فيكذب ارجاف ويصدق أرجاء
يرددها عيابها الدهر مثلما — يردد حرف الفاء في النطق فأفأ
فيا منزلا نال الردى منه ما انتهى — ترى هل لعمر الانس بعدك انساء
وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي — اذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لي زمان أرتجي فيه «عودة» — اليك ووجوه البشر أزهر وضياء

بينما يبدأ غيره قصيدته بالبكاء على الأطلال اقتداء بشعراء الجاهلية يستهل «ابن خميس» شعره بالبكاء على بلده «تلمسان» ، وكيف لا وهو مسقط رأسه ومربع صباه من جهة ومن جهة أخرى يعيش بالأندلس الساحرة بسمائها وهوائها ومياهها وبساتينها بحيث أنه أينما اتجه رأى ما يذكره ببلده فتجيش عيناه وتهيج أجشانه فيتفجّر خاطره كالبركان حنينا وأشواقا . فلا يغفل عن «تلمسان» يعطيها حقها في أكثر قصائده فأصخ إليه سمعك :

«تلمسان» جادتك السحاب الروائح — وأرست بواديك الرياح اللواقح (6)
وسحّ على ساحات باب جيادها — ملث يصافي تربها ويصافح

(1) أملاء ج ملأ وهم أشراف الناس .
(2) أهراء : هراة البرد .
(3) ذلك ما يفسر قول العبدري : مساكن تلمسان مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن والعلم قد درس رسمه : ص : 91 .
(4) أبداء ج بدء وهو النصيب من الجزور .
(5) أضناء جمع ضنى وهو المرض والأطناء جمع طن وهو الداء .
(6) اللواقح جمع لاقحة والمراد أنها تحمل لقاح النبات .

يطير فؤادي كلما لاح لامع ... وينهل دمعي كلما ناح صادح (1)
ففي كل شفر من جفوني مائح ... وفي كل شطر من فؤادي قادح
فما الماء إلاّ ما تسحُّ مدامعي ... ولا النار إلاّ ما تجن الجوانح (2)
خليلي لا طيف لعلوة طارق ... بليل ولا وجه لصحبي لائح
نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر ... لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح (3)
بحقكما كفّا الملام وسامحا ... فما الخلّ كل الخلّ إلاّ المسامح
ولا تعذلاني واعذراني فقلّما ... يرد عناني عن علبة ناصح
كتمت هواها ثم برح في الأسى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح
لساقية الرومي عندي مزية ... وإن رُغمت تلك الرواسي الروائح
فكم لي عليها من غدو وروحة ... تساعدني فيها المنى والمنائح
فطرف على تلك البساتين سارح ... وطرف إلى تلك الميادين جامح
تحار بها الأذهان وهي ثواقب ... وتهفو بها الأحلام وهي بوارح
ظبا مغانيها عواط عواطف ... وطير مجانيها شواد صوارح
تقتلهم فيها عيون نواظر ... وتبكيهم منهم عيون نواضح
على قرية العباد مني تحيّة ... كما فاح من مسك اللطيفة فائح
وجاء ثرى تاج المعارف ديمة ... تغص بها تلك الربى والأباطح
إليك «شعيب بن الحسين» قلوبنا ... نوازع . لكن الجسوم نوازح
سعيت فما قصرت عن نيل غاية ... فسعيك مشكور وتجرك رابح
نسيت وما أنسى الوريط ووقفة ... أنافح فيها روضة وأفاوح
مطلاً على ذاك الغدير وقد بدت ... لإنسان عيني من صفاه صفائح
أماؤك أم دمعي عشية صدفت ... علية فينا ما يقول المكاشح
لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا ... فإني سكران بحبك طافح
وإن كان مهري في تلاعك سائحا ... فذاك غزالي في عبابك سابح

---

(1) الصادم : المغني وأراد الطير .
(2) تجن الجوانح : تخفي وتكتم .
(3) جانح : جنح للغروب : مال .

وقصائد «ابن خميس» كثيرة نجتزي بما ذكرنا من أدبه . فلنترك القارىء اللبيب أن يطالع شعره في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري ، فلا شكّ أنه يجده ينمّ عن لوعة صادقة وحبّ عميق للوطن ومكانة كبيرة في البلاغة وشاعريّة فيّاضة . فقد وصلت سمعته إلى الشرق ، لما اجتمع «أبو اسحاق التنسي» بقاضي القضاة «تقيّ الدين بن دقيق العيد» قال القاضي : «كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله بن خميس ؟» ، وجعل يحلّيه بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله ، فبقي الشيخ «أبو اسحاق» متعجبا ، وقال : من يكون هذا الذي حلّيتموه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلدي ؟» فقال له هذا القائل :

عجبا لها ، أيذوق طعم وصالها   من ليس يأمل أن يمرّ ببالها ؟

فقال «أبو اسحاق» : «إن هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التي وصفتم ، إنما هو عندنا شاعر فقط» . فقال القاضي : «إنكم لم تنصفوه وإنه لحقيق بما وصفناه» . وأخبر «الآبلي» أن السلطان «أبا عنان» المريني وكان كثير العناية بشعره ، بأن «ابن دقيق» كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة تعلو موضع جلوسه للمطالعة وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها . وقال «الآبلي» أيضا : «لقد تعرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة قاضي القضاة «تقي الدين» لم يقرأها حتى قام إجلالا لها» . بقي «ابن خميس» بحاضرة «غرناطة» إلى أن وقع انقلاب حكومي ، **فقتل فيه الوزير «أبو عبد الله بن الحكيم» وشاعره «ابن خميس»** مستأهل شوال سنة ثمان وسبعمائة (14 آذار 1309 م) .

فلنسد القوسين ونرجع إلى العبدري البلنسي حيث يقول : «فمن لقيته من غير «ابن خميس» «بتلمسان» «أبو زكريا يحي بن عصام» وهو رجل متفلل حيبي متعفف له حظ من اللغة ويقرض من الشعر ما لا بأس به . وكان جارا «لأبي عبد الله بن خميس» فكان يجتمع به عنده كثيرا (1).

ولما قفل «العبدري» راجعا إلى المغرب مرّ «بتلمسان» حيث وجد قافلة تزيد على الألف فذهب معها .

وقد سبق أن قلنا إن «عثمان» قد وفّق في سلوكه السياسي ، ورغم الاضطرابات التي كانت تلمّ بالبلاد والتي كان لها آثرها في الميدان الاقتصادي فإن الجبايات كانت تؤدّى بانتظام ولولا ذلك لما قام الملك بشتى المشاريع العمرانية والاجتماعية . فقد أقام سنة 662 هـ (1296 م) مسجدا كذكرى للأمير «أبي عامر ابراهيم بن يغمراسن» .

فإنه يعرف الآن بمسجد سيدي أبي الحسن بن يخلف التنسي (شكل 20 ـ 21) مسجد صغير ، لكنه آية من آيات الفن المعماري . فبيت الصلاة تحتوي على ثلاث بلاطات وصفين من الأعمدة كلها أسطوانية تصل بعضها ببعض أقواس متجاوزة ، والجدران مغطاة بالزخارف النباتية المعروفة بالأرابك وبالفصوص المزيّنة بالنقوش . وعندما تصل إلى المحراب تعلوك قبة مقرنصة ، وقوس المحراب على هيئة حدوة الفرس تحيط به ثلاث حواش : الأولى على شكل دائرة مزينة بفصوص مستطيلة والثانية والثالثة على شكل مستطيل ولكنهما مزخرفتان بنقوش نباتية وخطية كوفية ، وتعلوها ثلاث شمسيات وهي عبارة عن نوافذ ذات أقواس منكسرة ونقوش على شكل وريدات متشابكة . ويحيط بهذا كله أفاريز خطية نسخية . أما تيجان الأعمدة فتحمل على جوانبها كتلة مزخرفة بأشكال نباتية . وللمسجد مئذنة قصيرة بالنسبة إلى منارة المسجد الجامع التي لا تبعد عنها ، إلا أنها جميلة ذات زخارف على جوانبها على شكل أقواس صغيرة متشابكة يتخللها قطع من الزليج خضراء وسمراء وبيضاء . فلا تقام فيه الصلاة في أيامنا هذه . فهو متحف لبهجته وتفوقه بالزخارف والنقوش في غاية الروعة والجمال . فيا حبذا لو بقي هذا المسجد على ما كان عليه في ريعان شبابه ! فقد شوّه ، ويا للأسف ، بما زيد فيه من نوافذ وغيرها ، ولكن بالرغم من ذلك ، فلا زال يمثل مجموعة فنيّة لا يمكن أن يؤتى بأحسن منها (1) .

نقرأ على قطعة من رخام لاصقة بأحد جدران المسجد قبالة الباب ما نصّه : بني سنة 696 هـ (97 ـ 1396 م) . فقد وقفوا عليه كراء عشرين دكّانا لاصقة

(1) جورج ووليام مارسي .

بالمسجد : ستة تفتح أبوابها شماليه وأربعة عشر خلف المحراب . كان يصنع بها الأسلحة قبل أن تتغير الأحوال فيحل بها الصياغون .

قد سبق أن قلنا إن «يوسف» المريني قتل في عقر بيته ، فتطاول حينئذ الأعياص من الأسرة المالكة منهم حفيده «أبو ثابت بن أبي عامر بن يوسف» ، وكانت له خؤلة في قبيلة بني ورتاجن . فتحيز اليهم ، واستجاش بهم . فاعصوصبوا عليه ، ولم يكتف بذلك فبعث رسولا لبني عبد الواد يخبرهم بموت «يوسف» ويستمدّهم الأسلحة ويطلب منهم أن يكونوا مفزعا له ومأمنا ، إن أخفق في مسعاه ، على أن يبعد عنهم عسكر بني مرين . فقبلوا . فنجح في أمره . فنزل في الحين لبني عبد الواد عن جميع الأعمال التي كان جده يوسف استولى عليها من بلادهم فقفل بنو مرين إلى ديارهم بالمغرب الأقصى . فالأمر الذي فكر فيه «أبو زيان» بالدرجة الأولى هو لمّ شتات ملكه . فنهض آخر ذي الحجة من سنة ست وسبعمائة وقصد بلاد مغراوة ، وانتقم ممن كان منهم في طاعة بني مرين . ومن هناك عرّج على السرسو وأقصى عنه عرب سويد والديالم ومن اليهم من بني يعقوب بن عامر الذين كانوا ساطوا عليه مدّة الحصار ، فلم ينفعهم الهروب أمامه ، فأوقع بهم وولى . ثم مرّ ببلاد توجين ، فنكّل بأعدائه وأرغم الجميع على الخضوع ، وكان يرأسهم يومئذ «محمد بن عطية الأصم» من بني عبد القوي . ولم يعد إلى قاعدته إلا بعد تسعة أشهر ، فتفرّغ حينئذ لردّ المياه إلى مجاريها ، فاطمأنت القلوب وازدهرت الحياة ، وأصلح كل ما تثلم من البلد من مباني ومزارع .

إلاّ أنه لم يطل جلوسه على عرش المملكة . فقد أصيب بمرض أودى بحياته أخريات شوال من سنة سبع وسبعمائة .

فقام بالأمر من بعد أخوه «أبو حمو» أخريات سنة سبع وسبعمائة . وكان «صارما يقظا حازما داهية قوي الشكيمة ، صعب العريكة ، شرح الأخلاق ومفرط في الذكاء والحدّة .» فهكذا يصفه لنا «عبد الرحمن بن خلدون» في تاريخه (1) .

---

(1) كتاب العبر جـ 7 ص : 203 .

فقد فكّر في ترتيب مراسم الملك وتهذيب قواعده ، فتأدّب أهل ملكه بآداب السلطان . يخبر «عبد الرحمن بن خلدون» بأنه سمع «عريف بن يحي» أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة يقول : «موسى بن عثمان» هو معلّم السياسة الملوكية لزناتة ، وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام منهم «موسى بن عثمان» ، فحدّ حدودها وهذّب مراسمها ، ولقن عند ذلك أقتاله وأنظاره منهم ، فتقبّلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه (2) .

لم ينس «أبو حمو» ما قاسته «تلمسان» أيّام الحصار ولهذا لم يستتب له الأمر حتى بادر من جهة إلى جمع ما أمكنه من المواد الغذائية والأسلحة وإذابة قدر كبير من الشحوم أفعم بها أحواضا عديدة ، وملأ الأهراء ملحا وفحما وحطبا وحفر مطامير كثيرة شحنها قمحا وشعيرا حتى يمكن «لتلمسان» أن تجابه وتغالب ، أي حصار قد يطرأ مرّة أخرى ولو كان بعيد الآماد . ومن جهة أخرى إلى إرسال وفد إلى «فاس» لعقد السلم مع «أبي ثابت» المريني فتوجت مساعي الوفد بالنجاح . فأمكنه بذلك أن يوليَ وجهه شطر الجهة الشّرقيّة ، ويضرب على يد من طغا وبغى ونبذ الطاعة .

فقصد بني توجين ومغراوة ، وشرد «محمد بن عطية الأصم» عن وانشريس «وراشد بن محمد» عن نواحي شلف ، وضم الإقليمين إلى رقعته ، واستعمل عليهما ، وقفل إلى «تلمسان» . ثم نهض مرة أخرى كانت سنة عشر وسبعمائة إلى توجين ، فشتت شمل ما بقي من أعقاب «محمد عبد القوي» ، وأخذ من سائر بطون بني توجين الرّهن على الطاعة والجباية ، واستعمل عليهم قائده «يوسف بن حيون الهواري» ، وأذن لن في اتخاذ الآلة ، وعقد لمولاه «مسامح» على بلاد مغراوة ، وأذن له كالسابق ، في اتخاذ الآلة ، وعقد «لمحمد بن عمه» «يوسف» على «مليانة» وأنزله فيها وعاد إلى قاعدته .

وكان حينئذ «ببرشك» «زيرم بن حماد» استبد بها منذ سنة أربع وسبعمائة . وقد سبق أن قلنا إن «أبا حمو» قد غلب على توجين ومغراوة. فخشي «زيرم» على نفسه ، فطلب الآمان على أن ينزل له على المدينة ، فبعث له صاحب الفتيا بدولته «أبا زيد عبد الرحمن بن محمد بن الإمام» . وكان هذا الإمام من أهل

(2) العمري .

«برشك» ، وكان «زيرم» قد قتله غيلة . فنهض «عبد الرحمن» بعد أن استأذن الملك أن يؤثر من «زيرم» بأبيه ، إنْ أمكنه ذلك . فأذن له . فلمّا حلّ «عبد الرحمن» «ببرشك» أقام بها أياما يغاديه وهو يعمل الحيلة في اغتياله . فنجح في أمره سنة ثمان وسبعمائة . وبموت «زيرم» دخلت المدينة في الرقعة الزيانية .

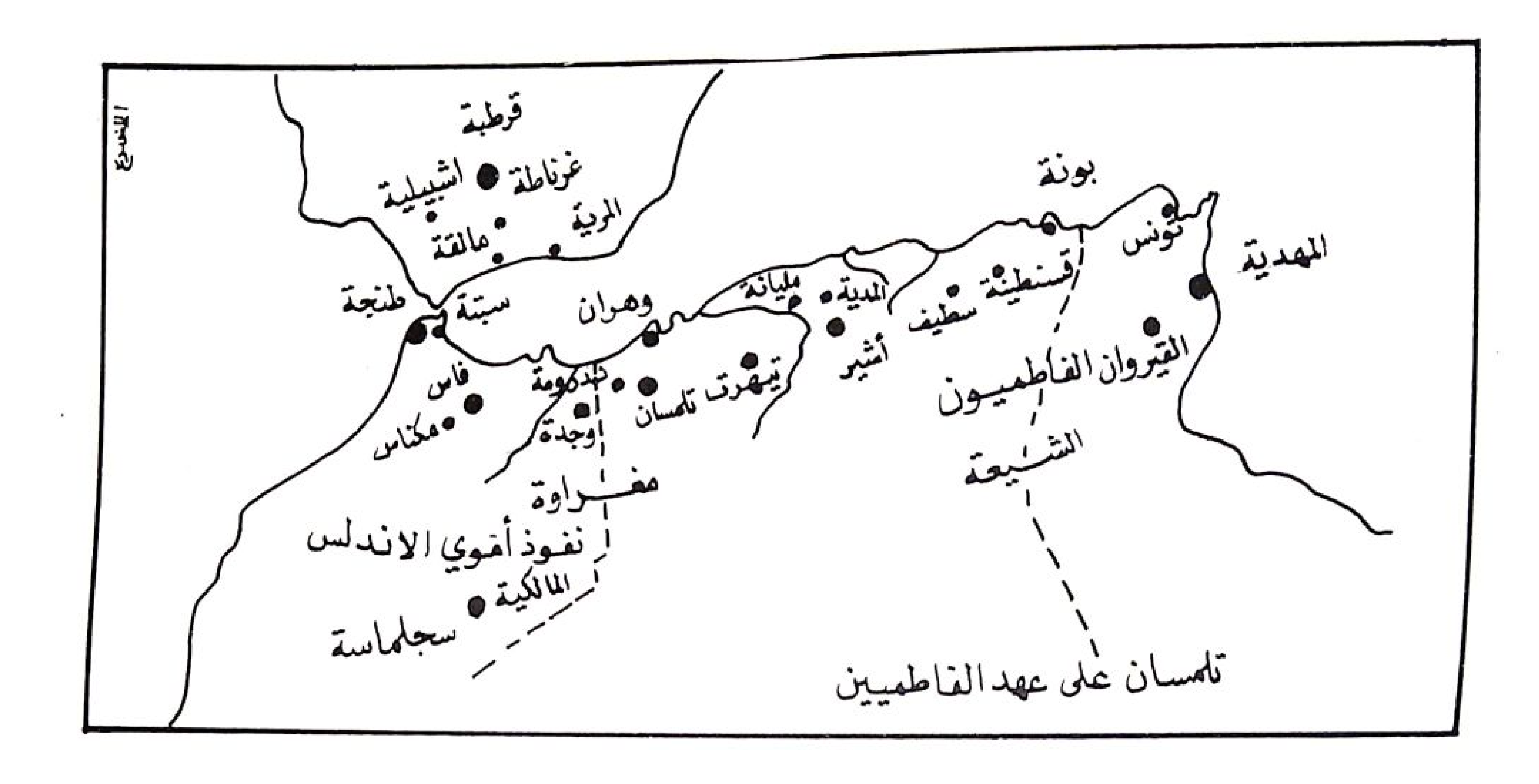
وكانت يومئذ مدينة الجزائر تحت تصرف «ابن علال» استقل بها عندما هلك «ابن أكمازير» والي «بجاية» من قبل الحفصيّين ، وبعث عن أهل الشوكة من مشيخة المدينة ليلة هلاك أميره ، وضرب أعناقهم وأصبح مناديا بالاستبداد ، واتخذ الآلة ، واستكثر من الرجال والرماة ، ونازلته عسكر «بجاية» مرارا ، فامتنع عليهم ، وغلب «مليكش» فنهض حينئذ «أبو حمو» سنة اثنتي عشرة إلى بلاد شلف ، فنزل بها . وقدم مولاه مسامحا في العساكر ، فدوخ متيجة ، وحاصر «الجزائر» وضيّق عليها حتى طلب «ابن علال» النزول على أن يؤمنّه مسامح فكان له ذلك ، وملك «أبو حمو» «الجزائر» وانتظمها في أعماله . وارتحل «ابن علال» رفقة «مسامح» ولحقوا جميعا بالسلطان بمكانه من شلف ، فرجع «أبو حمّو» إلى «تلمسان» «وابن علال» في ركابه . فأسكنه هنالك ، ووفى له بشرطه إلى أن هلك .

خلف «أبو الربيع» «أبا ثابت المريني» ، وقد خرج «عبد الحق بن عثمان» من أعياصه «بفاس» وبايع له «الحسن بن علي بن أبي الطلاق» شيخ ابن مرين ، وذهبوا إلى «تازة» ، فملكوها . فزحف اليهم «أبو الربيع» فبعثوا حينا وفدا إلى السلطان «أبي حمو» صريخا ، لكن «أبا الربيع» قد أعجلهم ، فلم ينفعهم إلاّ الهروب ، فلحقوا «بأبي حمو» ودعوه إلى المظاهرة على المغرب . وهلك في غضون ذلك «أبو الربيع » . واستقلّ «سعيد بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق» . فطلب من السلطان «أبي حمو» ، صاحب «تلمسان» ، أن يسلم له أولئك النازحين اليه . فأبى ، ولم يرض أن يخفر ذمته فيهم ، وأجازهم إلى العدوة ، فأغضى له «أبو سعيد» عنها ، ولكنه عقد له السلم .

نهوض أبي سعيد إلى تلمسان ـ ثم استراب «يعيش بن يعقوب بن عبد الحق» بمكانه عند أخيه السلطان «أبي سعيد» لما سعي عنده . فنزع إلى «تلمسان» ، وأجاره السلطان «أبو حمو» على أخيه .

فأحفظه ذلك وعزم على النهوض إلى تلمسان سنة أربعة عشر وسبعمائة . فعقد لابنه الأمير «أبي علي» ، وبعثه في مقدمته ، وسار هو في الساقة ، فمر «بوجدة» ، وكانت تابعة لبني زيان . فنازلها وضيّق عليها ، فامتنعت عليه ، فتخطاها إلى «تلمسان» . فنزل بساحتها . فأمر «أبو حمو» بسدّ الأبواب في وجه عساكره . فأخذوا يعيشون في الضواحي يحطمون ويتلفون كلّ ما وجدوا أمامهم . فخشي «أبو حمو» أن يستفحل الأمر ، فعمد إلى الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم ، ويخادعهم عن نصائح سلطانهم ، حتى اقتضى مراجعتهم في شأن جاره «يعيش بن يعقوب» وإدالته من أخته . ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان «أبي سعيد» . فامتلأ قلبه منها خشية واستراب بالخاصة والأولياء ونهض إلى المغرب على تعبئته (1) . فدخل «فاس» وشغل عن «تلمسان» بخروج ابنه عمر عليه .

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 7 ص : 210 .


قرطبة
غرناطة
اشبيلية
المرية
مالقة
طنجة
سبتة
وهران
مليانة
المدية
بونة
تونس
المهدية
قسنطينة
سطيف
أشير
تيهرت
تلمسان
ندرومة
وجدة
فاس
مكناس
القيروان
الفاطميون
الشيعة
مغراوة
نفوذ أموي الاندلس
المالكية
سجلماسة
تلمسان على عهد الفاطميين

الحركات بعد دفع الحصار وأخذ الرهن

كان بدو الإقليم من العرب وزناتة قد نبذوا الطاعة حيث علموا بحصار «تلمسان» من طرف «سعيد بن عثمان» المريني . فبمجرد ما تنفس «أبو حمو موسى» الصعداء استعمل ابنه «أبا تاشفين» على العاصمة . ونهض هوونزل بوادي نهل من شلف وابتنى هنالك قصره المسمى باسمه والذي تكونت حوله قرية تعرف اليوم «بعمي موسى» . وهذا الإسم ما هو إلا تحريف «حمو موسى» فعقد لكل من «مسعود» ابن عمه «أبي عامر برهوم» «ومحمد ابن عمه يوسف» قائد «مليانة» ومولاه «مسامح» على فيلق ، وأمرهم بغزو القبائل ، وحصار «بجاية» حيث فرّ رأس الثوار ، «راشد بن محمد المغراوي» . ثم عقد أيضا «لموسى بن علي الكردي» على فيلق . ضخم وسرّحه مع العرب الدواودة وزغبة على طريق الصحراء . فخرجوا وتوغّلوا في البلاد الشرقية حتى انتهوا إلى «بونة» . ثم انقلبوا من هنالك . ومرّوا في طريقهم «بقسنطينة» والتحقوا بالسلطان . وأقام «مسعود بن برهوم» محاصرا «بجاية» . وبنى قصرا بأصفوان ، إلاّ أنه وقع بين «محمد بن يوسف» «وموسى بن علي الكردي» منافرة حسدا ومنافسة .

فافترقا ، ولحقا بالسلطان ، كلّ على حدة . ولكن الكردي سابق «محمد بن يوسف» إلى العاهل ، وسعى به اليه . فعزل «أبو حمو» «محمد بن يوسف» عن «مليانة» . فوجم «محمد» ، وسأله أن يزور ابنه ، الأمير «أبا تاشفين» ، بالعاصمة وهو ابن أخته . فأذن له ، وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه . فلم يمتثل «أبو تاشفين» . فرجع «محمد» إلى معسكر السلطان . فتنكّر له هذا ، فخاف

وفرّ من المعسكر ، ولحق «بالمديّة» ونزل على «يوسف بن حسن بن عزيز» عاملها للسلطان من بني توجين . فأخذ له البيعة على قومه ومن اليهم من العرب وزحفوا جميعا إلى السلطان بمعسكره من نَهَل . فشمّر على ساعديه للقائهم ، لكنه لم يساعده الحظ لقطع دابرهم . فكانت عليه الدبرة ، ولحق «تلمسان» . ولم تمض إلاّ أيام قليلة حتى جيّش الجيوش ، وخرج إلى الثائرين ، وأرسل إلى ابن عمّه برهوم أن يقلع عن حصار «بجاية» ويلتحق به . فتضخم بذلك الجيش . فتوجّه إلى «مليانة» حيث لجأ «محمد بن يوسف» فافتتحها عنوة ، وجيء «بيوسف» أسيرا ، فعفا عنه ، وأطلقه . ثم زحف إلى «المدية» ، فملكها ، وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي ، وقفل راجعا إلى «تلمسان» . ثم خرج سنة سبع عشرة وسبعمائة ، واكتسح «المدية» واستعمل عليها «يوسف بن حسن» وأكثر من أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب وحتى قومه بني عبد الواد . وعاد إلى «تلمسان» ، ونزلهم بالقصبة وكانت شاسعة تسع المئات من الناس . ثم تمادى في خطّته هذه إلى أن ملأ القصبة بأبناء أهل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة . وأذن لهم في ابتناء المنازل والزواج . واختط لهم المساجد . فجمعوا لصلاة الجمعة . ونفقت بها الأسواق والصنائع[1] لازالت بالمشور مئذنة تمتاز بقطع الزليج ذي البريق المعدني المحفوفة بنقوش كتابية بخط نسخي على سطح نباتي . فلا شك أن هذا الزليج قد استورد من الأندلس حول أواخر القرن الرابع عشر لأن صنع ذلك النوع قد انقطع بالجزائر في ذلك العهد .

لجأ «أبو حمو» إلى الرهن اضطرارا ، فكان لا يخمد نار ثورة حتى تندلع ثورة جديدة ، فيعكر لها الجو السياسي والاجتماعي والاقتصادي . فبهذه الوسيلة أمكنه أن يرغم «أبو حمو» الناس من مشيخة وسوقة على الطاعة فيسود البلاد الهدوء والاستقرار . فمن كان له ولد أو أخ في قصبة الرهن فلا يخطر بباله أن يثور أو يستبدّ مرة أخرى . إلاّ أنه يبقى ساخطا على الملك في قرارة نفسه فلا يدعن إليه إلاّ مكرها منافقـا .

(1) ابن خلدون : ج7 ص : 215 .

مصــرع أبــي حمو الأول

كان «مسعود بن برهوم» فاطنا حاذقا داهية مخلصا في خدمة ابن عمه السلطان «أبي حمو» ، ولهذا نراه يدنيه ويؤثره على بنيه ويناجيه ويفاوضه في مهماته . وكان يتمنى أن يتحلّى ابنه «أبو تاشفين» بخصاله ، وكان كثيرا ما يقرعه ويوبّخه إرهاقا في اكتساب الخلال . فحقد عليه . وكان «أبو حمو» قد دفع اليه أترابا علوجا يقومون بخدمته . فكان منهم هلال المعروف بالقطلاني «ومسامح» المسمّى بالصغير «وفرج بن عبد الله» «وطافر» «ومهدي» «وعلي بن تاقرارت» «وفرج» الملقب بشقورة ، فكانوا يضغطون عليه ويغرونه بأبيه لاصطفاء «ابن أبي عامر» دونه .

ومما زاد الطين بلّة هو أن «مسعود بن أبي عامر» أبلى بلاء حسنا في لقاء «محمد بن يوسف» الخارج على «أبي حمو» . لما رجع من حصار «بجاية» شكره السلطان وعير ولده «أبا تاشفين عبد الرحمن» بمكان ابن عمه من النجابة والصرامة (1) ، وكان «أبو عامر ابراهيم بن يغمراسن» مثريا بما نال من جوائز الملوك في رفادته وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامه (2) ، ولما أحس بدنو أجله استوصى أخاه «عثمان» بولده فعصمهم واحتفظ بتراثهم حتى يؤنس منهم الرشد . وإلى متى يبقى «أبو حمو» حاجرا على ابن عمه ؟ فإنه رشد واشتهر لديه بالنجابة وسداد الرّأي وحسن التدبير ، فمن المعقول أن يدفع له تراث أبيه . ففعل «أبو حمو» . وفي الحين وصل خبر ذلك الى أذن «أبي تاشفين» وبطانته من العلوج . فظنوا أن السلطان قد جاد على ابن عمه بمال الدولة وعزوا فعله هذا إلى إيثارة بولاية العهد دون ابنه ، فوسوسوا لأبي تاشفين وحملوه على الفتك بابن عمه «مسعود» باعتقال «أبي حمو» ، فلم يرفض اقتراحهم . فأجمعوا على أن يكون ميعاد المؤامرة قائلة الهاجر حين انصراف السلطان من مجلسه يوم الأربعاء 23 جمادى الأولى سنة 718 هـ (22 حزيران 1318 م) .

وقد اجتمع اليه ذلك اليوم ، ببعض قاعات القصر ، الخاصة من البطانة فيهم «مسعود بن أبي عامر» وكان يلازمه ملازمة ظله والوزراء من بني الملاح الذين

(1) ابن خلدون : جـ 7 ص : 216 .

(2) نفس المصـدر ص : 217 .

استخلصهم لِحجابته (1) ، وكانوا من بيت كريم بقرطبة يحترفون في ذلك البلط سبكة الدنانير والدراهم . نزلوا «تلمسان» مع جالية «قرطبة» واحترفوا بحرفتهم ، وزادوا اليها الزراعة . وقد اتصلوا بخدمة «عثمان بن يغمراسن» وابنه «أبي زيان» ، وقربهم أيضا «أبو حمو» فولّى على حجابته منهم لأول عهد «محمد بن ميمون بن الملاح» ثم ابنه «محمد الأشقر» من بعده ، ثم ابنه «ابراهيم بن محمد» من بعدهما : وكان المجلس يضم أيضا «حماموش بن عبد الملك بن حنينة» ، ومن الموالي «معروفا الكبير بن أبي الفتوح بن عنتر» من ولد «نصر بن علي» أمير بني يزناتن من توجين ، وكان السلطان قد استوزره . فبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث في شؤون الدولة إذ هجم عليهم «أبو تاشفين» وبطانته فسلوا سيوفهم واعتوروا السلطان (2) فقتلوه . عند ذلك لاذ منهم «مسعود» ببعض زوايا الدار واستمكن من إغلاقها دونهم ، فلم ينفعه ذلك ، فكسروا الباب وتداولوه . فخرّ ميتا ، ثم استلحموا من كان هناك من بطانة السلطان بحيث لم يفلت إلاّ الأقل . فهلك بنو الملاح واستبيحت منازلهم . لمّا أشفى المتآمرون غلّتهم أغمدوا سيوفهم وأمروا هاتفا أن يعلن الناس في شوارع المدينة بأن «مسعودا» أغدر بالسلطان وأن «أبا تاشفين» ثار منه ، يريدون بذلك إيهامهم ، ولكن الشعب لم تخف عليه حقيقة الحادث . فهكذا تقوض عرش «أبي حمو» ضحية عقوق ولده «أبي تاشفين» وبغي سفهاء بطانته الذين يريدون أن يصلوا إلى المناصب العالية بالمكر والغدر وسفك الدماء .

خلال أبي حمو ومشاريعه

جلس «أبو حمو» الأول على عرش آبائه بالبيعة لا بالسيطرة ، وكان سياسيا محنكا . خرج عليه «محمد بن يوسف بن حسن بن عزيز» عامل «المدية» ، وعوض أن ينتقم منهما عفا عنهما ورد الثاني إلى ولايته . وحاول «أبو سعيد» المريني أن يستولي على «تلمسان» ، ولكن «أبا حمو» عرف كيف يصدّه وذلك باستعمال الحيلة ، كما سبق أن ذكرنا ، حتى نهض في الحين إلى المغرب على تعبئته .

(2) نفس المصدر ص : 217 .

(1) نفس المصدر ج 7 ص : 218 .

وكان «أبو حمو» يضرب بين زعماء القبائل ويأخذ من أبنائهم رهنا على الطاعة ، فاتسعت رقعة مملكته ودنت له جميع القبائل وكثرت بذلك الجبايات . وضرب السكة وكتبت بها العبارة التالية : «ما أقرب فرج الله» .

فاحتاج إلى من يقوم بضبط أموال الدولة . فعمد لذلك إلى شيخ العلوم العقلية «أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي» فتفادى الشيخ من هذا الوظيف ، ولكن السلطان ألحّ عليه ثم أكرهه . فهرب إلى المغرب الأقصى ، ودخل «فاس» في حدود سنة 710 هـ ، واختفى هناك عند شيخ التعاليم «خلوف المغيلي» اليهودي .

فأخذ عنه فنون التعاليم ومهر فيها . ثم دخل «مراكش» وكان بها الإمام «ابن البناء» فلازمه وتضلّع عليه في علم المعقول والتعاليم والحكمة . ثم قصد محمد بن ترميت» ، فقرأ عليه مدة . إلا أنه عاد إلى «فاس» ، فانثال عليه طلبة العلم . وبهذه العاصمة انتشر ذكره وذاع صيته وصار يدعى بعالم الدنيا . فإنه نشأ «بتلمسان» وأخذ عن علمائها : «أبي الحسن التنسي» وابني الإمام» وغيرهما ومال الى فنون الحكمة والتعاليم ، فبرع فيها ، واشتغل بالمعقولات ، فأصبح فيها واحد عصره ، وعكف الناس على تعلّمها . ولما استولى «يوسف أبو يعقوب» المريني على نواحي «تلمسان» استخدمه . فكره ذلك وغادر بلده قاصدا البقع المقدسة آخر القرن السابع الهجري . فدخل مصر ولقي فيها «ابن دقيق العيد» قاضي القضاة «وابن الرفعة التبريزي» وغيرهما من أهل المعقول ، ووصل إلى الشام والعراق ، ثم رجع بعد قضاء فريضة الحج إلى مسقط رأسه (1) .

وكان «أبو حمو» يسعى في أن تكون «تلمسان» كعبة قصّاد العلم مثل العواصم العربية ، وبلاطه يزخر بالعلماء والأدباء على غرار بلاط «فاس» وبلاط «تونس» .

ومن جملة العلماء الذين تباهى بهم البلاط الزياني «ابنا الإمام» «أبو زيد عبد الرحمن» «وأبو موسى عيسى» . فقد غادرا بلدتهما «برشك» إثر قتل أبيهما من «زيرم» ، وقد أشرنا إلى ذلك أعلاه وذهبا إلى «تونس» حيث أخذا العلم من تلاميذ «ابن زيتون» وتفقها عن أصحاب «أبي عبد الله بن شعيب الدكالي» .

---

(1) ابن خلدون : ج 7 ص : 825 .

وانقلبا إلى المغرب بحظ وافر من العلم ، وأقاما بالجزائر يبثان العلم لامتناع «برشك» عليهما من أجل ضرر «زيرم» المتغلب عليها .

بينما كان «المنصور» محاصرا «تلمسان» بثّ جيوشه في نواحيها . فغلبوا على كثير من أعمالها ، وملكوا على مغراوة وحاضرتها «مليانة» . فبعث على هذه المدينة «الحسن بن علي بن أبي الطلاق» من بني عسكر «وعلي بن محمد الخيري» من بني وارتجن ومعهما لضبط الجباية واستخلاص الأموال الكاتب «منديل بن محمد الكناني» . فارتحل ابنا الإمام يومئذ من «الجزائر» واحتلا «بمليانة» . فحليا بعين «منديل الكناني» ، فقرّبهما واصطفاهما واتخذهما لتعليم ولده «محمد» . ثم مات السلطان يوسف المريني سنة 675 وقام بالملك بعده حفيده «أبو ثابت» ، ووقع بين هذا «وأبي زيان» وأخيه «ابي حمو» العهد على الإفراج عن «تلمسان» . وردّ أعمال بني عبد الواد . فوفى بذلك وعاد إلى المغرب ـ وقد أشرنا إلى ذلك أعلاه ـ فارتحل حينئذ «ابن أبي الطلاق» «والخيري» «والكناني» من «مليانة» وعادوا هم الآخرون إلى المغرب ومروا «بتلمسان» ومع «الكناني» ابنا الإمام ، فأوصلهما إلى «أبي حمو» وأثنى عليهما ، وعرّفه بمقامهما في العلم . فاغتبط بهما «أبو حمو» وقرّب مجلسهما ، واختطّ لهما مدرسة ومسجدا ومنزلين سنة 710 هـ (1310 م) . فأقاما عنده على هدى أهل العلم وسننهم على حدّ تعبير «عبد الرحمن بن خلدون» ، وتسمّى هذه المجموعة من البناء باسمهما . فإن محراب المسجد يقع تحت قبة ذات فصوص . أما الخط الكوفي والزخارف النباتية فيه فإنها تشبه ما يوجد في مسجد سيدي أبي الحسن ومئذنته يبلغ ارتفاعها سبعة عشر مترا . ولازال بجميع جوانبها أثر نقوش شبيهة بنقوش صومعة سيدي أبي الحسن ، وقطع من الزليج ببضاء وسمراء وخضراء ، أما منزلا الأخوين فلم يبق لهما أثر .

ومن شاع ذكره عهدئذ في ميدان الفقه والأدب في الوسط التلمساني «أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية» القرشي التلمساني . فكان خطيبا

---

(1) ابن خلدون : جـ 7 ص : 822 .

(2) نفس المصدر ص : 219 .

(3) نفس المصدر ص : 822 .

أديبا . اتخذه «أبو زيان» ثم «أبو حمو» كاتبا في ديوان الرسائل ومستشارا في أمور «تلمسان» . وولّي قضاءها . له تأريخ «تلمسان» وشرح رسالة «لابن خميس الحجري» . وبقي يتمتع بسمعة حسنة إلى أن توفي سنة 736 هـ . وكان يعاصره «أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد اليحصوبي» المعروف بابن الباروني .

كان فقيها ، تعلّم «بتلمسان» ورحل إلى «فاس» حيث استكمل دراسته ، توفي في بلده «تلمسان» سنة 734 هـ .

جلوس أبي تاشفين على العرش

قد سبق أن قلنا إن «أبا حمو» قد قتل ، فوصل خبر ذلك إلى «موسى بن علي الكردي» قائد عساكر الدولة الزيانية . فبادر إلى مكان الحادث . فوجد «أبا تاشفين» واجما دهشا ، فنبّهه ، وأجلسه بمجلس أبيه ، وتولّى له عقد البيعة على قومه بني عبد الواد خاصة وعلى الناس عامة ، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة .

فأول ما فعل «أبو تاشفين» أن جمع سائر قرابته الذين كانوا «بتلمسان» وأجازهم إلى الأندلس (1) حتى لا يزاحمه أحد منهم ولا يقوم عليه . ثم قلّد حجابته مولاه «هلال» الذي استبدّ بالحلّ والعقد في أيامه الأولى . وعقد «ليحي بن موسى السنوسي» من صنائع دولتهم على شلف وسائر مغراوة ، وعقد «لمحمد بن سلامة بن علي» على عمله من بلاد «يدللتن» من توجين ، وعزل أخاه «سعدا» فلحق بالمغرب ، وعقد «لموسى بن علي الكردي» على قاصية الشرق وجعل له حصار «بجاية» .

لم يستتب «لأبي تاشفين» الأمر حتى ثار «محمد بن يوسف المغراوي» ، وتغلب على جبل «وانشريس» ونواحيه . فانضم اليه مغراوة وتوجين . فنهض اليهم «أبو تاشفين» سنة 719 هـ وجمع حشودا كثيرة من زناتة والعرب واقتحم عليهم الجبل . فانحجروا بحصن «توكال» . لكن السلطان حاصره ، ثم اقتحمه وشتت حشود «محمد بن يوسف» وألقى عليه القبض ، وأمر بقتله في الحال ، ونصب

(1) ابن خلدون : ج 7 ص : 219 .

رأسه بشرفات البلد . فعقد حينئذ «لعمر بن عثمان بن عطية» على جبل «وانشريس» وعمل بني عبد القوي ، «ولسعيد العربي» من مواليه على عمل «المدية» .

حدثت يومئذ اضطرابات في أعمال «قسنطينة» تضعضعت لها أركان الدولة الحفصية . فانتهز «أبو تاشفين» هذه الفرصة ليوسع رقعة مملكته من جهة ، ومن جهة أخرى ليثأر من الحفصيين الذين اكتسحوا «تلمسان» أيام «يغمراسن» . فضيق على تلك المدينة ، وأوقع بأهلها ، وحاصر «بجاية» مرتين . ثم تعددت الوقائع بين الحفصيين والزيانيين إلى أن كان النصر فيها لبني زيان سنة 729 هـ (1328 م) . فأقاموا عدة مراكز لاحتشاد الجنود أهمها «تامزيزدكت» بواد السومام أقام بها نحو ثلاثة آلاف ومئتي فارس وشحّنت بالميرة . وشيّدوا قصر بكر «ببجاية» كذكرى لهذا الانتصار الذي حصل عليه الجيش الزياني وقواده المهرة . وخلص يومئذ «أبو يحيى وأبو بكر الثاني» الحفصي إلى مدينة «عنابة» جريحا . ثم كان بعد ذلك استيلاء الجيوش الزيانية على «تونس» . إن هذا الانهزام الذي أصاب الدولة الحفصية قد أثر في سلطانها . فاستظهر «بأبي سعيد» المريني ملك «فاس» ، وتوسّل به لاسترجاع مملكته من بني عبد الواد . فاستشفع له هذا الملك في ذلك لدى «أبي تاشفين» ، فردّت شفاعته . ثم تولى «أبو الحسن» من بعد أبيه «أبي سعيد» وكان صهر بني حفص . فسألوه التوسط لدى ملك «تلمسان» . ففعل ، لكنه أخفق في وساطته . ولا تسأل عن شدة غضبه حينذاك . فأبى إلاّ أن ينتقم من «أبي تاشفين» ، وراح يستعدّ لغزوه خاضعا للنفس الأمّارة بالسّوء والطمّاحة إلى السيطرة على الغير والهيمنة على البلدان غير مبال بأبعاد هجوماته من قتل ويتم وفقر . وما هي إلاّ حتى ظهر الأسطول المريني بسواحل المغرب الأوسط ونهض أبو الحسن أواسط سنة 735 هـ (1335 م) قاصدا عدوه . فاجتل «ندرومة» «وهنين» ونزل «تاسلة» . إلاّ أنّ اضطرابات حدثت «بسجلماسة» ، فاضطر الجيش المغربي إلى أن يرجع إلى نواحي «تاوريرت» .

حصار «تلمسان» من طرف «أبي الحسن المريني» ومصرع «أبي تاشفين الأول»

ولما رجعت المياه إلى مجاريها «بسجلماسة» انكفأت القوات المرينية راجعة إلى المغرب الأوسط . ففتحت «وهران ومليانة وتنس والجزائر» . ثم نزل أبو

الحسن» «بالمنصورة» يوم 11 شوال (4 حزيران) من تلك السنة . فأحاطت العساكر «بتلمسان» مدة سنتين إلى أن كان ذلك اليوم المشؤوم على بني عبد الواد ، يوم الأربعاء 27 رمضان 737 هـ (29 آبريل 1337 م) حيث اقتحموا المدينة ودخلوها عنوة وعاثوا فيها . فانكشف عسكر البلد ورجعوا القهقرى ، وهلك عدد كبير منهم . فخرج حينئذ «أبو تاشفين» في حاشيته وأبنائه مدافعا بنفسه عن حرمه ولزم الجميع مكانهم في الدفاع إلى أن استشهدوا كلّهم في الميدان وبقي «أبو تاشفين» منفردا فألقي عليه القبض والسيف بيده ثم قتل يوم 30 رمضان (2 ماي) بأمر «عبد الرحمن» ابن السلطان «أبي الحسن» ، وقد تأسف هذا العاهل ، وكان يود أن يتشفى منه بالتوبيخ والتنكيل قبل أن يقتله لتجبره واعتدائه على أبيه . فكان ذلك الدور الأول من ملك بني عبد الواد ، وانتقلت سيادة «تلمسان» ، إلى سيادة مرين وطاعتها لوقت محدود . فعاشت المدينة ساعات رهيبة ذلك اليوم . فالرؤوس طائرة والأشلاء متراكمة والأيادي منطلقة على المنازل نهبا واكتساحا . فدخل السلطان أبو الحسن المسجد الجامع ، والحالة هذه ، واستدعى رؤوس الفتيا والشورى . فحضروا ، وتقدّم بين يديه ابنا الإمام «أبو زيد عبد الرّحمن» «وأبو موسى عيسى» ورفعا اليه أمر الناس وما نالهم من محن ومعرّة ، ووعظاه ، فأناب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك . فسكن الاضطراب وأقصر العيث . ولقطع دابر زناتة بالمغرب الأوسط ألحق عصبا من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة بجيشه لمتابعة زحفه نحو أفريقية وأقطع آخرى بلاد المغرب الأقصى أسهاما أدالهم بها من تراثهم بأعمال «تلمسان» .

خلال «أبي تاشفين الأول» ومشاريعه

ولد «أبو تاشفين» سنة 692 هـ (1293 م) وجلس على العرش يوم الخميس 23 جمادى الأولى 718 هـ (23 حزيران 1318) وذلك بالغدر وسفك الدماء . ويَبْدُو لنا ، في الأيام الأولى من حياته السياسية ، ضعيف الإرادة . فقد استبد عليه مولاه « هلال » . فكان هذا الرّجل من سبي النصارى القطلونيين ، أهداه السلطان ابن الأحمر إلى «عثمان بن يغمراسن» وصار إلى السلطان «أبي حمو» ، فأعطاه ولده «أبا تاشفين» ، ونشأ معه تربيا ، وكان مختصا عنده بالمداخلة والدالة ، يحرضه على أبيه ، فلا يحرك «أبو تاشفين» ساكنا فينقاد لرايه فيه .

ولما استولى «هلال» على آمره واختص بالحجابة خرج حاجًا ، ثم رجع إلى «تلمسان» ، فلم يجد مكانه من السلطان ، ولم يزل بعد ذلك إلى أن سخطه وقبض عليه سنة 729 هـ وأودعه السجن ، وبقي معتقلا إلى أن هلك من وجع أصابة قبيل فتح «تلمسان» من طرف «أبي الحسن» بأيام . فلا نتعجب من موقف أبي تاشفين منه . فإن ممارسته الحكم حنكته مع توالي الأيام وشحذت قرائحه ، فصار يقظا حذرا واعيا .

وكثيراً ما كانت المنافسة بين «هلال» «وموسى بن علي الكردي» . وأصل هذا القائد من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق . دخل «تلمسان» أيام كان «يوسف بن عبد الحق» محاصرا لها ، فرحّب به «عثمان بن يغمراسن» . ولما هلك «عثمان» أدناه «أبو حمو» وزاده إصطناعا ومداخلة وعقد له العساكر لمحاربة الأعداء و لاة الوزارة . ولما هلك «أبو حمو» وقام بأمره «أبو تاشفين» ، وكان هو الذي ولّى له البيعة على النّاس ، قلد له الحجابة عوض مولاه «هلال» . فلم يزل مقيما لرسلها إلى يوم اقتحم السلطان «أبوالحسن» «تلمسان» فهلك مع «أبي تاشفين» وبنيه في ساحة قصرهم

ومن رجال دولة «أبي تاشفين» «يحي بن موسى» . فأصله من بني اسنوس أحد بطون كومية . اتصلوا ببني يغمراسن فاصطنعوهم ، ونشأ «يحي بن موسى» في خدمة «عثمان» وبنيه . ولما كان الحصار الطويل كلفه «أبو حمو» بالطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار وقسم القوت على المقاتلة بالمقدار وضبط الأموال والتقدّم في خدمة القتال . ولما خرجوا من الحصار أوفوا به على رتب الاصطناع والتنويه (1) . ولما ملك «أبو تاشفين» استعمله بوادي شلف مستبدًا بها وأذن له في اتخاذ الآلة . إلا أنه عزله «بموسى بن علي» ، وكانت «المدية» «وتنس» من عمله ، فأغضى له «موسى» عنهما ، فلما نزل «أبو الحسن» «تلمسان» قدم عليه بمخيمه ، فاختصّه بإقباله ورفع مجلسه من بساطه . ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح «تلمسان» .

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج ط . ص : 234 .

قد اكتسحت جيوش «أبي تاشفين» شرق الجزائر كلّه ووصلت إلى عاصمة بني حفص . فوسعت حينئذ رقعة مملكته . فبالطبع أن ترد على الخزينة الأموال الكثيرة التي تجمع من الضرائب المفروضة على الجميع ومن الغنائم الحربية . وهذه الأموال توزّع في مصالح الحكومة وجوائز الأعيان إجلالا لهم والأدباء وعطاء الموظفين والجند والبناء والتشييد في العاصمة والمدن الأخرى .

وكان «أبو تاشفين» ينافس الحفصيين والمرينيين في تقريب العلماء والأدباء من مجلسه . كان الأخوان ، ابنا الإمام ، في كفالة أبيه «أبي حمو الأول» ، ولما توفي قرّبهما إليه ، فلازماه مدة سنتين . ثم غادراه وقصدا المشرق سنة 720 هـ (1320 م) . فلقيا هناك أكابر العلماء : «علاءالدين القوني» «والجلالي القزويني» صاحب التلخيص في البلاغة واجتمعا بشيخ الإسلام «تقي الدين بن تيمية» فناظراه وظهرا عليه . وعاد الأخوان من المشرق وقد اشتهرا بالتبحّر في العلم حتى صارا يعرفان بالإمامة والاجتهاد . فقصدهما الطلاب من كل مكان ، فتخرج عليهما أعلام منهم «الشريف التلمساني» «والخطيب بن مرزوق» والإمام «المقري» جدّ صاحب نفح الطيب «وأبو عثمان العقباني» «وأبو عبد الله اليحصبي» «والآبلي» «وأبو عبد الله محمد الندرومي» وغيرهم .

فقد أتانا المترجمون بأسماء رجال من أهل الأدب والعلم عاشوا «بتلمسان» في عهد «أبي تاشفين» . كان «أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة» الشاعر الأديب الناثر . ولد «بتلمسان» وتخرج على علمائها وأفاد طلابها ، إلا أنه رحل إلى الحجاز صحبة أبويه وإخوته . ودخل «دمشق» ثم انتقل إلى «القاهرة» . واشتغل بالأدب وتبوأ المكان العالي فيه . فأصاب يومئذ «مصر» الطاعون . فكان من ضحاياه . فقد أثنى عليه «ابن حجر» بقوله : «إنه كان كثير المروءة جمّ الفضل كثير الاستظهار» . وقد حلاه «ابن الأحمر» صاحب نثير فرائد الجمان : (هو المستبحر في القريض والتصنيف، والمقرّط آذان العلوم ومشنفها بأحسن التشنيف المستحوذ ببراعته على صدور القوافي والأعجاز ، المستكثر في الشعر المدوّن ببدائع الطلاوة ، والمستطيل فيه بالرقة والحلاوة وشعره بدائع جميعه أثيرة ، وفرائده لظهور الفوائد مثيرة ، وطريقة

التصوف هو ... وفارسها ، وميادين أبطال الكلام هو ممارسها . (1) فقد عارض جميع قصائد «ابن الفارض» بقصائد نبوية . وخلف أكثر من ثمانين مصنفا ذكرها صاحب معجم أعلام الجزائر (2) في الأدب والعلم .

ومن أعيان فقهاء المالكية كان «محمد بن يحي بن علي النجار» . فإنه ولد «بتلمسان» ، وقرأ فيها . ومن شيوخه «الآبلي» الذي قال فيه : (ما قرأ عليّ أحد حتى قلت له لم يبق عندي ما أقول لك غير ابن النجار) . وقد أعجب «المقري» بذكائه حيث قال : (لم يكن ابن النجار» بصيرا بالفقه وإنما عنده ذكاء زائد) . ارتحل «ابن النجار» إلى المغرب .فلقي «بسبتة» إمام التعاليم «أبا عبد الله محمد بن هلال» شارح المجسطي في الهيئة . وأخذ «بمراكش» عن الإمام أبي العباس بن البناء ، وكان إماما في علوم النجامة وأحكامها وما يتعلق بها . ورجع إلى «تلمسان» بعلم كثير ، واستخلصته الدولة . مات وترك فتاوي نقلها الونشريسي .

فإن المدرسة التي بناها «أبو حمو» لابني الإمام صارت لا تكفي لتضاخم عدد الطلبة وتهافتهم على العلم والأدب . فلم ير أبو تاشفين بدا من أن يشيد مدرسة أخرى . فأحضر الصناع وأقاموا معهدا لم ير مثله من قبل إزاء المسجد الجامع . قال «المقري» : رأيت مكتوبا بأعلى دائرة مجرى الماء بمدرسة «تلمسان» (3) التي بناها أمير المسلمين «ابن تاشفين الزياني» (بل أبو تاشفين الزياني) وهي من بدائع الدنيا هذه الأبيات .

أنظر بعينك مهجتي وسنائي	وبديع إتقاني وحسن بنائي
وبديع شكلي ، واعتبر فيما ترى	من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه	صاف كذوب الفضة البيضاء
قد حف بي أزهار وشي نمقت	فغدت كمثل الروض غبّ سماء

وعيّن بها مدرّسين مثل «أبي موسى المشدالي» ودرّ عليهم وعلى من انتال عليهم من الطلبة وذلك لينتشر العلم والأدب في عاصمته التي كان يريد أن تضاهي

---

(1) نثير فرائده الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر . ص : 228 .
(2) ص : 47 .

«تونس» «وفاس» «وغرناطة» ، وذلك لا في الميدان الثقافي فحسب بل في الفن المعماري أيضا . فلا يظهر عز الدولة وعظمة سلطانها إلاّ بالثقافة والحضارة . «وأبو تاشفين» كان مولعا بالتعمير والاختراع ، وبصيرا بالتشكيل . فقد فاق أباه في هذا المضمار . فاستدعى الصناع من الأندلس ، وان كانت «تلمسان» لا تخلو منهم . فبعث إليه «أبو الوليد بن الأحمر» بمهرة البنائيين . وكان له الآلاف من الأسرى الأوربيين نتيجة الحروب التي كان يشنها الأسطول الزياني في البحر المتوسّط . فمنهم النجارون والزلاجون (شكل 23) والزواقون وغيرهم . فابتنى قصورا منها دار الملك ودار السرور وأبو فهر ، ولعله ضاهى بأبي فهر أبا فهر «المستنصر» الحفصي «بتونس» . فحلّى أحدها بشجرة أحكمت يد الهندسة وضعها من الفضة يقع على غصونها طيور فضية أيضا مختلفة الأشكال ويعلوها صقر يذاع من أفواهها تغاريد . فإن نفخ في أصل الشجرة صوتت تلك الطيور بأصوات كأنك بها طيور حقيقية ، وعندما يصل الهواء إلى الصقر صوت فتنقطع لصوته جميع الأصوات (1) . إلا أن هذه القصور تلاشت وانعدمت أتت عليها يد الزمان واليد الآثمة الاستعمارية حتى لا تراها الأجيال المقبلة فلا يحي وعيهم القومي ولا يحاولوا استرجاع قوميتهم ومن ثمّ وطنهم . فلم يبق من هذه المنجزات التى قام بها هذا السلطان إلاّ الصهريج البالغ طوله 150 مترا وعرضه 140 مترا في عمق 3 أمتار . وكان إنشاؤه ، حوالي (735 هـ / 1313 ـ 1335 م) وكان يستعمل هذا الحوض للسباق بين الزوارق والقوارب في أيام الأعياد والاحتفالات الملكية وللسقي في الأيام العادية .

ومن آثار «أبي تاشفين» أيضا إحاطة مدينة «الجزائر» بسور وإنشاء قصبة سيّدي رمضان جوار الجامع المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان ، وقد أمر بتوسيع مسجد الجزائر الجامع . ذكر الشيخ «أبو رأس» أن هذا الجامع هو أيضا من مؤسسات

---

(1) أكبر دليل على ذلك جواب أبي تاشفين على رسالة وردت عليه من طرف السلطان «جاقما الثاني» يطلب فيها سراح الأسرى الأرغونيين . يقول أبو تاشفين : «أما ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكن أن يكون .... أكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصناعة . ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم وقضينا أربكم . وأما تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يخلي المواضع ويعطل ما يحتاج إليه من أنواع الصناع» .

بني زيان وأن مؤسسه «أبو تاشفين» . فالواقع أن «أبا تاشفين» لم يؤسسه بل وسعه ورممه فقط فهو من آثار بني زيري ، إذ نعلم أن «بلقين بن زيري بن مناد» هو الذي جدّد بناء جزائر بني مزغنة سنة 362 هـ (973 م) بأمر من أبيه . والعادة أن ما يبنى بالدرجة الأولى حين يشرع في تأسيس مدينة ما هو المسجد ، لكن المئذنة الزيانية أمر ببنائها «أبو تاشفين» كما أمر بإدخال إصلاحات على المنار الذي شيده جده يغمراسن «بأقادير» ، وقد تشهد بذلك كتابة في أسفله .

وقد اختطّ البساتين الغناء الشاسعة الموازية لقصوره على غرار بساتين الموحدين ، بمراكش وبني مرين بفاس وجنة العريف بغرناطة . فأبى إلاّ أن يظهر عز الدولة وعظمة سلطانها ، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالثقافة والحضارة .

وحب أبي تاشفين للعلوم وشغفه بالفنون لم يشغلاه عن الاهتمام بمصالح أخرى من شأنها أن تعود على البلاد بالخير ، فكان يشجع التجارة بما في وسعه من طاقة . فهي عنده مصدر لا ينضب لهذا الخير . وبقدر ما تروج التجارة بقدر ذلك يتوّسع نطاق الصناعة كمية وكيفية . يعمل الصناع ما في وسعهم للحصول على إنتاج كمية عظيمة من السلع . ومما يعبر عن نشاطهم ذلك الضجيج الذائع من معامل الصفارين والحدادين والنجارين والسلاحيين ، والآخذ عن المارين سمعهم ، ويحاولون الاختراع والإبداع حتى يكون الإقبال عليها من طرف التجار الذين كانوا يتقاطرون على «تلمسان» من القطرين الشقيقين ومن الأندلس وبلاد السود ومن جنوة وفينيسيا وبيزا وكطلونيا وما يورقة وفرنسا . وموعد هؤلاء التجار القيسرية وهي عبارة عن سوق واسعة الأطراف تحتوي ، زيادة على الدكاكين والمخازن ، المساكن والأفران ، والحمامات وكنيسة يقوم بها النصارى بشعائر دينهم ، وأديارا يقيم بها المبشرون ، تخفق بأعلى مدخل كل هذه البنايات راية تمثل وطن أصحابها ويحرسونها بالتداول . وكان بسوق البزازين ذراع طولها 48 سنتمترا . فأمر «أبو تاشفين» بإبدالها بأخرى تقصر (شكل 22) عنها بسنتيمتر واحد وذلك وفقا لطول ذراع أولئك الأوربيين الذين كانوا يوردون الأثوبة القطنية والحريرية المختلفة حتى لا يغبنوا في تجارتهم . وقد عثر على هذه الذراع التي كانت

---

(1) كانت هذه المعامل مبثوثة في الشارع الذي يسمى الآن شارع خلدون .

مقياسا وذلك بالمكان الذي كانت تقع فيه تلك القيسرية قبل أن تستحيل إلى ثكنة للجند الفرنسي في عهد الاحتلال . ووضع «أبو تاشفين» صاعا يكون أساساً لمكايل السوق يعرف بالتشفيني ، وعرف بعد ذلك باسم الوهراني أخذ به الناس إلى عهد قاسم العقباني قاضي «تلمسان» المتوفي سنة 854 هـ .

ولكثرة اعتناء السلطان بأمر التجارة والصناعة عين محتسبا كفئا يشرف على الأسواق ويضرب على يد كل من يحاول الغش والتدليس والتطفيف ، ويساعده على القيام بمهمته أمناء من بين حذاق الصنعة يراقبون سير العمل ويدافعون عن حقوق الأجراء ويحافظون على العلاقات الودية بين أرباب الحرف وعمالهم وأعوانهم ويحلّون ما شكّل من القضايا بين الباعة والشراة .

والزراعة كانت هي الأخرى مزدهرة . فأصحابها دائبون على نشاطهم في البساتين والحقول والأرياف . فلا يحدثنا التاريخ عن مجاعة أو قحط حدث في عهد «أبي تاشفين» في المغرب الأوسط .

وقصارى القول إن «أبا تاشفين» كان يهتم كل الاهتمام بالحركة الاقتصادية والثقافية لأنه كان يعلم ما لها من التأثير على الحياة السياسية والاجتماعية والاخلاقية . فدفع بها إلى الأمام بحيث أن المملكة قد عمّها الرخاء وسادها الاستقرار إلى أن اكتسحها «أبو الحسن» المريني بجيوشه الجرارة . لكن هناك شيئا يدعو إلى التأمل هو أن المؤرخين قد سكتوا عن ذكر اعتناء هذا السلطان بأمر صحة رعيته . فإنه حارب الجهل وحارب الفقر وزيّن المدينة بشتّى المؤسّسات فوسعت وصار لها ثلاثة عشر بابا (1) ، فكيف لم يحاول مقاومة الأمراض بإنشائه ، على الأقل ، مارستانا واحدا بالعاصمة مع أنها لم تكن تخلو من الأطباء ؟ فإن صح أنه لم يكن يفكر في ذلك فلنقنع بما قام به من المنجزات داخل قاعدته وخارجها ، فإنها تكفر عن هفوته هذه وتنبىء بشخصية جريئة بالنسبة إلى ذلك العهد .

مشاريع أبي الحسن المريني بتلمسان

قد سبق أن قلنا إنّ «أبا تاشفين» الأول خلف قصورا شتى لم يشيّد أحسن منها بأفريقية الشمالية ومع ذلك زهد فيها «أبو الحسن» المريني وآثر أن يستقر

(1) أبو الفداء .

بالمنصورة ، وكان التلمسانيون قد خرّبوها تشفيا من بني مرين ، فأمر بتجديد بنائها فبدأ الصناع بتشييد قصر للملك أطلقوا عليه اسم قصر الفتح وذلك عام 745 هـ كما هو مسجل على تاج عمود عثر عليه هناك مؤخرا . ولم يبق من هذا القصر اليوم إلاّ خرابات يلاحظ منها آثار حوضين متقابلين طول أحدهما خمسة وثلاثون مترا وعرضه تسعة أمتار مفروشة أرضه وجوانبه بالزليج ومحاط بأعمدة ، وأثر شوارع كانت تخترق المدينة طولا وعرضا مارة بوسطها وتجمع بين أبواب السور الرئيسية المتقابلة . ثم التفتوا إلى المسجد فرمّموه وزادوا فيه . فكان مستطيل الشكل يقدر طوله وعرضه بخمسة وثمانين مترا على ستين . ويتألف من بيت الصلاة ، ومن حصن مربع قياس كل من جهاته ثلاثون مترا ، وتتوسطه فوارة على اليمين والشمال مجنبتان تتألف كل منهما من ثلاث بلاطات تعتبر امتدادا لبلاطات بيت الصلاة ، ويكتنفه رواق خلفه واجهة المسجد . وبيت الصلاة يشتمل على 13 بلاطة و 9 أساكب ، وأمام المحراب فراغ كانت تعلوه قبة كما هي العادة في جميع المساجد . فإنه يذكرنا في مجمله بمسجد حسان بالرباط الذي هو الآخر شيده يعقوب المنصور الموحدي لجيشه . وفناء المسجد كان مبلطا بالرخام المجزع قلع وبيع ، وتتوسّطه فوارة من الرخام الأخضر قد أخذ منها النصارى قطعا سخروها في صنع الحوض العمادي بكنيسة «سان ميشال» . وتيجان أعمدته تدلنا على أنه كان أجمل من المسجد الذي شيده عهدئذ «أبو الحسن» برابطة العباد على أن الرحّالين اتفقوا والمتجولين أجمعوا على أنهم لم يروا له ثانيا (1) . تصل إلى مدخل مسجد العباد الذي تعلوه قبة مقرنصة بواسطة مدرج (شكل 23) ، وتلجُهُ فتجد صحنا مربعا يتوسطه حوض يصب فيه ماء الفوارة . وبيت الصلاة مستطيل ذو خمس بلاطات وثلاثة أساكيب . والمحراب (شكل 24) تجويف في الحائط تعلوه قبة صغيرة مقرنصة . والجدران مغطاة بالزخارف الهندسية . وأما المنار (شكل 25) فهو جميل وأقصر من منار المنصورة . يصف لنا «ابن مرزوق» هذا المسجد في مسنده فيقول : «أما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفة «أبي مدين شعيب بن الحسن» . فهو الذي عز مثاله ، واتصف بالحسن والوثاقة أشكاله أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما .

---

(1) أبو الحسن علي المريني .

وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح «أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر مرزوق» وعلى يدي . اشتمل على الوضع الغريب وهو أن سقفه كله أشكال منظبطة بخواتم وصناعات نجارة ، كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة ، فلا يختلع في النقش شائبة ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منفرشة ، وهي كلها مبنية إحكاما بالآجر والقصّة . واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس ، مذهّب ذلك كله .. وأما الباب الجوفي الذي يتفتح على المدرج الذي يتزل فيه إلى قبر الشيخ وإلى الشارع وهو باب النحاس المشتمل على مصراعين كل مصراع منهما بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل ، وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة . فهو من غريب ما يتحدث به السفار ، أخذ على صناعة المصراعين الصفارون نحو سبعمائة دينار ذهبا عينيا . هكذا وجدته بخطي عدا ثمن النحاس والحديد والخشب والأصبغة ، وعلى مدرجه قبة من عمل المقرنص غريبة الشكل قليلة المثل . وصومعته كذلك في غاية من الحسن والإتقان ، كل جهة من جهاتها الأربعة تخالف الأخرى في النوع والإحكام . وذهّبت تفافيح جامورها بثلاث مائة وسبعين دينارا ذهبا » .

وإن ننس فلا ننس تلك المجموعة الفنية الموازية لهذا المسجد . فإنها تحتوي على قصر يدعى دار الفتح أقامه «أبو الحسن» . فساحاته وأروقته وغرفه وبركته تذكرنا بقصر الحمراء ، ثم على مدرسة أعدها للطلاب فالتحقوا بها وكانوا تفرقوا شذر مدر حين عاث في المدينة عسكر بني مرين ، ووجدوا ما يشفي غليلهم من العلوم المختلفة .

فكان «أبو الحسن» يستكثر من أهل العلم في دولته ويجري لهم الأرزاق ويعمر بهم مجلسه ومدارسه . استدعى ابني الإمام وأدنى مجلسهما ورفع محلهما عن أهل طبقتهما وأجمل مجلسه بهما واختصهما بالشورى في بلدهما . توفي أبو زيد في شهر رمضان سنة 741 هـ (آذار 1341 م) ودفن في بلدته «برشك» ، وبقي «أبو موسى» عزيز الجانب قريب المجلس مكرما لدى السلطان «أبي الحسن» إلى أن استولى على «تونس» فسأله «عيسى» العودة إلى بلده ، فسرحه . فأقام بها يسيرا وهلك بالطاعون سنة 749 هـ .

وقد ذكر «عيسى» «لأبي الحسن» مدة إقامته «بتلمسان» الشيخ «الآبلي» بأطيب الذكر ووصفه بالتقدم والبراعة في العلوم . وكان «أبو الحسن» يعتني بجمع العلماء كما سبق أن قلنا ، فاستدعاه من «فاس» وأجمل مجلسه به ونظمه في طبقة العلماء . فعكف على التدريس والتعليم ولازمه وحضر معه وقعة «القيروان» . في هذه المدة اتصل أهل «تونس» بالشيخ وانتفعوا به . ومما يؤكد حبّ «أبي الحسن» للعلم وإيثار أهله أنه طلب من «أبي عيسى» أن يختار له من أصحابه ما ينظمه في فقهاء المجلس . فأشار عليه بالقاضي «أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور» من أعمال «ندرومة» . كان مبرزا في الفقه على مذهب الإمام مالك . تضلع منه على الأخوين «أبي زيد» «وأبي موسى» ابني الإمام ، وكان من جلّة أصحابهما . فأدناه «أبو الحسن» وقرب مجلسه وولاه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملته إلى أن هلك بالطاعون «بتونس» سنة تسع وأربعين وسبعمائة. وكان قد خلف أخاه «بتلمسان» . قد اتصل هو الآخر بابني الإمام وأخذ عنهما ، إلاّ أنه كان أقصر باعا منه في الفقه .

وقد نظم «أبو الحسن» في مجلسه «أبا عبد الله محمد بن النجار» في جملة الفقهاء وأجرى له رزقه . فحضر معه بأفريقية وهلك هو أيضا بالطاعون . وحضر مع «أبي الحسن» أيضا شيخ «ابن خلدون» «أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي» إمام المقرئين بالمغرب . أخذ علم العربية عن مشيخة «فاس» وروى عن الرحالة «أبي عبد الله محمد بن رشيد» ، وكان إماما في فنّ القراءات وصاحب ملكة لا يجارى . وكان يصلي بالسلطان التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه .

قد مدح «أبو القاسم الرحوي» شاعر «تونس» «أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي» في قصيدة وذكر فيها أعلام العلماء القادمين مع السلطان . يقول «الرحـــوي» :

هـم القـوم كـل القـوم ، أمّا حلومهم	فأرسـخ مـن طـودَى ثـبـير وثهلان
ولا طيـش يعـروهـم . وأمـا علومهم	فأعلامهما تهديك من غـير نـيران
بـفـقـه يشـيم الأصبحي صباحه	وأشهـبُ منـه يستـدل بشـهـبـان

(1) كتاب العبر لابن خلدون : جـ 7 ، ص : 821 .

وحسن جـدال للخصوم ومنطـق يجيئان في الأخفى بأوضح برهان
سقت روضة الآداب منهم سحائب سَحَبْنَ سَحبانَ أذيال نيسـان
فلم يبـق نـاي ابن الإمام شماخة على مدن الدنيا الأنف «تلمسان»
وبعـد نـوى السطي لم تسطُ فاسُهُ بفخـر على بغداد في عصر بغـدان
وبـالآبلي استقت الأرض وَبْلَهـا ومستوبـل ما مال عنه الأضغان
وهـامت على عبد المهيمن تـونس وقد ظفـرت منه بـوصل وقربان
ومـا علقـت منـي الضمـائر غـيره وان هويت كلا بحبّ ابن رضوان

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم «الرحوي» في شعره هم سباق الحلبة في مجلس السلطان «أبي الحسن» اصطفاهم لصحابته من أهمّ المغربين الأوسط والأقصى . إلا أن «الرحوي» نسي شخصية تلمسانية هامة ، وهذه الشخصية تتمثل في «شمس الدين أبي عبد الله بن مرزوق» . ولد «بتلمسان» عام 710 هـ (1310 م) . لما بلغ الثامنة عشر ارتحل مع أبيه إلى المشرق . فحج وجاور وأخذ عن شيخ الحجاز . ثم ترك أباه بالحجاز وقصد الشام فمصر ، فسمع من علماء تلك الديار ، ثم من علماء «تونس» «وبجاية» «وفاس» . فبرز في علوم مختلفة وخاصة في الحديث وألف فيه كثيرا . قد لقي «بتلمسان» السلطان «أبا الحسن» المريني محاصرا لها . فقربه وصار لا يفارقه حضرا وسفرا حربا وسلما . ورافقه في الحرب في وقعة طريف بالأندلس سنة 740 هـ (1340 م) واستعمله في الرسالة إلى الأندلس ثم إلى ملك قشتالة في تقرير الصلح ، واستنقذ ولد السلطان وكان أسر يوم طريف . ولما رجع من الأندلس طلب من السلطان أن يعفيه من الخدمة ، فأعفاه . فرجع إلى «تلمسان» وعليها وقتئذ «أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن» وأخوه «ثابت» . فالجوّ السياسي اضطره إلى مغادرة بلده . فتوجه إلى «غرناطة» ونزل على سلطانها «أبي الحجاج» سنة 752 هـ (1351 م) . فقربه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء . فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة 754 هـ (1352 م) بعد مهلك أبيه واستلائه على «تلمسان» . فنظّمه في أكابر أهل مجلسه ، ثم بعثه إلى تونس يخطب له بنت السلطان «أبي يحي» الحفصي . فردّت الخطبة واختفت البنت . فوشي إلى «أبي عنان» أن «ابن مرزوق» كان مطلعا على مكانها ، فسخطه لذلك ، ورماه في غياهب السجن . إلاّ أنه أطلق سراحه ، ولم يلبث أن

رجع إلى السجن اثر انقلاب حكومي سنة 762 هـ . وعند سراحه ، انتقل إلى «تونس» . وهناك قصد المشرق ، فرحب به السلطان الأشرف وولاه الوظائف العلمية . فلم يزل ملازما للتدريس في مدارس شتّى إلى أن هلك . وقد تتلمذ له «لسان الدين بن الخطيب» الذي سنحدثك عنه من بعد . فقد أخذ عنه في البلاط الغرناطي . وكانت بين الرجلين مراسلات اشتملت على نثر وشعر . فكان خطيبا محنكا . فيخبرنا على أنه خطب على ثمانية وأربعين منبرا في بلاد الإسلام شرقا وغربا حتى صار يلقب بالخطيب ، ولكن الخطابة لم تمنعه من أن يأتي بالشعر الرائق وإليك مطلع رائيته التي قالها بين يدي الملك الغرناطي ليلة الميلاد المعظم سنة 763 هـ .

قـــل لنـسـيـم الـفـجـــــــر   لـلـه بـلـغ خـبــــــري

فقد شرح كتاب الشفاء للقاضي «عياض» السبتي ، وطلب من علماء العدوتين أن ينظموا مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور . فأجابه الكثير . وأنشد «الزمخشري» في كشافه يعرض بأهل السنة وينصر مذهبه ، وكان معتزلي الاعتقاد . فممّن تصدّى للردّ عليه «الخطيب ابن مرزوق» .

لم يقنع «أبو الحسن علي» المريني بضم «تلمسان» وأعمالها . فأبى إلا أن يستولي على أفريقية ويمحي أثر الموحدين منها ، فهكذا يكون المغرب العربي كله تحت لوائه . فأراد بذلك أن يقادر «عبد المؤمن» الذي أمكنه أن يبسط نفوذه من المحيط إلى حدود مصر ومن «مراكش» إلى «قرطبة» . فان «أبا الحسن» لم يفكر في أسباب نجاح «عبد المؤمن» . فالنجاح منوط بمراعاة الظروف والأوضاع .

فدولة الموحدين حينما اقتحم «عبد المؤمن» المغرب الأدنى لم تزل فتية ذات جيش تربط أفراده العصبية وتقوّي عزيمتهم العقيدة والغاية ويقودهم أمير انتحى سياسة واعية لحلّ المشكل العربي العويص . أما جيش «أبي الحسن» فكانت تشكّله حشود تفوق قبيله عددا ، لا تربط أجزاءها إلاّ غاية واحدة هي جمع المال والمغانم . وضخم هذا الجيش بعناصر كانوا بالأمس القريب أعداءه من بني عبد الواد ومغراوة وتوجين يريد الاستيلاء على تونس بدون أن يقدر العنصر العربي حق قدره . فوقع له ما لم يكن في الحسبان . واندرج في جموعه «عثمان بن جرار» من أبناء طاع الله ، وكان قد اعتقله « أبو تاشفين » الزياني وفرّ من محبسه ولحق بملك المغرب

أبي سعيد المريني فآثر محله وأكرم نزله . فعقد «أبو الحسن» لولده «أبي عنان» على عمل «تلمسان» ورشحه لولاية العهد ، ثم غادر «تلمسان» في جيش جلب سنة 748 هـ (1347 م) قاصدا أفريقية . ففتح في طريقه «بسكرة» وجميع أقاليم الزاب وجنوب أفريقية . وتخلى له صاحبا «بجاية» «وقسنطينة» عن إمارتيهما ، فولاهما عوضا عنهما «وجدة» «وندرومة» .

وصل «أبو الحسن» إلى «تونس» ، ففر منها صاحبها «أبو حفص» ، ولكنه قبض عليه وقتل . فخلا بموته الجو «لأبي الحسن» ، فدخل العاصمة محفوفا برجال دولته وعلمائه . ثم راح يزور أضرحة الصالحين بمدن الساحل حتى تهوى قلوب أهل البلاد اليه ، لكن موقفهم نحوه لم يتغير ، ولا سيما الطبقة الأرستقراطية ورجال العلم ، فكانوا لا يرون بعين الرضا وجوده بين ظهرانيهم . والخطر كل الخطر الذي لم يكن له في الحسبان هو أن العرب من سليم تألبوا عليه في «القيروان» . وما هي إلا حتى نشبت الحرب بين الفريقين . فكانت الدبرة على «أبي الحسن» . فبادر اثر ذلك إلى «تونس» يفل جيشه . وقبيل هذه النكبة استأذنه «عثمان بن جرار» في الرجوع الى المغرب ، فأذن له «أبو الحسن» . فلحق «بتلمسان» فنزل على أميرها «أبي عنان» فسأله هذا عن أحوال أبيه . فأخبره بتورطه في مهالك أفريقية واياسه من خلاصه . وما هي إلا حتى جاء خبر نكبة «أبي الحسن» «يغمراسن» . فظهر مصداق ظن «عثمان بن جرار» .

فأغراه بالتوثب على ملك أبيه «بتلمسان» والبدار إلى «فاس» قبل أن يستقل بها «منصور» ابن أخيه مالك وكان استعمله جده «أبو الحسن» . وتحيل «عثمان بن جرار» في إشاعة مهلك السلطان «أبي الحسن» وإلقائه على ألسنة الناس . فتصدى «أبو عثمان» للأمر . فبث العطاء للفل من معسكر بني مرين وأعلن بالدعاء لنفسه في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وعسكر خارج «تلمسان» للنهوض إلى المغرب الأقصى . ثم استعمل «عثمان بن جرار» على المدينة (1) وعملها وارتحل إلى المغرب . فلم يتوارعن «تلمسان» حتى قام «عثمان» هذا يدعو لنفسه وانتزى على كرسيه واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسما لم يكن لآل جرار ،

---

(1) ابن خلدون : جـ 7 ص : 580 .

واستبد أشهرا قلائل إلى أن قيض الله من آل زيان من ولد «عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن» من طمس معالمه وأعاد أمر بني عبد الواد في نصابه .

استرجاع عثمان أبي سعيد العبد الوادي مملكة آبائه

أول من نزع عن «أبي الحسن» أثر النكبة بنو عبد الواد . فأجمعوا رأيهم على أن يعودوا إلى «تلمسان» ثم اتفقوا بعد الشورى على تعيين «عثمان بن عبد الرحمن» أميرا عليهم . فخرجوا به إلى ظاهر المدينة وأجلسوه بباب مصلى العيد من «تونس» على درقة ثم ازدحموا عليه يعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة ثم انطلقوا به إلى رجالهم (1) . واجتمع مغراوة أيضا إلى أميرهم «علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل» . وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة إلى الصحابة إلى أعمالهم والمهادنة آخر الأيام واستأثر كل بسلطانه وتراث سلفه . فاستعدّ بنو عبد الواد في شهر ربيع الأول 781 هـ (ماي 1650 م) لاسترجاع مملكتهم . فتجهزوا تحت راية زعيمهم ودخلوا تلمسان في شهر رجب (أيلول) فثارت العامة «بعثمان بن جرار» عامل بني مرين . فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه . ودخل «عثمان أبو سعيد» إلى قصر آبائه آخر جمادى الآخرة من سنة 749 هـ . فاقتعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر وكتب وعقد لأخيه «أبي ثابت» على النظام والحروب (2) .

كان يومئذ «إبراهيم بن عبد الملك» شيخا على كومية . وكان ينتسب في بني عابد وهم قوم «عبد المؤمن ابن علي» . فلما سمع باسترجاع بني زيان إمارتهم حدثته نفسه بالانتزاء ، فدعا لنفسه وأضرم بلاد «كومية» نارا وفتنة على حد تعبير «عبد الرحمن بن خلدون» . فلم يكن «لأبي ثابت» إلا أن ينهض له . فاستباح كومية قتلا وسبيا واقتحم «هنين» ثم «ندرومة» بعدها ، وقبض على «إبراهيم بن عبد الملك» الخارج ، فجاء به معتقلا إلى «تلمسان» وأودعه السجن ، فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر. ولم تزل أمصار المغرب الأوسط وثغوره على

(1) ابن خلدون : جـ 7 ص. 583 .
(2) استوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن بن ولد محمدبن تيدوكسن بن طاع الله (ابن خلدون جـ 7 ص : 584) .

طاعة السلطان «أبي الحسن» والقيام بدعوته وبها عماله وحاميته ، وأقربها إلى «تلمسان» مدينة وهران ، وكان بها القائد «عبو بن سعيد بن أجانا» ، من صنائع بني مرين . وقد ضبطها وثقفها وملأها أقواتا ورجالا وسلاحا ، وملأ مرساها أساطيل . فنهض إليه «أبو ثابت» بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب ، ونزل على «وهران» وحاصرها ، ثم اقتحمها عنوة ، وعفا عن «علي بن أجانا» القائم بها بعد مهلك أخيه «عبو» وعلى من معه وأطلق سبيلهم ، واستولى على ضواحي «وهران» وما إليها ورجع إلى «تلمسان» .

اتفق أن أضرمت نار العداوة بين آل زيان ومغراوة . فنهض اليهم «أبو ثابت» في شوال والتقوا في عدوة وادي رهيو . فاقتتلوا . وكانت الدبرة على مغراوة . فاستولى «أبو ثابت» على معسكرهم وملك «مازونة» وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان «أبي سعيد» . وفي غضون ذلك عاد السلطان «أبو الحسن» من «تونس» في شوال سنة 750 هـ (كانون الأول 1349 م) في ستمائة سفينة يريد الجزائر . وكانت يومئذ زوابع وعواصف بحرية ، فغرقت مراكب السلطان المريني ما بين سواحل «دلس» «وبجاية» . وكان فيمن هلك من حاشيته ودائرته الخاصة نحو الأربعمائة عالم . ولم ينج من الغرق إلاّ «أبو الحسن» ، وطائفة قليلة من بطانته . فانتهز بنو عبد الواد هذه الفرصة . فشمروا لاسترجاع سلطانهم في شهر ربيع الأول 751 هـ (أيار 1350 م) فأخضعوا لطاعتهم نواحي منداس والسرسو وتيطري وحمزة ، ثم قفلوا إلى «تلمسان» ، فدخلوها في شهر رجب (أيلول) فقام حينذاك «أبو الحسن» ، وجمع فل عساكره المبثوثة هنا وهناك في شلف ورماهم على بني عبد الواد . فتحالف «أبو ثابت» «وعلي بن راشد» سيد مغراوة ، وزحفا جميعا إلى أعدائهما . والتقى الجمعان بتنغمرين من شلف . فانتهت المعركة بانكشاف السلطان «أبي الحسن» وقومه ، وقتل «محمد بن علي بن العزفي» قائد أساطيل «أبي الحسن» «وابن البواق» «والقبائلي» كاتبه ، واستبيح معسكرهم وما فيه من متاع وحرم ، وخلص بناته إلى الوانشريس . فاستولى «أبو ثابت» على ذلك الجبل . فعثر على بنات السلطان «أبي الحسن» ، وبعث بهن إلى السلطان «أبي عنان» ، ثم راح إلى بلاد توجين فدوّخها وقفل راجعا إلى «تلمسان» .

(1) ابن خلدون : جـ 7 ص : 484 .

أما «أبو الحسن» فقد خلص إلى أحياء سويد بالصحراء ، فنجا به «ونزمار بن عريف» إلى «سجلماسة» .

مشاريع أبي عنان بن أبي الحسن المريني بتلمسان

توفي «أبو الحسن» المريني سنة 752 هـ (1351 م) فخلفه نجله «أبو عنان» . فلم يجلس على عرش آبائه حتى نهض يغزو «تلمسان» . فبرز لمقاومته السلطان «أبو سعيد عثمان» الزياني ، وكان اللقاء بين الفريقين في سهل «أنكاد» في شهر جمادى الأولى (حزيران) ، فانهزم بنو عبد الواد وأسر ملكهم «عثمان» ثم قتل . فقام أخوه «أبو ثابت» بمغراوة في نواحي شلف ، واشتد القتال بينه وبين الوزير «فارس بن ميمون» المريني فانكسر «أبو ثابت» وذهب منهزما نحو «بجاية» ، وهناك ألقي عليه القبض . واحتل المرينيون مدينة الجزائر في شهر رجب (غشت) ثم حل سلطانهم «بالمدية» ، فاطرد منها ولاة بني عبد الواد وعمالهم ، وقتل هناك طائفة من وزرائهم . ثم عاد بالزعيم «أبي ثابت» ووزيره «يحيى بن داود بن علي بن محمد» إلى «تلمسان» . فقتله بها . فبموته زال ملك آل زيان للمرة الثانية إلى حين سيقوم «أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن» كما سنرى بعد .

فأعجب «أبا عنان» المقام بالمغرب الأوسط . وكيف لا ومال الجبايات تصب عليه من كل ناحية وتجار المغرب يجدون فيه أسواقا نافذة لسلعهم وتسهيلات لحركاتهم من طرف العمال المرينيين . ولم يقنع «بتلمسان» وما إليها من الأعمال . فأبى إلاّ أن يكون تحت لوائه المغرب الكبير كله . فاستولى على «بجاية» سنة 754 هـ (شباط 1353 م) ، وعقد عليها لحاجبه «أبي عبد الله محمد بن أبي عمرو» . ونازل وزيره «فارس بن ميمون» مدينة «قسنطينة» . ثم لحق بها السلطان «أبو عنان» ، فاحتلها يوم ثاني عشر شعبان (فاتح غشت) وأطرد منها أميرها «أبا العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر» الحفصي ، وولى عليها «المنصور بن الحاج خلوف الياباني» من رجال الشورى بدولة مرين . فنزل بها في شعبان من هذه السنة . فهذه الانتصارات قد شجعت «أبا عنان» على اكتساح «أفريقية» . فدخل تونس بعد أن غادرها صاحبها السلطان «أبو اسحاق» الحفصي ووزيره «ابن تافركين» فارّين الأول في جماعة من الأعراب إلى الجريد والثاني إلى مهدية في أواخر شعبان سنة 758 هـ .

لكن «أبا عنان» لم يمكنه أن يتذوق طعم انتصاراته ، فاضطر إلى مغادرة «أفريقية» لقمع اضطرابات اشتعل لهيبها بالمغرب الأقصى ، ومرض إثر ذلك في سنة 1358! ، ثم قضى عليه وزيره «الحسن بن عمر الفدودي» بخنقه في عقر بيته . فبموته أفلت من يد مرين أفريقية والمغرب الأوسط ، الأمر الذي يدل على أن نفوذ «أبي عنان» كان واهيا ، فقد تسلط على بلاد الغير واعتدى على سكانها واستأثر بخيراتها . فمن الطبيعي أن تفلت عاجلا أو آجلا من يده عند سنوح الفرصة مهما كانت مساعيه في استمالة قلوب أهلها . فإنّ أباه كان أحسن منه سياسة وأكثر حزما وعزما وجيشا ومع ذلك فقد باء بالفشل .

كان «أبو عنان» يقرّب العلماء ويغدق عليهم . فقد طلب من صاحب تونس أن يرسل اليه الآبلي الذي بقّي هناك بعد نكبة «أبي الحسن» . فأسلمه . فقدم الشيخ إلى «بجاية» وقام بها شهرا . قرأ عليه طلبتها مختصر ابن الحاجب في الأصول . ثم انتقل إلى «تلمسان» ، فدخل على «أبي عنان» . فنظمه في طبقة أشياخه من العلماء ، وكان يقرأ عليه إلى أن توفي «بفاس» سنة 757 هـ . وتتلمذ له أيضا «عبد الرحمن بن خلدون» وأخوه «يحي» «وابن الصباغ» «والمكناسي» «والشريف الرهوني» «وابن مرزوق» الجد «والعقباني» «وابن عرفة» «والوالي عياد» «والشريف التلمسـاني» .

«والشريف» هذا لم يختص بالآبلي فحسب فقد أخذ عن ابني الإمام وتفقه عليهما في الأصول والكلام ، ولزم جماعة أخرى من شيوخ «تلمسان» ، وكانت تزخر حينئذ بالعلماء كالفقيه الإمام «المجاصي» والقاضي «أبي عبد الله محمد بن عمر بن الرماح» «وابن النجار» «المنجم» وغيرهم .

رحل «الشريف التلمساني» في أنحاء المغرب الكبير . كان بتونس سنة 640 هـ وأخذ عن علمائها ورجع إلى مسقط رأسه ، وانتصب إلى التدريس وبث العلوم من فقه وعربية وشريعة وحساب وهندسة وهيئة . ومن الأئمة الذين أخذوا عنه ولده محمد والشاطبي وابن زمرك وابراهيم الثغري وابن خلدون وابن عتاب وابن السكاك ومحمد بن علي المديوني وابراهيم المصمودي وغيرهم ، وكلهم اثنى عليه . «والشريف» كان مائلا للنظر والحجة أصوليا متكلما جامعا لكثير من العلوم العقلية .

إن الشيخ «موسى العبدوسي» كبير فقهاء «فاس» كان يبحث عما يصدر عن عن «أبي عبد الله» من تقييد أو فتوى فيقيده ، وكان أسن من «أبي عبد الله» . وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له ، حتى أن العالم الشهير «لسان الدين بن الخطيب» كلما ألف تأليفا بعثه له وعرضه عليه وطلب أن يكتب عليه بخطه . وكان الإمام المفتي «أبو سعيد بن لب» شيخ علماء الأندلس وآخرهم ، كلما أشكلت عليه مسألة كاتب «الشريف» بها وطلب منه بيان ما أشكل مقرا له بالفضل .

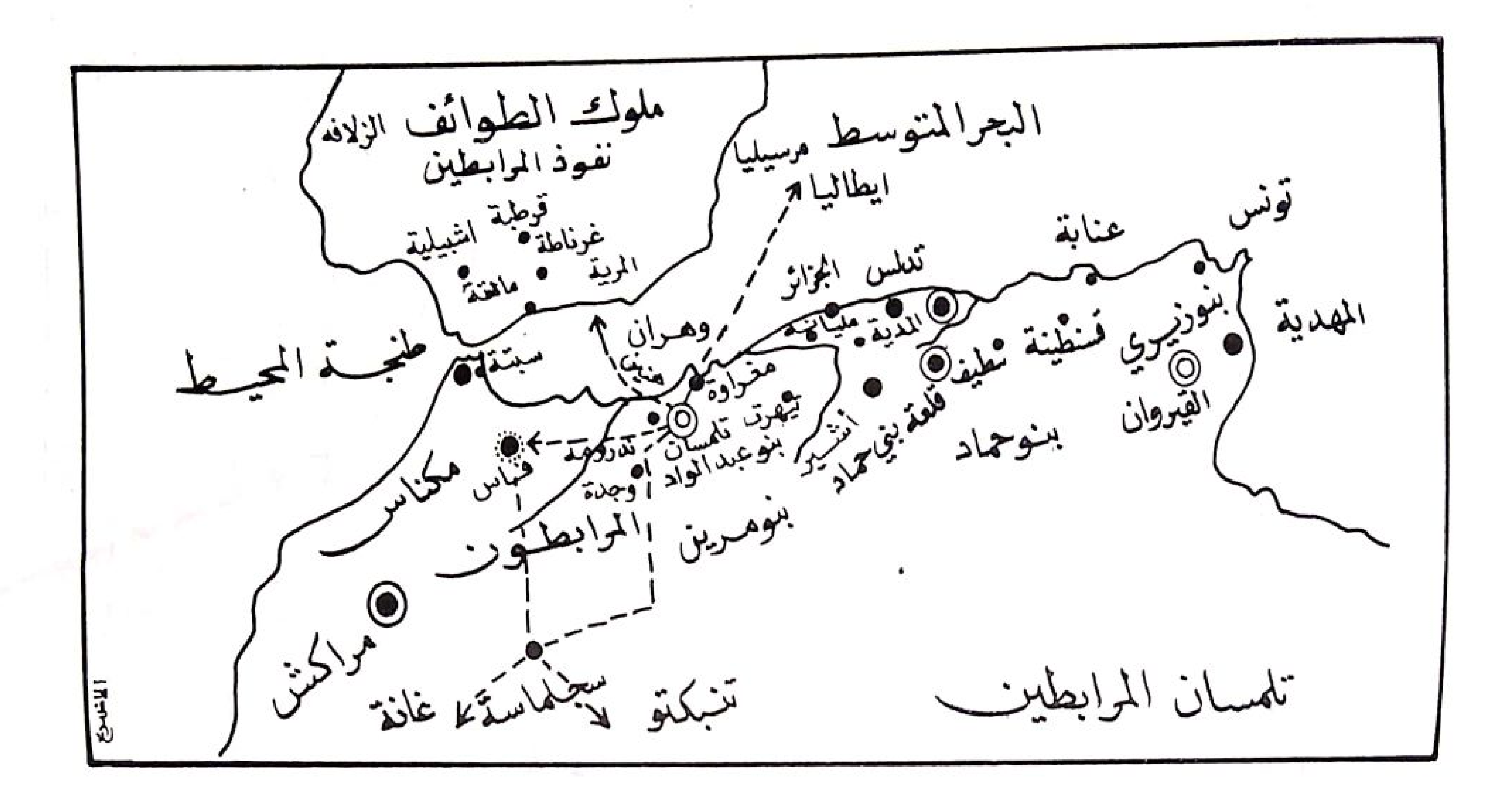
استخلص «أبو عنان» «الشريف التلمساني» واختاره لمجلسه العلمي ورحل به إلى «فاس» . ذكر الشيخ «المطغري أبو يحي» فقال : «لما اجتمع العلماء عند السلطان «أبي عنان» ، أمر الفقيه العالم الحافظ القاضي «أبا عبد الله المقري» التلمساني بإقراء التفسير ، فامتنع وقال : «أبو عبد الله الشريف» أولى مني بذلك» فقال له السلطان : «إنك عالم بعلوم القرآن وأهل التفسير فاقرأه ، فقال له : «إن أبا عبد الله» أعلم بذلك مني» . فلا يسعني أن أقرأ بحضرته» فأمر حينئذ السلطان «الشريف» أن يقرأ . ففعل وفسر بحضرة كافة علماء المغرب ، ونزل السلطان عن سرير ملكه وجلس معهم على الحصير ، فنبع من «أبي عبد الله» ينابيع الحكمة ما أدهش الحاضرين وأتى بما لم يحيطوا به حتى قال السلطان عند فراغ الشيخ : «اني لأرى العلم يخرج من منابت شعره !» ، وجاء اليه القاضي «الفشتالي» بعد خروج الناس ، فطلب منه تقييد ما صدر منه في ذلك اليوم . فكان السلطان «أبو سعيد» العبد الوادي يحبه ويعظمه ، ولا يخاطبه إلاّ بسيدي . ولما انحل نظام ملكه عرض عليه وديعة لولده ، فامتنع . فأودعها غيره وأشهده عليها . وبلغ «أبا عنان» أمر هذه الوديعة ، فانتزعها وسخط على «الشريف» حيث لم يرفع الأمر إليه . فأجابه «الشريف» بقوله : «إنما عندي شهادة فلا يجب عليّ رفعها بل سترها . وأما تقريبك إيّاي فقد ضرني أكثر مما نفعني ونقص بي ديني وعلمي» . وشدّد القول على الملك . فغضب لذلك وأمر بسجنه . اتفق أن ورد اثر ذلك على «أبي عنان» شيخ غريب من أفريقية يسمى «يعقوب بن علي» . فسأله عما يقال عنه بأفريقية . فقال خير ، غير أنهم سمعوا بسجنك عالما شريفا فلامك الخاصة والعامة . فأمر حينئذ بإطلاق الشريف أول سنة 756 هـ . وكان «الشريف» يتبرم

من الاغتراب ويردد الشكوى ، فهذه النكبة كانت له فرصة سانحة ليعود إلى بلده . ولكن ، بعد فتح «قسنطينة» ، أعاد «أبو عنان» الشيخ إلى مجلسه العلمي إلى أن هالك آخر سنة 759 هـ .

لتهوى قلوب أهل «تلمسان» إلى «أبي عنان» وليترك أثر سلطانه بتلك الديار نهض يبني بقرب ضريح سيدي الحلوي (1) الأندلسي مسجدا لازال قائما إلى أيامنا هذه (شكل 26) . مما يلاحظ أن تشابها بين تيجان أعمدة هذا المسجد وتيجان أعمدة مسجد المنصورة والأعمدة أسطوانية وقصيرة . فلا شك أنها نقلت من المنصورة إلى «تلمسان» واستعملوها في بناء هذا المسجد . والمحراب تعلوه قبة مقرنصة . وأما المنار فهو شبيها بمنار العباد ، وسقف المسجد الخشبي يذكرنا بسقف المدرسة (البوعنانية) التي شيّدت «بفاس» في ذلك العهد «وبطايـرطـورو بـطليـطـلـة» .

---

(1) أبو عبد الله الشودي الاشبيلي . كان قاضيا بأشبيلية آخر دولة الموحدين وأنف من القضاء وغادر بلاده ونزل بتلمسان على زيّ المجانين . وسمّي بالحلوي لأنه كان يطوف في السوق وبيده طبق من عود فيه الحلواء للصبيان . إذا اجتمع هؤلاء نقروا له في أكفّهم فيدور ويرقص وربّما أنشد في تغني الحبّ . مات سنة 737 هـ : 1337 م (البستان لابن مريم ص : 68) .


ملوك الطوائف
نفوذ المرابطين
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
المرية
مالقة
البحر المتوسط
مرسيليا
ايطاليا
تونس
عنابة
تدلس
الجزائر
المهدية
بنوزيري
قسنطينة
نطيف
القيروان
وهران
سبتة
طنجة
المحيط
مغراوة
مليانة
المدية
تيهرت
تلمسان
بنو عبد الواد
أشير
قلعة بني حماد
بنو حماد
تادرومد
فاس
وجدة
مكناس
المرابطون
بنومرين
مراكش
سجلماسة
غانة
تنبكتو
تلمسان المرابطين

تلمسان على عهد أبـي حمو الثاني

لما قبض على أبي ثابت بإقليم بجاية نجا ابن أخيه «أبو حمو موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن» إلى تونس ونزل فيها على الحاجب «أبي محمد بن تافراكين». فأكرم نزله وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه ووفّر جرايته ونظم معه آخرين من قلّ قومه. وشاءت الأقدار أن يهجم «أبو عنان» على عاصمة «آل حفص» وان يغادرها صاحبها مع أعضاء بلاطه من بينهم «أبو حمو موسى». فطالما سأل «أبو عنان» عن أخبار هذا، فلم يعثر على شيء، وعاد إلى المغرب. فانثنى حينئذ الأمير الحفصي وخاصته إلى تونس، وكان بنو عامر من عرب زغبة خارجين على السلطان أبي عنان المريني منذ استيلائه على مدينة «تلمسان»، وقد قامت بينهم وبين عرب سويد حلفاء بني مرين معارك حامية جنوبي «تلمسان» انتصر فيها بنو عامر وقتلوا زعيم عرب سويد «عثمان بن ونزمار». وراح رؤساؤهم إلى تونس، واجتمعوا إلى الحاجب «أبي محمد بن تافراكين» واقترحوا عليه ان يلحق «أبا حمو موسى» بإقليم «تلمسان» ليجلب عليها ويسترجع ملك أجداده. وسألوه أن يجهّز عليه آلة السلطان، وأنهم مستعدون لمؤازرته وإعانته على مهنته. فاستحسن اقتراحهم وأصلح شأنه بما قدر عليه ودفعه إلى مصاحبة «صغير بن عامر» وقومه بني عامر. فارتحل معهم من الدواودة «عثمان بن سباع ومن أحلافهم بني سعيد دغّار بن عيسى بن رحاب» وقومه. ونهضوا بجموعهم يريدون «تلمسان». واتصل بهم في طريقهم خبر مهلك السلطان «أبي عنان»، فقويت عزائمهم على انتزاع الملك الزياني من يد الغاصبين بني مرين. واتصل خبر «أبي حمو» بالوزير «الحسن بن عمر» القائم بالدولة من بعد ما هلك «أبي عنان» والمتغلب على ولده «سعيد» الخليفة

من بعده . فجهّز الحامية من أولاد «عريف بن يحيى» أمراء البدو من العرب في قومهم من سويد ومن اليهم من العرب لمدافعة السلطان «أبي حمو» ومن معه وصدهم عن «تلمسان» . فاحتل «أبو حمو» وأشياعه بساحة الحضرة ونازلوها ثلاثة أيام وفي صبيحة اليوم الرابع اقتحموها . فانكسر مرين ، وانفض جمعهم ، وخرج ابن السلطان الذي كان أميرا عليها في لمة قومه . فنزل على «صغير بن عامر» أمير القوم . فأحسن تجلته وأصحبه من عشيرته إلى «فاس» . فعند ذاك دخل «أبو حمو «تلمسان» يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة 760 هـ (7 شباط 1359 م) فدخل قصره وجلس على عرش أجداده وبويع بيعة الخلافة . ورجع النظر في تمهيد جوانب ملكه وتطهير أمصار مملكته من بني مرين . فلنترك الآن «يحيى بن خلدون» يصف لنا حركات «أبي حمو موسى» منذ وطئت رجل فرسه إقليم «تلمسان» إلى أن حل بقصره : «ارتحل إلى عين الحجر شرقي وادي يسر . فهنالك ورد على بابه العلي أهل القصبات ببيعتهم وكتاب الفقيه «أبي زيد عبد الرحمن بن مخلوف» الشامي من بيوتات الحضرة وأسباط خدمة الملوك الأول مثير عزمه ، أيده الله ، بما شرح حب الناس في مقامه الكريم وإجابتهم داعيه ودعائهم في ظهر الغيب بنصره . فارتحل ، نصره الله ، وعسكر ببطن الوادي في رجل الربى من نشر قومه واعياص زناتة نسلوا من كل حدب اليه وانهالوا بكل فجّ ومعلم عليه ... فخيّم ، أيده الله ، ليلته تلك ، شرقي تيزي وأحجار بمراى من الحضرة . وتقدّم «الحاج موسى بن علي بن برغوث» في رعلة من بني عبد الواد ، أعزهم الله ، والعرب بأمر الإمام ، أيده الله ، إلى وادي الصفصيف . فبرزت اليه حامية البلد ، وهم زهاء ثلاثة آلاف ، أميرهم محمد بن السلطان أبي عنان صغيرا مكفولا «ليغمراسن بن عثمان» الورسفاني وأطمعتهم طيارة الخيل بانقلابها واستمروا في طلبها حتى إذا وافت المراكز انعطفت عليهم معضودة منها بالأضعاف . فانهزموا وقتل فارسهم يومئذ «علي بن مسعود الونجاسي» في نفر كثير سوى من أرجل وانجحروا بالمدينة عشاء يعضون الأنامل من الغيظ وتعهدهم الأماني الكواذب الكرة ، فيقولون إنّ موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟ وراح أولياء أمير المسلمين بالغنائم المنوعة والنصر العزيز . فأصبح ، أيده الله ، مقيما لإجماع الجنود ، ورحل صبيحة الاثنين ، فخيم إزاء تيط وشقوف ، ثم من الغد شرقي

جنوب جبل الحديد ، وفي صبيحة يوم الأربعاء رحل وسار في كتيبته الخضراء تخفق عليها بنود السعادة وتقدمها جنود ملائكة الله وروحه آخذا على قنطرة وهران . واجتاز عرب ميسرته المنعقدة على «شعيب بن عامر» أخي الشيخ بقنطرة الصفصيف . فبرز بنو مرين بقضهم وقضيضهم ، فأخذوا بالمنية مصافهم ورتبوا مراكزهم . وحمى بين الطائفتين الوطيس ونار للوغى التنور ، وانجلت المعركة عن هزيمة بني مرين وأخذ ما كان بعسكرهم من طبل وعلم ، وراحوا روحة مذكورة عندهم حتى الآن . فاستجنوا أسوار المدينة . وخيّم أمير المسلمين ، أيده الله ، بموقفهم من المنية وجنّ الليل وقد أهلّ هلال شوال المبارك ، فبرز تحت خفارة ظلمائه الفقيه «أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي» وبنو زاغو نظراؤه في النجدة والبيت ، فأدلّوا أمير المسلمين ، أيده الله ، على عورات البلد ومخادعه وأغروه «بأقادير» لقرب مناله بشيخ أهله ، فأسرى ، أيده الله ، «بموسى بن علي بن برغوث» اليه في الجراد المنتشر من رجال زناتة وفرسانهم . فتقدم اليه بالكمون في جناته وقرعه غدا إذا وقف هو ، أيده الله ، بجانب المدينة الغربي . فلما بدت لصباح يوم الخميس السعيد التباشير ، ووضحت به من الشهر المبارك الغرة وأشرقت بسماء السعادة شمسه عبى أمير المسلمين ، أيده الله ، عساكره الشاكية السلاح قلبا وميمنة وميسرة ومطاردة وسار صدرهم الهويناء تلقاء باب كشوط يعدو الفارس منهم الفارس ولا يسبق السنان السنان كأنما وضعوا على متن خط مستقيم . وأغلق بنو مرين الأبواب واستلامت جمرتهم بالمطمر ، وعمروا سائر شراريف الأسوار وتنادوا بالذّل من وراء الحجرات يضربون في الحديد البارد رجاء منع ما الله معطيه . وبصر «الحاج موسى بن علي» بمكان الخليفة . فوقف إلى باب العقبة بجنوده ولم تستو عساكر أمير المسلمين بصعيد الملعب حتى فتح أهل «أقادير» «لموسى بن علي» بابهم ، فدخله على مرين بجموعه واحترب الفريقان وتجاولوا الطعنات إلاّ أن الصبا هابّة مع الداخلين والدبور آخذة بمجن الآخرين وما النصر إلاّ من عند الله يوتيه من يشاء والله عزيز حكيم . فملك على القوم «أقادير» عنوة وانحاز فلّ ملحمته إلى قبيلهم ، وأجمعوا رهبة على تسليم البلد لربه . فاستأمنوا لأنفسهم مستسلمين لأمره . ثم فتحوا له ، أيده الله ، باب كشوط فدخل ، نصره الله ، في نفر قليلين وجمهرة القوم شاكين السلاح مصطفة حفا في طريق

المطمر ، فلم يرع له جنانه ولا هابها أقدامه بل اجتاز فيما بينهم رابط الجأش قوي العارضة غير مبال بآلافهم الحنقة . واعترضه ولد السلطان أبي عنان وكافله «يغمراسن بن عثمان» وأخوه عمر وأعلام القوم فبايعوا له بالخلافة ودخل داره الكريمة في أيمن المطالع وأسعد الأوقات . وقال «أبو حمو» في وصف ما جرى له في سفره من «تونس» إلى «تلمسان» قصيدة طويلة كأنك بها ملحمة تحتوي على 92 بيتا :

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم — لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما خطابها — وأي خطاب للصلاد الصلادم
وسرت على جون أقب مضمر — كلمعة برق أو كلمحة صارم
وجلت بطرف الطرف في عرصاتها — كجولة واه أو كوقفة هائم
وصفقت ما بين الطلول خوامسي — وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم
وقلت لصحبي لا تملوا من السرى — ولا يزدريكم في السرى لوم لائم
سلوا ساكنات الحي أين تحملوا — فقد عيل صبري بين تلك المعالم
ديار عهدنا بها الشمل جامع — مع الغانجات الآنسات النواعم
وكم ليلة بات السرور مساعدي — بسعدي وسلمى والمنى أم سالم
فعادت رسوم الدار بعد أنيسها — هشيما ولا تخفى بقايا المراسم
وكم نسجتها من جنوب وشمال — وكم سجعتها من لغات الحمائم
كأني بهم ، والله ، يوم تحملوا — وحادي النوى يحدو بذات المباسم
قطعت الفيافي بالقلاص وإنما — تجاب الفلى بالخف أو بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعا — تسابق في البيدا ظليم النعائم
مكحلة الأحداق فيها هشاشة — مهملجة الأطراف سود المباسم
ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلى — يرون المنايا بعض تلك المغانم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد — لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى — نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال أغر محجل — مديد الخطى لم يخش سعب الصلادم
تسربلت كرد وسين من آل عامر — ومن آل إدريس الشريف ابن قاسم
رجال إذا جاش الوطيس تراهم — أسود الوغى من كل ليث ضبارم

وجبت الفيافي بلدة بعد بلـــــدة وطوعت فيها كل ساغ وساغم

وجئت لأرض الزاب تذرف ادمعي لتذكار أطلال الربوع الطواسم

وشبكت عشري فوق رأسي فلم أجد بها مخبرا غير الربى والمعالم

وجاوزتها ما بين هوج هجائـــن رقاق الهوادي عاليات القوائم

وجزت بأرض ريغ راغت بأهلهـا ببلقعة قفر قفتها عزائمي

سألت ربوع الدار فيها فلم أجـد بها معلما يأتي إليّ بعالم

شددت عرى للنجع من كل جانب وصيّرتها مثل الرياح الرواكم

تخيّلتها مثل القطا في مسيرهـا وفوق ذراها كل شهم وحازم

وحفت بنا الأسطال من كل جانب يذكرها عهد الهوى بالصلادم

وجئت لنوا رحلا وجزت مصابها ولا مخبر غير الصلاد الأعاجم

ومازلت أطوي سهلها وآكامها واحطمها بين الربى والهضائم

قطعت الحمادى والسراب غديرها على هيكل عبل الذراعين هاجم

مكر بيوم الحرب لا يشتكي الونى مفر إذا طالت عظام القوائم

إلى أن بدا لي واد زرقــون أزرقـا وبانت عليه شاحبات العمائم

طرقت برأسي واستفزيت بالكرى وكم من ليال بتها غير نائم

وجددت في طلب السرايا مسربلا بسير حثيث أو سرى متداوم

وكم من بلاد قد قطعت آكامها وكم نسمة جادت علينا بناسم

وبين ضلوعي زفرة مستكنـــة يصعدها فيض الدموع السواجم

وبتنا نسوق النجع في غيهب الدجى وخرصاننا فيها كشهب عوائم

إلى ملـل ملنـا وما ملت السرى سرايا ركاب كالقسي السواهم

ولما بدا لي منزل القوم ظاهـــرا وحيّتهم بين الظلال الهواهم

جبدنا مجابيـذا وجدت جيادها وجالت كما العقبان بين القشاعم

وضمر عناجيج على صهواتهـا كرام سماح بالنفوس الكرائم

نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فكان على الأعداء كرّ الضراغم

حملنا عليهم حملة مضريـــة فولوا شراذا مثل حصل الحمائم

فكم خلفوا ما بين بكر وبكـرة ومن عادة مكسوة بالهزائم

وولت سويـد ثم خلت مجيرهـا وشيخ حماها في الشرى كالضراغم

وطاحت على وادي مـلال هشـائم ... من القـوم صـرعـى للنسور القشائم

فكانت إلى الطير القشيم فرائسا ... وكانت على الأعـداء شؤم الذمائم

وهبت ريـاح النصـر من كل جانب ... وجاءت اليـنـا مبهجـات الغنائم

وخضـراء كبود تبدت هضابهـا ... وهبت ريـاح عـاطرات النـواسم

درجنـا إلى درج ولاحـت بشـائـر ... بهلك الأعـادي التاعسين الأشائم

ولاح لنـا فرتون فافترقت المنـى ... إليـنـا ابتسـامـا للثغـور البـواسم

وصـارت أسـود الغـاب تأتي مطيعة ... وعـادت لنا الأيـام مثـل المـواسم

قطعنـا الثنـايـا والخميـس مسربـل ... صـلاصلـه مثـل الريـاح القواصم

وعـجنـا وعـرجنـا على وادي يسّـر ... وجـزنـا المخـاض كالليوث الضراغم

وفـي يسّـر آمالنـا يسّـرت لـنـا ... فجـددت للأوطـان فيـه عزائمـي

وبتـنـا وبـات النـوم غير مساعدي ... وإنـي على جـد السـرى جدّ عـازم

وسـرنـا ضحـى والنصر يهفو أمامنا ... برايـات سعـد فوقنـا كـالغمـائم

قـدمنـا وكـان الفتح يرجو قدومنا ... وكـان على الأعـداء شـرّ المقـادم

وصفّوا صفـوفـا ثم صفّت صفـوفنا ... وسالت دمـوع القـوم مثل العنـادم

وجالت ليـوث الحرب بين صفوفها ... وخـط بهـا الخطي بين الحلاقم

ولاح شعـاع الهنـد بـين خميسهـا ... كبرقٍ تبـدّى بين درج الأراقم

علـونـا على الصفصيف واشتدّ بيننا ... حروب تشيب الرأس قبل الفطائم

كـررنا عليهـم كـرة بعد كـرّة ... وقـد شعلت للحـرب نيران جاحم

بضـرب يزيـل الهام من مستقـرّه ... وطعـن مضـى بين الكلى والحيـازم

فهـذا أسير صفـدتـه يد الوغـى ... وهـذا قتيـل في عجـاج المصادم

فطوبى لعبد الوادي عند ازدحامهم ... لقـد جدلـوا في الحرب كل مزاحم

وجالت خيول العامرية عندهـا ... كـأسـد الشرى في موجها المتلاطم

وعـاد شعـاع الشمس في الجو أصفرا ... وحـال ذبـاب السيف بين الغلاصم

جعلنـا كراديسـا على كل ربـوة ... وطـالـت رقـاب الأسد تحت العمائم

شـددنـا عليهم شدة بعد شـدة ... فـولـوا فـرارا والتجـوا للمعاصم

وداروا بـأسـوار المـدينـة كـلهـا ... كَدَوْر سـوارٍ فوق أبهـى المعاصم

وقـد بـرزت من خـدرها كل غـادة ... درجـن على الأسطـاح درج الحمائم

وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسرا ... بجمع لنا بين الكتائب سالم
فرامت مرين الصلح بعد فرارها ... وقد ظلموا عمدا ولست بظالم
فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها ... وتساقط الأبدان تحت الجماجم
وتخلي من الأعداء دار عهدتها ... مع الآنسات الناعمات الكرائم
دخلت «تلمسان» التي كنت أرتجي ... كما ذكروا في الجفر أهل الملاحم
فخلصت من غصابها دار مُلْكنا ... وطهّرتها من كل باغ وجارم
لقد أسلموها عنوة دون عدة ... لقد طلقوها بالقنى والصوارم
ولم يغنهم ما شيدُوا من معاقل ... ولم يجدهم ما حصنوا من معاصم
ولا كثرة الجيش اللهام ولا الظبى ... ولا ما أعدّوا من قسي سواهم
إذا لم يكن للمرء سعد مساعدٌ ... فما يغنه عدّ الجيوش الخضارم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه ... وكم بات نهبا شمله دون ناظم
شددنا له أزرا وشدنا بناءه ... بأوثق أركان وأقوى دعائم
فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة ... إلى بابنا تبغي التماس المكارم
وجاءت لنا من كل أوب وجهة ... تبايعنا طوعا وفود العمائم
أنا الملك الزابي ولست بزابي ... ولكنني مفني الطغاة الطماطم
فقمنا بأمر الله في نصر دينه ... وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم
فلله منا الحمد والشكر دائما ... وصلّى على المختار من آل هاشم

غادر بنو مرين «تلمسان» وتركوا متاعا كثيرا من جملته هدية كان السلطان «أبو عنان» قد أعدّها هنالك ليبعث بها إلى ملك «قطلان» من خيل عتيقة وسروج مفرغة ركبها من ذوب اللجين ولجم موشية وصندوق الأوقاف المنوعة مفعم ذهبا وفضة . فلم يغره شيء من هذا كله إلاّ فرسا أدهم اتّخذه لركوبه . فبادر إلى إحياء رسوم الخلافة وتوطيد قواعد الملك وتشييد مصانع الدولة . فاستوزر الحاج «أبا عمران موسى بن علي بن برغوث» وولي الفقيه «أبا زيد عبد الرحمن بن مخلوف» الشامي الأشغال والعلامة ، والفقيه «أبا عبد الله محمد بن علي العصامي» ديوان الإنشاء والتوقيع ، والفقيه «أبا العباس أحمد بن الحسن المديوني» القضاء . وما هي إلاّ أيام قلائل حتى وفد على باب الملك الكريم أهل «ندرومة» وأهل «وجدة» وأهل

«هنين» ببيعاتهم (1) . وأحسن إلى أنصار الدعوة ووفود الهناء على بابه من العرب العامرية والمعقلية وهم زهاء ثمانية آلاف . فكسا كلاً منهم على قدره ، ونفل خواصهم الخيل المسومة والسروج المرفهة والعدد المحلاة بالعسجد أو اللجين ثم المال المتعدد (2) . ثم التفت إلى قبيله ، فاستركب منهم في يوم واحد ألف فارس ، كسى كلا منهم بقدره ودفع اليه فرسا مسرجا ملجما ومهمازا وسيفا ورمحا وثلاثة نقود ذهبية وعشرين برشالة من القمح وثلاثين من الشعير (3) . ولعمله هذا أبعاد سياسية هامة . فإن هؤلاء الذين غمرهم بإحسانه واعتنائه سيكونون حماة الدولة ومشيدي أركان الملك . فبهم لا يخاف حركات المتمردين ولا شوكة بني مرين ، ونسجل هنا ملاحظة هي أن هذه الكسى وهذه السروج المطرزة (شكل 27) بالخيوط الذهبية والفضية ، وهذه الآلات الحربية المتنوعة العديدة التي دفعها إلى أنصار الدعوة ووفود الهناء على بابه والجنود العبد الوادية فإن دلت على شيء فإنما تدل بصفة خاصة على ازدهار الصنعة ورواج التجارة وبالتالي إلى حسن حالة «تلمسان» اقتصاديا واجتماعياحينئذ .

ولم يتربع «أبو حمو» الثاني على العرش حتى حانت ليلة المولد النبوي . فاحتفل لها كما كان يعتني بذلك ملوك المغرب والأندلس . «والعزفي» صاحب «سبتة» هو الذي سنّ ذلك في القطر الشقيف واقتفى الناس سننه . وها هو «يحيى بن خلدون» يحدثنا عما حدث بقصر الملك في تلك الليلة المباركة . يقول «أبو زكريا» : «أطلت ليلة الميلاد النبوي على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وأزكى التسليم . فأقام لها بمشور داره العلية مدعى كريما وعرسا حافلة احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة . فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة ، والخليفة ـ أيده الله ـ تصدّر مجلسها ممتطئا سرير ملكه يسر الناظرين رواؤه ، ويثلج الصدور عزه ، وتحار في كمالات خلاله النهى ، حِفافيه ملأ التجلة من قومه وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فوق بعض المناصب تخالهم قطع الرياض النظرات قد أغضى الجلال من أبصارهم وخفضت المهابة

(1) يحي بن خلدون : بغية الرواد جـ 2 ص 39 .
(2) المصـدر نفسـه .
(3) المصـدر نفسـه .

من أصواتهم فلا تبصر إلا جمالا ولا تسمع إلا همسا ، يطوف عليهم ولدان أشعروا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات يغيم دخان عنبر تلك المفعم للآناف الجو ، فتمطر هذه الحفل وابلا من ماء الورد المنسوبة إلى نصيبين . وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا وبصدرها أبواب موجفة عدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان موجفان أطول من الأولى وأعرض فوق جميعها ودوين راس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سيرَ نظيره في الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج فينفض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيَرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه . فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راءٍ بيمناها إذ بارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين ـ أيده الله ـ جيل أحكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافة ـ أعلى الله مقامه ـ تماسيها . والمسمع قائم صدر عترته على بعد من الخليفة مقدر يردد نغمات الألحان ويرتب رنات الإيقاع وينشد خلال ذلك أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيئين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم» فبدأ المسمع في تلك الليلة بقصيدة العاهل الكريم الذي يندم فيها ويبكي على ما اقترفه من ذنوب في شبابه :

نام الأحباب ولم تنم   عيني بمصارعة الندم
والدمع تحذر كالديم   جرح الخدين فوا ألم

ثم يطلب العفو من ربه عن هذه الذنوب العظيمة :

يا رب ذنوبي قد عظمت   فامنن بالعفو لمجترم

ثم يتأسف على أنه لم يقدر له زيارة ضريح النبي والطواف بالكعبة مع الركب فيقول :

زاروا الهادي بهوى باد   وحدا الحادي عزما بهم
شدوا عزموا فازوا غنموا   لما قدموا لحمى الحرم

طافوا بالبيت وقد وقفوا ... ودعوا اذاك لربهم
غفرت بالبيت ذنوبهم ... عند الإقرار بذنبهم
وغدا المشتاق بزفرته ... في مغربه يبكي بدم
جسمي «بتلمسان» دنف ... والقلب رهين الحرم

وفي الأخير يكفكف دموعه ويطمئن قلبه باعتماده على شفاعة رسول الله.

فأقمت أصلح ما خرقت ... بالغرب يد الفتن الدهم
وبعثت رسالة مكتئب ... لشفيع العرب مع العجم

وثنى المسمع بقصيدة «محمد بن يوسف القيسي الثغري» الذي يروم فيها أن يعاين الحرم الشريف وأن يطوف بالبيت العتيق ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم

أترى أرى وادي العتيق ورامة ... ويلوح لي رند الحجاز وبانه
وأعاين الحرم الشريف تنجلي ... عن قلب صبّ مدنف أشجانه
وأطوف بالبيت العتيق ويعتلي ... بي لاستلام الركن شاذ روانه
وفدت عليه ركاب أرباب التقى ... والمذنب الخطاء كف عنانه
من لي بزورة روضة الهادي الذي ... رحم الوجود ببعثه رحمانه
المصطفى خير البرية كلها ... وأجلها قدرا تعاظم شأنه
هو خاتم الرسل المكين مكانه ... وهو المقدم والأخير زمانه
وهو الذي سد النبوة والهدى ... شرف حواه فؤاده ولسانه
عنوان طرس الأنبياء ختامه ... والطرس يكمل حسنه عنوانه
لولاه ما وجد الوجود سماؤه ... أو أرضه أو إنسه أو جانه
فجميع ما في الكون كان لأجله ... شرف الوجود بان فيه كيانه
فالدهر أفق أحمد أمباحه ... والخلق جفن أحمد انسانه
بعلوه فوق السماوات العلى ... وبقاب قوسين استبان ركانه
ماذا عسى يثني عليه مادح ... ويمدحه نصا أتى فرقانه
عجز النظام عن الوفاء بمدحه ... إذ لا يصحّ لنظّام إمكانه

ثم يلتفت إلى «أبي حمو» فيخصه بأبيات يتغنى فيها بخصاله وشجاعته وبهز أريحيته للعطاء فيقول :

يا حادي الركبان نحو محله تلوي إلى علم اللوى أضعانه
ان جئت أرض مِنى وبلغت المُنى وحللت رابعا شرفت سكانه
ابلغ أن المولى «أبا حمو» الرضى المعتلي في كل فضل شأنه
أزكى سلام للنبي محمد كالروض صافح روحه ريحانه
فهو الذي حبّ النبي وآله مازال منطويا عليه جنانه
كم قام معتنيا بمولده وكم سهرت به شوقا له أجفانه
يرجو شفاعته وسوف ينالها وينالـه من ربه رضوانه
زان الخلافة بالمكارم والندى ملك نماه إلى العلى زيانه
وحمى حماها بالصوارم والقنى يوم الكفاح اذا التقت فرسانه
موسى بن يوسف لا نظير لمجده مجد يزين حسنه احسانه
من آل زيان الألى زانوا العلى فالملك إرثهم وهم تيجانه
ملك يسوس برأيه كل الورى فكأنه روح وهم جثمانه
ملك أعاد الملك بعد دثوره لولاه لم يثبت لهم أركانه
ملك وحيد في المعالي ما له إلا المكارم والتقى خلانه
مهما يجد فالغيث دون عطائه ما ان يعارض جوده هتانه
والجود ينفع في الجود دوامه والغيث ليس بنافع إدمانه
ملك تخاف الأسد سطوته اذا حمِي الوطيس وضمّهم ميدانه
وخفى النهار بليل نقع أغبرٍ وبدت كمثل نجومه خرصانه
تلقى الخليفة عند ذلك باسِماً يفي الطغاة ضرا به وطعانه
وحسامه ينهل بِالدم كلما اضحى يُضاحك درَّه عقيانه
فكأنه روض تفتح زهره ودم العدى في صفحه نعمانه
سيف شعاع الشمس دون فرنده مهما تألق ساطعا لمعانه
أمنت «تلمسان» مخاوفها به فلقد حماها سيفه وسنانه
ملك سعيد لا يعاند ملكه إلاَّ شقِيٌ قد دنا خسرانه
ملك تقرّ له الملوك بأنه مولاهم الأسنى وهم عبدانه
متوكل أبدا على مولاه في علياه وافق سِرّه إعلانه
حكمت له الكتب القديمة أنه سيُشَيِّد ملكا شامخا بنيانه

من نحو أرض الزاب يقدم طالبا	ثأرا ومن انصاره عربانه
فيمهّد الدنيا ويمتهن العدى	وجميع ذلك قد بدا برهانه
أدنى البلاد اليه عزم صادق	فالنجحُ موقوف عليه ضمانه
لازال في العز المكين مرفعا	والنجم عنه كليلة أجفانه
وإليك يا خير الملوك ، قصيدة	كالسلك فصل دُرّه مرجانه
من ناظم سحر البيان بدايعا	لكن يقصر عن حلاك بيانه
لا يستوي حر الكلام وعبده	يوما ولا حصباؤه جمانه
والعبد بن مولاه يلتمس الرضى	ان الخليفة شامل إحسانه
لازال مولانا «أبو حمو موسى»	للملك دام مؤيدا سلطانه

ثم جاء دور قصيد الحاج«أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي» طبيب الحضرة العلية الذي يتأسف في أولها على شبابه الذي قضاه لاهيا مطاوعا نفسه في غيها ، فيسأل الله أن يعفو عنه متوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم . وبعد مدح الرسول وذكر اشتياقه إلى الأرض المقدسة يتوجه إلى «أبي حمو موسى» يمدحه وهذه القصيدة أتينا بها في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري ص : 245 . وعند الانتهاء من الأمداح يخبرنا يحي بن خلدون أنه (جيء آخر الليل بالخرس الملاذ ، الحافل الملامح والمشام ، المتعدد الخوانات ، مما أرحبت ساحته وحبرت بروده وناء بالعصبة أولي القوة محملة ، ثم الفواكه فالحلواء . وطعم الناس بين يدي الخليفة . وشكروا الله سبحانه ودعوه لجابر صدعهم ولم شعثهم ولم يفارق الخليفة ـ نصره الله ـ مجلسه أول الليل إلى أن صلى الصبح في الجماعة ثم غدا على داره السعيدة .

وعلى هذا الأسلوب مرت المواليد بعد هذا في مدنه السعيدة . طالت أيامه وانتشرت في هضاب المعالم أعلامه» (1) .

كانت الحاميات المرينية مبثوثة في شرق البلاد . فلم يصل إلى حد ذلك الوقت إلا بيعات مستغانم وتمزغران والبطحاء ، وذلك في الرابع والعشرين من

(1) يحي بن خلدون : بغية الرواد : ج 2 ص : 49 .

ربيع الأول من سنة 761 هـ (23 شباط 1359 م) ولهذا انهض الملك وزيره الحاج «موسى بن علي بن برغوث» لحصار «وهران» ، فامتثل أمر مولاه ، وحاصر المدينة . فبرزت حاميتها وكان يرأسها «عامر بن ابراهيم بن ماساي» من قواد «بني مرين» . فاقتتل الفريقان ، إلا أن الوزير «موسى بن علي» خذله أشياعه وفرت عليه حشوده فولى ، فكبا به فرسه وقبض عليه . فحمل أسيرا في البحر إلى المغرب الأقصى .

وفي شهر ربيع الثاني قصد أولاد عرين بن يحي «فاس» وزينوا «لمرين» التحرّك إلى «تلمسان» فنهض معهم «مسعود بن رحو بن علي بن ماساي الفودودي» بأعلام «بني مرين» . فاتصل الخبر «بأبي حمو موسى» فجمع الجموع وخرج للقاء عدوه وأرسل إلى معقل أحلافه ، وكانوا برأس العين من قبيلة «دبدو» ضاربا معهم الميعاد «بوجدة» . فلبوا نداءه وسبقوه إلى ظاهر «وجدة» . فأنهض اليهم «مسعود بن رحو» رئيس «بني مرين» ابن عمه «عامر بن إبراهيم بن ماساي» بالعساكر يوم السبت الحادي والعشرين من ذلك الشهر . فالتقى الفريقان . فهزمت «مرين» وقتل القائد «عامر» وحمل رأسه إلى «أبي حمو موسى الثاني» فاضطرب إثر ذلك عسكر «مرين» ونكثوا بيعة «السعيد» ملكهم ثم اختلفوا . فبايع منهم رهط «يعيش بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب» وبايع الوزير «مسعود بن رحو» والجمّ الغفير من «بني مرين» «منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب» فحذا حذوهم الآخرون . وفر «يعيش» على وجهه . وكان «بوهران» «أحمد بن أجانا» قائد «بني مرين» . فأسلمها وفر خائفا . فقبض عليه ولكن السلطان «أبا حمو موسى» سرحه إلى المغرب . ثم بعث السلطان «أبو حمو» «شعيب بن ابراهيم المعطاري» بجيش لمنازلة مدينة «تنس» ، فافتتحها ، وسيق قائدها «ابن أحشمي» إلى الملك معتقلا . فلم يمسه بسوء بل سرحه .

ساءت حينذاك شرق البلاد فتنة عارمة أثارها فلّ مرين وأشياعهم من سويد وتوجين . فنهض اليهم «أبو يعقوب» ، أبو الملك ، وشتت شملهم . وفي غضون ذلك انتقل ملك المغرب للسلطان «أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن» . فأرسل إلى «أبي حمو» أول شهر شوال في شأن الصلح «ابن روجي» من كبار خدامه فقبل

«أبو حمو» وصرف رسوله بخير . وفي وسط ذلك الشهر كان وصول الشيخ «أبي محمد بن عبد الله بن مسلم الزردالي» إلى باب الخليفة «أبي حمو» فارا من درعة بالمغرب الأقصى حيث كان واليا إيثارا لخدمة آل زيان . فاستوزره من حينه لخلال فيه اقتضت ذلك (1) وأنهضه بعسكر لجب لمظاهرة «أبي يعقوب» على تمهيد البلاد الشرقية وتطهيرها من الأعداء . فقضيا على ثورة «يحي بن علي البطيوي» وأسراه وحاميته وبعث بهم إلى الملك . فكان وصولهم إلى «تلمسان» يوم الخميس الثاني والعشرين لذي القعدة . ثم تابع «أبو يعقوب» والوزير «عبد الله بن مسلم» زحفهما نحو الجزائر . **فطهّرا القطر من «شعيب ميمون بن واد رار» «وشعيب بن الحسن الوجديجي» في كتيبة وافرة من «مرين» وقتلا «يحيى بن علي» .**

وفي سنة إحدى وستين انحلت عرى السلم بين «أبي حمو» «وأبي سالم» المريني وقصد جيش مرين المغرب الأوسط . فخرج اليهم ولد الخليفة «أبو تاشفين» والشيخ «أبو موسى عمران بن موسى بن فارس بن حريز اللؤلؤي» غرة شهر ربيع الأول والتقى الجمعان . فكانت الدبرة على «مرين» ، ففرح «أبو حمو» وأمكنه أن يحتفل كعادته بالمولد النبوي فأنشد المسمّع قصيدة وكان مطلعها :

قفا بين أرجاء القباب وبالحى ... وحي ديارا للحبيب بها حي

ثم قصيدة الكاتب «محمد بن يوسف الثغري» الذي يذكر في أولها ويطنب أشواقه إلى زيارة البقع المقدسة ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أسائل عن نجد ودمعي سائل ... وبين نجد صبا نجد وشوقي رسائل

....

فيا من رآني فوق ظهر شملة ... تخب برحلي تارة وتناقل
لخير محل حله خير مرسل ... محل مُحلّى بالفضائل آهل
فيا ليت شعري هل أراني بربعه ... أقبل من آثاره ما أقابل
رسول كريم خاتم الرسل كلهم ... وأعظم من تلْقى اليه الرسائل
وأفضل مبعوث وأكرم شافع ... تنال به يوم الحساب الوسائل

(1) يحي بن خلدون بغية الرواد : ج 2 ص : 62 .

بـدا فانجلى ليل الضلالة بالهدى | وزاح بـه ما زخرفتـه الأبـاطـل
وعـم جميـع الخلق علمـا وحكمة | فلـم يبـق في عـصر الجهالة جاهـل
ألـم يـأت بالآيات تتلى عليهـم | يـشابـه بعضهـا بعضـا ويشاكـل
صحـائف آي أيـدت بصحـائـف | تـجـادلهـم هـذي وهـذي تجادل

....

ومـا خـص بـالإسراء إلا محمد | ومـا جـال فوق العرش إلـه جائـل
هو اخترق السبـع الطباق لـربـه | فـأولاه إسعافـا بما هو سائـل
وكـم معـجـزات النبـي محمد | ظـواهـر لا تبغي عليها دلائـل
لـنـا الفـخـر إذا كـنـا بـه خير أمة | نـفـاخـر من شئنـا بـه ونـطـاول
بـمولد الأيـام راق جـمـالـهـا | فطـاب لنـا أسحارهـا والأصائل
أشهـر ربيـع حزت كل فضيلـة | بـأفضـل من تمت لديه الفضـائـل
وليلـه ثنـتي عـشرة منـه أشرقت | ففيها بـدا بـدر الهدى وهو كامل

ويتخلّص إلى مدح الملك فيقول :

بـهـا لأمير المؤمنين مـشـاهـد | لـنـا مـنـه فيهـا أنعـم وفـواضـل
عوائـد إحسـان وحسنى عـوائـد | تنـال بهـا منـه هبـات جـلائـل
فـمـا مثلـهـا في الدهر ليلة موسم | ولا مـثلـه للـدين كـاف وكـافـل
هو الملك المنصور «موسى بن يوسف» | اذا احـتـفـلـت يـوم الفخار المحافل
امام الهدى ساقي العدى أكؤس الردى | غمام الجدى غيث الندى المتراسل
أذلت لـه الصعب الأبي سياسـة | أرتـه وجـوه الرأي فيما يـحـاول
فمـا كحجاه عقـل من ساسة أمة | اذا اشتبهت يوما عليك المسائـل
يـنـظـم شمـلا للعـلى بشمـائـل | ثـمـان فيـا لله تـلـك الشـمـائـل
حيـاء وإفضـال وعـدل وعفـة | وحـزم وإقـدام وحـلـم ونـائـل
أيـا ملكـا دانت بـطـاعـة أمـره | جميـع الـورى حتى الملوك القبـائل
وحـاز تـراث المجـد لا عن كـلالـة | وجـاء بـمـا لـم تستطعـه الأوائـل

وفي الأخير يمدح «أبا تاشفين» مشيرا إلى انتصاره على الجيش المريني . فيقول :

بعث بجيـش النصر كالبحر للعدى | تدافع كالأمواج فيـه الجحافـل

وكالسحب لكن البروق صوارم ... بـه منتضاة والرعـود صواهل

وكالروض إلا أن مشتجر القنــى ... لـه شجر والمرهفات جـداول

«أبو تاشفين» بـدره ونجـومـه ... قبائل «عبد الواد» نعـم القبائـل

وسعدك بعد الله ردء لجيشـه ... ويا حبـذا جيش من السعد حافل

به أمنت سبل وكانت مخوفـه ... ودانت بلاد واستكانت معاقـل

وأدبـرت لأعـداء لما تـوارت ... عليهـم من الجيش القنا والقنابل

عدوك مقهـور وسعـدك ظاهـر ... وجيشك منصـور وسيفك نـاصل

ونجلـك ميمـون النقيبـة ماجد ... وللعـرف بذال وفي الحرب باسل

بهديكم استهدى بمجدكم اقتدى ... فـلاحت عليـه من سناكم دلائل

وفي البدر نور من سنى الشمس ظاهر ... وللشبل من ليث العرين مخائـل

جنيت ثمار النصر خضر أنواعهـا ... بمـا أثمـرت في الحرب سمر ذوابل

فدونك أبكار المعاني لباسهـا ... بـرود حلاكم هن فيها روافـل

قـوافـي جرت بالمجـرة ذيلهـا ... فقـصر عن إدراكهـا المتنـاول

ومذ سحبت ذيل البيـان تبينـوا ... بانـي سحبان وغيـر بـاقـل

فـدامت بك الأيـام تظهر حسنها ... وتحسـد أخـراهـن فيك الأوائل

ولازال صرف الدهر طوعك كلما ... أمرت بأمر قائلا فهـو فاعـل

وفي الأخير أخذ المسمع ينشد قصيدة الحاج «الطيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي» الذي ملأ الشيب رأسه واحدودب ظهره وملّه الصاحب والعرس والأهل والأقارب ، ويدعو نفسه إلى فعل الخير ، ويسأل الله الغفران متوسلا بالنبي «محمد» سيد العرب والعجم . ثم يمدح في الأخير السلطان ونجله «أبا تاشفين» . ان «تلمسان» صارت في عهده ذات حسن بل جنة يقصدها الناس من كل فج وصوب . فالقصيدة ، طويلة ، ولكن لابد من أن نوافيك بشذرات منها :

أصبح رأسـي من الشـوائـب ... وهـو من الجـانبـين شـائـب

يـا لهـف نفسي على زمـان ... كنت لثـوب الشبـاب ساحب

أرفـل في حلـة التـصـابـي ... بيـن حبيـب وبيـن صاحب

حتـى بـدا الشيب في قـذالي ... بـادرتـه بالسـواد خـاضـب

أستـره كـل حيـن حتـى ... عـم من الرأس كـل جـانب

وأقبلت منه لي جيوش سبهامها للصبا صائب
فصال شيبي على شبابي صولة ذي نجدة محارب
وسلّ في العارضين سيفا أضحى به للشباب ضارب
مازال يسطو عليه حتى ظل لما قد دهاه هارب
وقد مضى معهدُ التصابي وأقبل الشيب في كتائب
واحدودب الظهر واعتراني ما ذادعى وصلي الكواعب
وملني الصاحب المصافي والعرس والأهل والأقارب
هذا ونفسي لكل شيء مما يشيق الفتى تراقب
من قبح قول وسوء فعل وترك حق عليّ واجب
فقلت ، يا نفس ، ليس إلا أن تنظري الآن في العواقب
ولتستعدّي لهول يوم تشيب من بعضه الدوائب
يوما يكون الإله فيه على جميع العصاة غاضب
يا نفس بادر دع التأنّي فعيشك عن قريب ذاهب
ارجع لمولاك بانكسار ولترسل الأدمع السواكب
وقل أيا مالكي ويا من اليه كل الانام آئب
يا رب إني أسأت جهلا يا رب إني أتيت تائب
يا غافر الذنب والخطايا حاشاك إني أردّ خائب
يا ربّ يسّر ولا تعسّر يا رب سامح ولا تعاقب
إنّي توسّلت ، يا إلٰهي ، بسيد العجم والأعارب
وخاتم الأنبياء طرا وخير ماش وخير راكب
الهاشمي الذي به قد سما قصي وساد غالب
اخبرت الأنبياء عنه وقاله كاهن وراهب
قام بدين الإله حتى أبطل ما قاله الكواذب
دعا إلى الرشد والهدى من أمته شاهد وغائب
أتى ربيع به بشيرا كل ربيع للخير جالب
سرى إلى عرش ذي المعالي والليل محلولك الغياهب
فكان في القرب والتداني كقاب قوسين في المراتب

شرفه وارتضاه مولى أوحى إليه من غير حاجب
ومعجزات النبي منها ما صح في سائر المذاهب
نطق حصى وانشقاق بدر وغير هذا من العجائب
يقصر عن حصرها يقينا كل لبيب وكل حاسب
أمداحه جنتي وذخري وذاك من أعظم المكاسب
يا ليتني زائر إليه أطوي له البيد والسباسب
أعفّر الخدّ في ثراه وأرسل الأدمع الأساكب
وأسأل الله حسن عون للملك المعتلي المناصب
من لم يزل منذ كان طفلا ذا همة تدرك الكواكب
كرات عينه في الأعادي تغني عن السمر والقواضب
ان باشر الحرب في قتال هيبته تهزم المواكب
وجيشه لا يمرّ إلا كان على المارقين غالب
بلاده قد حمى حماها فلا عدوّ لها يقارب
كنا سمعنا به وكانت أبصارنا نحوه تراقب
فجاء والسعد في صعود والغير تحت الشفاء غائب
والمشتري مشرق منير وزحل ساقط وغارب
عاد به الملك في فرار وابتزه من يد الغواصب
له تدين البلاد طرا فلا مناص ولا مناصب
والغرب لَوْ أمَّه لأضحى فيمن به تندب النوادب
لكنه عف عنه حلما إذ كل من فيه عنه نائب
معتدل الحكم في القضايا ليس يحاشي ولا يجانب
من يرو عنه الحديث يقطع كل بليغ وكل طالب
وحوله من بنيه جمع شواهن صيد صوائب
دلائل الملك قد تبدّت فيه رآها أولو التجارب
منهم «أبو تاشفين» شهم للضرب والطعن غير هائب
في الحزم والعزم لا يبارى والمال للمجتادين واهب
وكلهم ضيغم مهاب يا ويحه من لهم يحارب

كـأنهـم والإمـام «مـوسـى» . بـدر دجـى حـولـه كـواكب
وافـى «تـلمسـان» وهـي محل فجـادهـا صيـب السحـائب
فهـي بـه الآن ذات حسـن منظـر للعقـول سـالـب
عـادت بـه جنـة وصـارت في الغـرب تحـدو لهـا الركائب
طـاب لَعمـري الهـواء فيهـا لمن في طـول الأيـام راغـب
شيـد بنيـانهـا فأضحـت تـلحـق بالأنجم الثـواقـب
لازال يـسمـو وفي يـديـه مـشـارق الأرض والمـغـارب

كانت «تلمسان» جميلة وتضاعف حينئذ جمالها بما زيد فيها من المنشآت . ولم يشهد بذلك «التلاليسي» فقط . فإن «يحي بن خلدون» يؤيده حيث يقول في بغية الرواد : «وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت فروسه ونوسبت أصواله وعروضه فأزرى بالخورنق وأخجل الرصافة وعبث بالسّدير وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن . تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعليه الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ،.ويسقي ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب . فهي التي سحرت الألباب رُواء ، وأصبت النُّهى جمالا ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا . فقد مدحها قبل أن تكون قاعدة «بني عبد الواد» «اليعقوبي» «وابن حوقل» «والبكري» وصاحب الاستبصار «والإدريسي» ، ومدحها بعدهم «العبدري» «وابن خميس» ، ومدحها في العصر الذي نحن بصدده شعراء البلاط . فالحبيبة التي صاروا يشبّبون بها في قصائدهم الملقاة بين يدي الملك «أبي حمو موسى» الثاني هي «تلمسان» . يقول «محمد بن يوسف الثغري» :

أيـهـا الحـافظـون عهـد الـوداد جـددوا أنسـنـا بـبـاب الجياد
وصـلـوهـا أصـائـلا بليـال كـلآل نظـمـن في الأجياد
في ريـاض منـضـدات المحـانـى بين تلك الربا وتلك الوهـاد
وبـروح مـشيـدات المبـانـي بـاديـات السنى كشهب بَواد
رق فيهـا النسيـب مثـل نسيبي وصفـا النهـر مثـل صفـو ودادي
وزهـا الـزهـر والغـصـون تثنت وتـغـنّـت عَلَيْـهِ وُرْقُ شـواد

وانبرى كل جدول كحسام   عار الغمد سندسي النجاد

وظلال الغصون تكتب فيه   أحرفا سطرت بغير مداد

تذكر الوشم في معاصم خَوْد   قضب فوقه ذوات امتداد

وكؤوس المنى تدار علينا   بجنى عفّة ونقل اعتقاد

واصفرار الأصيل فيها مدام   وصفير الطيور نغمة شاد

ولكم روجة على الدوح كادت   أن تريح الصبا لنا وهو غاد

كم غدوناها لأنس ورحنا   جادها رائح من المزن غاد

رقّت الشمس في مشاياه حتى   أحدثت منه رقة في الجماد

جددت بالغروب شجو غريب   هاجه الشوق بعد طول البعاد

يا حيا المزن حيّها من بلاد   غَرَس الحبَّ غرسها في فؤادي

وتعاهد معاهد الأنس منهاً   وعهود الصبا بصوب العهاد

حيث مغنى الهوى وملهى الغواني   ومراد المنى ونيل المراد

ومقرّ العلا ومرقى الأماني   ومجرّ القنا ومجرّ الجياد

كل حسن على «تلمسان» وقْف   وخصوصا على رُبَى العُبّاد

ضحك النور في رباها وأربى   كهف ضحاكها على كل ناد

وسما تاجها على كل تاج   ونما وهدها على كل واد

يدّعي غيرها الجمال فيقضي   حسنا أن تلك دعوى زياد

وبشعري فهمت معنى علاها   من خلالها فهمت في كل واد

ثم يتخلّص إلى مدح الملك فيقول :

حضرة زانها الخليفة «موسى»   زينة الحلى عاطِلَ الأجياد

وحباها بكل بذل وعدل   وحماها من كل باغ وعاد

ملك جاوز المدى في المعالي   فالنهايات عنده كالمبادي

معقل للهدى منيع النواحي   مظهر للعلا رفيع العماد

قاتل المحلّ والأعادي جميعا   بغرار الظبا وغرّ الأيادي

كلما ضنت السحائب أغنت   راحتاه عن السحاب الغوادي

كم هبات له وكم صدقات   عائدات على العفاة بواد

فأيادي خليفة الله «موسى»   أبْحرٌ عذبة على الوارد

ركبَ الجود في بسيط يديه فتلافى به تلاف العباد
جلّ باريه ملجأ للبرايا كالحيا ضامنا حياة البلاد
جل من خصّه بتلك المزايا باهرات من طارف وتلاد
شيم حلوة الجنى وسجايا شهد المجد أنها كالشهاد
يا إمام الهدى وشمس المعالي وغمام الندى ويد النادي
لك بين الملوك سر خفيّ ليس معناه للعقول بباد
فكأن البلاد كفك مهما كان فيها من ينتمي لعناد
قبضت كفك البنان عليه فأتى بالإذعان خلف انقياد
بكم تُصلَح البلاد جميعا إن آراءكم صلاح البلاد
لم تزل دائما تحن اليكم كحنين السقيم للعواد
لو أعينت بمنطق شكرتكم مثل شكر العفاة للأجواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الأعادي
فأريحوا الجياد أتعبتموها وأقِرّوا السيوف في الاغماد
واهنئوا خالدين في عز ملك قائم السعد دائم الإسعاد
وإليكم من مذهبات القوافي حكما سَهّلت ليان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الأفق بالثناء والمجاد
ذو ابتسام كزهر روض مَجُودٍ وانتظام كسلك دُرّ مجاد

فكان الثغري يحب «تلمسان» وهذا الحب يظهر جليا في جميع شعره فقال مرة أخرى في قصيدة مدح بها الملك «أبا حمو موسى» الثاني :

تاهت «تلمسان» بحسن شبابها وبدار طراز الحسن من جلبابها
فالبشر يَبْدُو من حُباب ثغورها مبتسما أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها وبروحها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى «أبي حمو» الذي يحمي حمى أربابها
ملك شمائله كزهر رياضها ونداه فاض بها كفيض عُبابها
أعلى الملوك الصيد من أعلامها وأجلها من صفوها ولبابها
غارت بغرّة شمس الضحى وتنقّبت حجلا بثوب ضبابها
والبدر حين بدت أشعتها له حسنا تضاءل نوره وخبابها

لله حضرتـه الـتي قـد شـرّفت خـدّامهـا فسمت بخدمة بابها
فـاللثم في يـمـنـاه يـبـلغهـا المنى والمـدح في عـلـيـاه مـن أسبابـهـا

ولعل جمال «تلمسان» في إبّان الربيع يظهر بأجلى ما يكون في قصيدته التالية فنذكرها لك برمّتها . فإن الشاعر لا يترك ناحية من نواحيها بدون أن يبرز ما تكتنفه من جمال ويصف لنا ذلك اللون من الألعاب الذي يقوم به الفرسان بملعب الخيل كل عشية أو على الأقل أيام الأفراح وإثر الانتصارات التي يحصل عليها الجيش المظفر . يقول «الثغري» :

قـم مـبـصـرا زمـن الربيع المقبـل تـر ما يسر المجتنـى والمجتلي
وانشق نسيم الروض مـطلولا وما أهـداك من عَـرف وعـرف فـاقبـل
وانـظـر إلى زهـر الـريـاض كـأنـه درٌّ على لـبـات ربـات الـحـلي
في دولـة فـاضـت يـداه بالـنـدى وقضت بكـل منـى لكـل مؤمل
بسطت بـأرجاء البسيطـة عـدلـهـا وسطت بكـل معـانـد لـم يـعـدل
سلطانها المولى «أبو حمـو» الرضـا ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي
تـاهت «تلمسان» بـدولتـه عـلى كـل البلاد بحسن منظرها الجلي
راقت محاسنـهـا ورقّ نـسـيـمـهـا فحـلا بـهـا شـعـري وطاب تغزلي
عـرج بمنعـرجات بـاب جـيـادهـا وافـتـح بـهـا باب الرجاء المقفـل
ولـتـغـد للعـبـاد مـنـهـا غـدْوَةً تصبح هموم النفس عنك بمعزل
وضـريـح تـاج العـارفيـن شعيبـهـا زره هـنـاك فـحـبـذا ذاك الـولي
فـمَـزاره لـلـديـن والـدنـيا مـعـا تمحى ذنـوبك أو كروبك تنجلي
بكهفهـا الضحـاك قف متنزها تـسـرح نفوسك في الجمال الأجمل
وتمـشّ في جنـاتهـا وريـاضهـا واجـنـح إلى ذاك الجنـاح المخضل
تـسلّيـك في دوحاتها وتـلاعـهـا نـغـم البـلابـل واطـراد الجـدول
وبـربـوة العشـاق سلـوة عـاشـق فـتـنـت وألحـاظ الغزال الأكحل
بـنـو اسـم وبـواسـم من زهـرهـا تهـديك أنفـاسـا كـعـرف المنـدل
فلـو امـرؤ القـيـس حجـر راءهـا قـدمـا تـسـلـى عن معهـد مأسل
لـو حـام حـول فنائها وظبائها مـا كـان محـتـفـلا بحـومـة حومل
فاذكـر لهـا كلَفِـي بسقط لوائهـا فهواي عنها الدهر ليس بمُنْسَلِ

كم جاد لي الزمان بمطلب ... جادته أخلاق الغمام المسبل

واعمد إلى الصفصيف يوما ثانيا ... وبه تسلَّ وعنه دأباً فاسأل

واد تراه من الأزاهر خاليا ... أحسن به عُطَلاً وغير مُعطل

ينساب كالأيم انسيابا دائما ... **أو كالحسام جلاه كف الصيقل**

فزلاله في كل قلب قد حلا ... وجماله في كل عين قد حلي

واقصد بيوم ثالث فوارة ... وبعذب منهلها المبارك فانهل

تجري على درّ لجَيْنا سائلا ... أحلى وأعذب من رحيق سلسل

وأشْرف على الشَرف الذي بإزائها ... لترى «تلمسان» العلية من عَل

تاج عليه من المحاسن بهجته ... أحسن بتاج بالبهاء مكلل

وإذا العشية شمسه مالت فمِل ... نحو المصلى ميلة المتمهل

وبملعب الخيل الفسيح مجاله ... أجل النواظر في العتاق الحفّل

فلحلبة الأشراف كل عشية ... **لعب بذاك الملعب المتسهل**

فترى المجلي والمصلي خلفه ... **وكلاهما في جريه لا يأتلي**

هذا يفرّ وذا يفر فينثني ... عطفا على الثاني عنان الأول

من كل طِرف كل طَرف يستبي ... قيد النواظر فتنة المتأمّل

وردٌ كأن أديمه شفق الدجى ... أو أشهب كشهاب رجم مُرسل

أو من كميت لا نظير لحسنه ... سام معم في السوابق مَخول

أو أحمر قاني الأديم كمسجد ... أو أشقر يزهو بعرف أشعل

أو أدهم كالليل إلا غُرة ... كالصبح بورك من أغرّ محجّل

جمع المحاسن في بديع شياته ... مهما ترق العين فيه تسهل

عقبان خيل فوقها فرسانها ... كالأسد تنقض انقضاض الأجدل

فرسان «عبد الواد» آساد الوغى ... حاموا الذمار أولو الفخار الأطول

فإذا دنت شمس الأصيل لغربها ... فإلى «تلمسان» الأصيلة فادخل

من باب ملعبها لباب حديدها ... متنزها في كل ناد أحفل

وتأنّ بعد الدخول هنيهة ... واعدل إلى قصر الإمام الأعدل

فهو المؤمل والديار كناية ... والسر في السكان لا في المنزل

فإذا أمير المؤمنين رأيته ... فالثم ثرى ذاك البساط وقبّل

فالحمد لفظ في الحقيقة مجمل   وخلاه تفصيل لذاك المجمل
بشرى «لعبد الواد» بالملك الذي ،   خلصو به من كل خطب مفصل
بأعزهم جارا وأمنعهم حمى   وأجلهم مولى وأعظم موئل
بالعادل المستنصر المنصور   والمأمول والمهديّ والمتوكل
وكفاهم سعداً «أبو حمو» الذي   يحمي حماهم بالحسام الفيصل
وبحسن نيته لهم وبجدّه   وبسعده وبسعيه المتقبّل
ذو الهمة العليا التي آثارها   حلت به فوق السماك الأعزل
بحرِ الندى الأحلى وفخر المنتدى   وسنا الدجى الأجلى وزين المحفل
ينهلّ منه لنا الجدا وبه الدجى   تجلى بمشرق وجهه المتهلل
هنيء به زمن الربيع وقل له   بشرى بأملح من حلاك وأجمل
وعلى علاه من صنيعة فضله   تزداد نافحة السلام الأكمل

«وأبو عبد الله محمّد بن أبي جمعة التلاليسي» هو الآخر مدح «تلمسان». فلم يقصر باعه في إبراز جمالها للذين لم تتح لهم الفرصة أو الظروف لزيارتها أو زاروها ولم يتيسر لهم اكتشاف أسرار ما تأسر به القلوب والأبصار. **فأصخ اليه سمعك.**

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا   ربوع «تلمسان» التي قدرها استعلى
ربوع بها كان الشباب مُصاحبي   جررت إلى اللذات في دارها الذيلا
فكم نلت فيها من أمان قصية   وكم منح الدهر الضنين بها النيلا
وكم غازلتني الغيد فيها تلاعبا   وكل عذول لا أطيع له قولا
وكم ليلة بتنا على رغم حاسر   ندير كؤوس الوصل إذ بالصفا تملا
وكم ليلة بتنا بصفصيفها الذي   تسامى علي الأنهار إذْ عدم المثلا
وكدية عشاق لها الحسن ينتهي   يعود المسن الشيخ من حسنها طفلا
نعم ، وغدير الجوزة السالب الحجا   نعمت بها طفلا وهمت بها كهْلا
ومنه ومن عين أم يحي شرابنا   لأنها في الطيب كالنيل بل أحلا
وعبادها ما القلب ناس ذِمامه   به روضة للخمر قد جعلت حِلا
به شيخنا المذكور في الأرض ذكره   أبومدين أهلا به دائما أهلا
لها بهجة تزري على كل بلدة   بتاج عليها كالعروس إذا تجلى
فيا جنة الدنيا التي راق حسنها   فحازت على كل البلاد به الفضلا

ولا عجب إن كنت في الحسن هكذا ... «وموسى» الإمام المرتضى فيك قد حلاَّ

ولاحت لنا فيك منه محاسن ... كأن سناها حاجب الشمس إذْ جلى

مطاع شجاع في الوغى ذو مهابة ... حسام على الباغين في الأرض قد سُلاَّ

كريم حليم حاتميّ نواله ... سعيد حميد يصدق القول والفعلا

له راحة كالغيث ينهل وَدْقها ... وصارمُ نصر مرهف الحدّ لا فلاَّ

هو الملك الأرقى هو الملك الرضا ... هو الملك الأسنى هو الملك الأعلى

ومن هذه الأوصاف فيه تجمعت ... حقيقا على كل المعالي قد استولى

إمام حباه الله ملكا مؤزرا ... فلا ملك إلاّ لعزة ذلاَّ

من الزاب وفانا عزيزا مظفرا ... يجرّ من النصر المنوط به ذيلا

بدت لملك الغرب شدّة بأسه ... وإنعامه للمعتفين وما أولى

فبادره بالصلح خوف فواته ... وسالمه إذ كان ذاك به أولى

فكان بحمد الله صلحا مهنأ ... به طابت الدنيا وجزنا به السُبْلا

له في المعالي رتبة لا ينالها ... سواه وكُتْبٌ في فضائله تُتْلى

لطاعته كل الأنام تبادرت ... فيا سعد من وافى ويا ويح من وَلّى

أحُسَّاده موتوا فإن قلوبكم ... بجمر الغضى مما بها أبدا تصلى

لقد جَبَر الله البلاد بملكه ... به مُلِئت أمنا ، به ملئت عدلا

فلازال هذا الملك فيه مخلّدا ... وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى

يريد التلاليسي كالثغري أن «تلمسان» لم تحرز هذا الجمال إلاّ بوجود «أبي حمو موسى» الثاني في حضنها ، وبهذه الفكرة ينتقلان من مدح الحضرة إلى مدح صاحبها . أبرزا جمال المدينة وحسن طبيعتها وشادا بذكر عاهلها ولكنهما لم يتعرضا لمدح سكانها . «فيحي بن خلدون» هو الذي سيسد هذه الثلمة فيقول : «ويعمر كلتيهما (1) من البشر ناس أخيار أولو حياء ووقار ووفاء بالعهد وعفاف ودين (2) واقتصاد (3) في المعاش واللباس والسكنى على هدى السلف الصالح

(1) كلتيهما : أقادير وتاقرارت .

(2) كان يوجد بتلمسان 61 مسجداً قد ذكر أسماءها القائد حماد بن السقال (لبارجيس) الذي زار المدينة وخصّها بكتاب .

(3) فإنهم يقرأون للأيام حسابها ، ولعل كثرة المحن التي ألمت بالبلد عبر العصور، هي التي كونت فيهم هذه الغريزة .

رضي الله عنه ... ومع ذلك فهم معدن العلماء والأعلام والأولياء المشاهير نجابة في الدرس والعبادة تشهد بذلك المزارات المحجوجة من الأقطار النائية خارج بلدهم فالأخبار المتواترة على لسان الخاص والعام» .

راسل ملك المغرب «أبو سالم» سنة إحدى وستين وسبعمائة الخليفة «أبا حمو موسى» في سراح المعتقلين عنده من «بني مرين» فقبل ، ولكن بشرط أن يطلق سراح «بني عبد الواد» المثقفين«بفاس» من كائنة «أنجاد» فغضب لذلك «أبو سالم» وعزم على محاربته . فشرع «أبو حمو» في الاستعداد للقائه . وفي أول رجب (يوم 8 أيار سنة 1360 م) تحرّك ملك المغرب قاصدا «تلمسان» . أما «أبو حمو» فجمع الجموع من «زناتة» ومن أحلافه العرب ، وغرّب . وحين وصل الى «أميسون» بات ملك المغرب «بوادي ايسلي» ثم انتحى «تلمسان» ، فدخلها يوم الأحد سادس شعبان (23 حزيران 1360 م) (1) .

وكان «لسان الدين بن الخطيب» وقتئذ «بسلا» . فكتب نثرا يخاطب به السلطان «أبا سالم» بفتح «تلمسان» يقول الكاتب : «مولاي فاتح الأقطار والأمصار .... بشرى الفتح القريب وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب فتح «تلمسان» الذي قلد المنابر عقود الابتهاج ووهب الإسلام منيحة النصر غنية عن الانتهاج ... مولاي ! هذه «تلمسان» قد طاعت ، وأخبار الفتح على ولدك الحبيب اليك قد شاعت والأمم إلى هنائه قد تداعت وعدوك وعدوه قد شردته المخافة وانضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة وعن قريب تتحكم فيه يد احتكامه وتسلمه السلامة إلى حمامه ...» .

قد جعل «ابن الخطيب» هذه الرسالة مقدمة لقصيدة طنّانة مدح بها هذا السلطان حين تم له فتح الحضرة الزيانية . فإنها طويلة لا نذكر لك منها إلا أبياتا لها علاقة متينة بذلك الفتح . يقول «لسان الدين» :

أطاع لساني مدحك إحساني	وقد لهجت نفسي بفتح «تلمسان»
فأطلعها تفتر عن شنب المنى	وتسفر عن وجه من السعد حياني

(1) النفح جـ 6 ص : 343 ـ 344

كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا وجف بخد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شمولها فبان ارتياح السكر في غصن البان
نهنيك بالفتح الذي معجزاته خوارق لم تدّخر سواك لإنسان
خففت إليها والجفون ثقيلة كما خف شثن الكف من الأسد خفان
وقدت إلى الأعداء فيها مُبَادرا ليوث رجال في مناكب عقبان
تمد بنود النصر منهم ظلالها على كل مطعام العشيات مطعان
جحاجحه غر الوجوه كأنما عمائمهم فيها مقاعد تيجان
أمدك الله فيها بالملإ العلا فجيشك مهما حقق الأمر جيشان

....

فسيفك للفتح المبين مصاحب وعزمك والنصر المؤزر إلفان
فرح واغد للرّحمان كلاءة وسرحان في غاب العدا كل سرحان
ودم والمنى تدنى قطافها ميسر أوطار ممهّد أوطان
وكن واثقا بالله مستنصرا به فسلطانه يعلو على كل سلطان
كفاك العداء كاف لملكك كافل فضدك نِضوٌ ميّت بين أكفان
هنيئا ، أمير المسلمين ، بنعمة حُبِيْتَ بها من مطلق الجود منان
لزيّنت أجياد المنابر بالتي أتاح لها الرحمن في آل زيان
قلائد فتح هن لكن قدرها ترفع ان يدعى قلائد عِقيان

لكن هذا الفتح لم يدم ، وذلك بفضل سياسة رشيدة توخاها «أبو حمو» . فتمادى في سيره وخيم إزاء «آجر سيف» ثم أخذ عنوة سيفه . ولم يبق بها . فأغذ السير إلى «فاس» مصمما على حصارها . فطار الخبر إلى «أبي سالم» الذي لم يسعه إلا القفول إلى دار ملكه . فعقد «لمحمد بن عثمان» ابن السلطان «أبي تاشفين» الزياني على «تلمسان» ضد «أبي حمو» ورحل إلى حضرته «فاس» يوم السبت الثاني عشر من الشهر لخمس ليال من دخوله يطوي المراحل لا يلوي على شيء . فبلغ خبره «أبا حمو» ، فانثنى في الحين يغذ السير لاعتراضه لكن لم يتيسر له ذلك . فأخذ الخصم طريقا مارا «بتازة» . ثم وصل إلى حضرته ، ووصل «أبو حمو» قاعدة ملكه أيضا ، فدخلها يوم الخميس ثامن شهر رمضان لأربعين يوما من خروجه 24 تموز 1360 م ، وقد هرب منها «محمد بن عثمان» . ولحين دخول أمير المسلمين

حضرته أنهض الشيخ «أبا موسى عمران بن موسى بن فارس» لحصار «وهران»، ثم ترك والده «أبا يعقوب» بالعاصمة، وخرج هو بكافة قبيلته لتشريد «محمد بن عثمان» عن الوطن يوم الأحد ثامن عشر رمضان. فتجول في أنحاء المغرب الأوسط وأخضع الخارجين عليه وكل ذلك في أوائل ذي القعدة. فاتصل به الخبر أن ملك المغرب جهز جيشا لفتح «تلمسان». فصرف وزيره «عبد الله بن مسلم» في كتيبة إلى الحضرة، فدخلها يوم الثلاثاء 13 من ذي القعدة (6 أكتوبر 1360 م) واستمر هو في حركته لاستنقاذ «المدية ومليانة» من أيدي مرين، ودخل «تنس» وعاد إلى حضرته. فدخلها في 2 صفر. ولم يسترح حتى أنهض أباه «أبا يعقوب» بجيش ضخم لافتتاح «الجزائر» حيث سمع بعدول ملك المغرب عن محاربته. وبالفعل أمر «أبو سالم» الشيخ «ونزمار بن عريف» أن يقصد «أبا حمو» يسأله أن يبعث ولده لإبرام الصلح، فالحرب لا خير فيها. فأرسل «أبو حمو» ولده «أبا تاشفين» إلى «فاس» في أواخر شهر ربيع الأول رفقة الشيخ «أبي موسى عمران بن موسى» وأعلام من بني عبد الواد بهدية من عتاق الخيل المسومة. فتلقاهم «أبو سالم» بالترحيب وبالغ لهم في الإكرام. وانعقد الصلح على الحدود القديمة. فلم يودع الضيوف «أبا سالم» حتى كافأ عن الخيل المهداة اليه بأضعافها من الأعلاق النفيسة والبغال الفارهة، وأرسل بذلك الشيخ «أبا يعقوب ونزمار بن عريف» «ومحمد بن النوار» مع الأمير «أبي تاشفين». فانصرفوا والفرح يملأ قلوبهم بذلك الاستقبال الحار من طرف «أبي سالم».

فتلقى «أبو حمو» الرسولين بالحفاوة والإكرام، وعند مغادرتهما «تلمسان» قدّم لهما رسالة إلى أميرهما يشكر فيها فعله ويعيد القول في شأن «وهران». فأصر «أبو سالم» على منعها، وأرسل «عمر بن عبد الله بن علي اليباني» ينهي اليه الخبر. فاحتفى «أبو حمو» بالسفير وبالغ في إكرامه واستمالة قلبه حتى اتفق معه على أن يفتح الخليفة وهران (1). ثم صرفه معيدا القول في شأنها. فتكدر بذلك صفو السلم بين الملكين.

---

(1) يحي بن خلدون : بغية الرواد : ص : 92 .

وكان الجالس على العرش «بغرناطة» وقتئذ الأمير «محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج بن اسماعيل بن نصر» . فكاتبه «أبو حمو» في صرف الأمير «عبد الحليم» بن الأمير «أبي علي» ابن السلطان «أبي سعيد» بن السلطان «أبي يوسف بن عبد الحق» اليه كي يعينه على تملك المغرب . فأجابه إلى ذلك . فيبدو لنا «أبو حمو» سياسيا حكيما بفعله هذا . فلا بد أن يسمع به «أبو سالم» فيبادر إلى تغيير سياسته نحو الدولة الزيانية . وفي غضون ذلك نهض «أبو حمو» إلى «وهران» ودخلها عنوة في يوم 13 شوال (17 غشت 1361 م) . ثم دخل دار ملكه يوم الاثنين 19 شوال 23 غشت 1361 م . فإذا بالشيخ «ونزمار بن عريف» «وسليمان بن عامر بن فتح الله» ، أقبلا عليه رسولين من قبل ملك المغرب بتسليم «الجزائر» له . ومن «تلمسان» مضى «سليمان بن عامر» بكتاب ملك المغرب إلى حامية مرين «بالجزائر» . فلم ير «يعلى بن يعلى» «وشعيب بن ودرار» إلاّ أن يتنازلا عن المدينة «لأبي حمو» . فتسلمها منهما «أبو يعقوب» في اليوم الثامن لذي القعدة ، وانصرف بنو مرين الذين كانوا بها إلى باب أمير المسلمين «أبي حمو موسى» . فوصل الخبر بثورة «عمر بن عبد الله» على سلطانه «أبي سالم» بدعوة أخيه «أبي عمر» وقتله . وفي نفس الوقت ورد على «تلمسان» الأمير «عبد الحليم» ابن الأمير «أبي علي» من «غرناطة» . ثم قدم على باب الخليفة «محمد السبيع بن موسى بن ابراهيم الزياني» من خواص خدمة ملك المغرب طريد خوف . فمدحه بقصيدة طويلة . إليك مطلعها :

تطاول ليلي فاستقر منامي   وطال سهادي فاستطال سقامي (1)

فأجابه «أبو حمو» بقصيدة طويلة أيضا مطلعها :

تذكرت أطلال الربوع الطواسم   وما قد مضى من عهدها المتقادم .

وبعد موسم الأضحى انتبذ كافة مرين عن «عمر بن عبد الله» قائمين بدعوة الأمير «عبد الحليم» ، وبعثوا رسلهم لاستقدامه من «تلمسان» . فكساه «أبو حمو» شارة الملك ، وأمر بني مرين الواصلين من «الجزائر» ببيعته ، وقدم «محمد السبيع» لوزارته ، وأحسن اليهم واليه بالمال الكثير والكسى والمراكب الفارهة ، وركب

(1) يحي بن خلدون : ج 2 ص : 93 .

لوداعهم خارج البلد . فانصرفوا عن «تلمسان» يوم السبت 12 لذي الحجة مصحوبين بكتيبة من بني عبد الواد إلى وادي ملوية . ووصلوا إلى «فاس» وحاصروها . فخرج «عمر بن عبد الله» لدفاعهم وقاتلهم . فانهزموا وافترقوا . ولحق السلطان «عبد الحليم» «بتازة» وأخوه «عبد المؤمن» «بمكناسة» ومعه ابن أخيهما «عبد الرحمن بن أبي يفلوسن» . ثم بايع الوزير «ابن عبد الله» «محمد بن أبي عبد الرحمن» ابن السلطان «أبي الحسن» . فاستدعاه من «إشبيلية» حيث كان وبايعه . في غضون ذلك لحق «عبد المؤمن» «وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن» بالسلطان «عبد الحليم» «بتازة» وساروا جميعا إلى «سجلماسة» فاستقروا بها ، والسلطان «لعبد الحليم» .

فأصبح «أبو حمو» عزيزا مهابا مسموع الكلمة يلجأ اليه المضطر من كل مكان . فقد وصل في الحادي عشر من ربيع الأول إلى بابه «ابو يشو بن عبد الله بن الناصر» «وإدريس بن بزو» في جمع وافر من قبيلهما بني عسكر فارين من المغرب . فأمنت دولة آل زيان من الجهة الغربية . فساد ربوعها الاستقرار . فلا بد إذاً من أن تسعد ويعمها الرخاء . فيحتفل الملك بالمولد النبوي بقلب مليء حبورا وفي قصر مفتوح على مصراعيه للخاصة والعامة . وما هي إلاّ أيام قلائل حتى وصل إلى بابه العلي الشيخ «أبو يعقوب ونزمار بن عريف» «ومحمد بن النوار» رسولين من قبل «محمد بن أبي عبد الرحمن» ابن السلطان «أبي الحسن» ووزيره المتغلب عليه «عمر بن عبد الله بن علي الياباني» يطلبان صلح امير المسلمين «أبي حمو» . فقبل على شروط منها سراح بنى عبد الواد المثقفين بالمغرب من كائنة «أنكاد» ، فانصرف الرسولان . وكانت الحالة السياسية حرجة . فلابد من استرضاء «أبي حمو» ، فأجمع ملك المغرب على إرسال «عمر بن مسعود التيريعي» والقاضي «أبي القاسم بن يحي البرجي» إلى «تلمسان» . فتم حينئذ الصلح . وانصرف السفيران بما سألاه أيضا وتوجه معهما الفقيه العالم «أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف» «ووادفل» ابن الوزير «أبي عبد الله بن مسلم» لاقتضاء الشروط . ولم يأت شهر رجب حتى وصل المثقفون بالمغرب إلى باب «أبي حمو» وكانوا أربعمائة . فاعتز الملك وعلت مطامعه وتهللت أسارير الدولة وعلت في أوجه الكمال كلمتها (1)

(1) بغية الرواد جـ ص : 102 .

فكانت المملكة الزيانية تمتد من «تاوريرت» غربا إلى الجريد شرقا ، ووطد فيها الملك الأحكام وأمن السبل . لكنه أصيب بما كدر صفو فرحه واغتباطه ، فتوفي «أبو يعقوب» بمدينة «الجزائر» . فحملت جنازته إلى «تلمسان» . واحتفل الملك ، ومشى فيها راجلا ، ودفنه برياض كانت بباب ايلان ، ثم نقل إلى جواره أخويه السلطانين «أبا سعيد ، وأبا ثابت» ورثاه بقصيدة (1) يظهر فيهاتفجع ألم ولوعة صادقة ، وليس بطبعه أن يبكي ، فكانت له نفس كبيرة لا يهون على الأهوال أن تؤثر فيها ، ومع ذلك ، تصاعدت منها زفرات وانحدرت دموع . إليك مطلعها :

دنف تذكر حسرة التوديع وهي وصل بالنوى متقطوع

ورثى المرحوم «أبا يعقوب» شعراء البلاط ، وكان في طليعتهم «محمد بن يوسف الثغري» «وأبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالي» . فإليك مطلع قصيدة الأول (2) :

المرء في الدنيا رهين خطوب والدهر أفصح من خطاب خطيب

ومطلع قصيدة الثاني (3) :

كأس الحمام على الأنام تدور ما أن لها إلاّ القضاء مدير

نلمس في كلتا القصيدتين تلهفا وتفجعا صادقين .

ولم ينتقل خبر موت «أبي يعقوب» إلى المغرب حتى وصل بالعزاء فيه «موسى بن سيد الناس الومجناسي» وكان الإسبان حينئذ مضيقين الخناق على «غرناطة» . فلم ير ملكها بُدًا من ارسال الكاتب «ابراهيم بن الحاج» إلى «تلمسان» يسأل أميرها إرفاد المسلمين بالأندلس وإعانتهم على مجاورة العدو ، وكان يتبرع في كل سنة على أهل الأندلس بالمال والخيل والزرع ، ويرى ذلك من الجهاد في سبيل الله تحريرا لأرض الأندلس مسقط رأسه من أزمة الإسبان . فرحب الأمير بالرسول ورفيقه الفقيه «أبي محمد عبد العزيز بن علي بن يشت» . فلبى نداء ملك «غرناطة»

---

(1) أتينا بها في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري ص : 221 .
(2) تاريخ الأدب الجزائري ص : 238 .
(3) بغية جـ 2 ص : 114 : تاريخ الأدب الجزائري ص 245

ووجه إليه مع وزيره خمسين ألف قدح من الزرع وثلاثة آلاف دينار من ذهب للكراء عليه في البحر . فرفع الفقيه «ابن يشت» «لأبي حمو» قصيدتين ينوه فيهما بخصاله بمآثره ويذكر سوء حال الأندلس السياسية والإجتماعية ويشكر أياديه البيضاء فقد بلغوا بلقائه المنى والأماني . فإليك مطلع كل منهما :

عرج على الدار من سلمى فحيها   واستوقف العيس في اطلال ناديها(1)
عج بتلك الربى وتلك المغاني   واسأل الركب أين تلك الغواني (2)

فوقعت القصيدتان من الملك الموقع الحسن ، فأهدى اليه حصانا من عتاق الخيل أشهب وثلاثين نقدا من الذهب العين وكسوة جميلة .

ومن مقطوعات لسان الدين بن الخطيب البديعة في مخاطبة «موسى» قوله يشكره على ما كان أعان أهل بلده :

لقد زار الجزيرة منك بحر   يمد فليس تعرف منه جزرا
أعدت لها بعهدك عهد «موسى»   سميك فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأخذت كنزا   ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقوله :

قالوا الجزيرة قد صوحت   فقلت : غمام الندى تنتظر
اذا وكفت كف «موسى» بها   غماما يعود الجناب الخضر

فهذه الكمية من الزرع والذهب التي قدمت إعانة للأندلس فإن دلت على شيء فإنها تدل على أن البلاد كانت تتمتع باقتصاد وافر وعدل وأمن شامل في ظل هذا الملك الذي عرف كيف يفرض نفسه وسياسته الحكيمة في الداخل والخارج . يطلعنا «يحي بن خلدون» عما رآه في طريقه نحو «تلمسان» في صفر سنة 764 هـ حيث أرسله الأمير «أبو عبد الله محمد» بن الأمير «أبي زكرياء» ابن السلطان «أبي يحيى» الحفصي يطلب الإعانة على فتح «بجاية» لمكان عمه الأمير «أبي اسحاق» فيها .

---

(1) بغية الرواد جـ2 ص : 114 .
(2) بغية الرواد جـ 3 ص : 118 .

يقول «يحيى بن خلدون» : «مضيت مجتازا بطلول بلاده (أبي حمو) أول قدماتي عليه ، فرأيت أمر الله من وطن أفيح ، وقطر مزمل في بجاد أسيح ، ومساكن مكثبة الأسفار وسبل آمنة ذمم العافية بها من الأخفار ، وعدل مرسل الأعنة وأحكام ماضية الأسنة ، ومصر ما شككت يوم دخوله بالجنة ، ما شئت من جنات وعيون ونعيم عطاؤه فيه غير ممنون ، وحدائق غلب وفاكهة وأب ، وأنهار تجري بذوب اللجين غير الأسن ، ومتعددة من الكمالات والمحاسن ، ثم قصور زاهرات ، وأنوار من الدين والدنيا باهرات ، وآيات من السياسات والحكم ظاهرات . فالعلم يقذف بحره بالدر ، والملك تباى آفاق أسرته بالكواكب الغر ، والإسلام بذراه متهلل الجبين ، والخلافة تبحبح من هاشميته في قرارها المكين» . ويخبرنا «يحيى بن خلدون» أن «أبا حمو» كان يأخذ من أبناء القبائل رهنا على الطاعة . فقد خرج «أبو تاشفين» على مرأى من «يحي» لقبض الرهائن يوم الأحد والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 764 ونزل البطحاء لذلك (2) . فاتصل الخبر بسلطان المغرب «أبي زيان بن عبد الرحمن» ابن السلطان «عبد الرحمن» ووزيره «عمر بن عبد الله» المتغلب عليه ، فتحققا أن يد الخلافة الزيانية عالية ، فلابد من مصانعتها . فوجها إلى «أبي حمو» هدية تشتمل على عشرين فرسا مسرجة ملجمة وصل بها إلى «أبي حمو» «يوسف» عم الوزير «وعبد الرحمن بن الإمام» في الثاني والعشرين من جمادى الأولى . فألفيا بالقصر «أبا زيد عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن علي» ابن الأمير «أبي علي عمر» ابن السلطان «أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق» رسولا من عمه «عبد الحليم» صاحب «سجلماسة» وقتئذ في طلب المؤازرة من «أبي حمو» . وفي خامس جمادى الأخير وفد على باب الملك «محمد بن يوسف بن أومازير» الموحدي «ومحمد بن يعقوب بن علي الرياحي» من «بجاية» رسولين عن صاحبها حينئذ الأمير أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى في طلب الصلح على أن يجعل حدا لأعمال الفساد التي يقوم بها ابن عمه نجل السلطان «أبي سعيد» في «بجاية» وما إليها . وكان «يحي بن خلدون» قد لحقه مرسله الأمير «أبو عبد الله الحفصي» . فدخلا معا على الملك . فصرف «أبو حمو» رسل

---

(1) بغية الرواد جـ 2 ص : 123 .

(2) نفس المصـدر ص : 131 .

المغرب بالخبر وبعث مع رسل بني حفص الفقيه العالم «أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني» وثبط الأمير «عبد الله» إلى أن يفكر في إيجاد حل لمشكله. وما هي إلا أيام قليلة حتى وافى الملك خبر فرار «محمد» ابن السلطان «أبي سعيد» عم أمير المسلمين من «بجاية» واستقراره «بفحص حمزة» عند شيخ عربها «أبي الليل بن موسى بن أبي الفضل اليزيدي» مضرما نار الفتنة حوله. فقبل أن يستفحل أمره أنهض «أبو حمو» وزيره «عبد الله بن مسلم» في فيلق لجب لأخذ ابن عمه وطرده، ثم مساعدة الأمير «عبد الله» على استرجاع كرسي إمارته، «بجاية». ففعل الوزير ما أمره به، ورجع ظافراً إلى الحضرة. فوافق وصوله دخول الشيخ «أبي يعقوب ونزمار بن عريف» مزمعا المقام تحت ايالة «أبي حمو» والانضواء إلى حرمته (1). فأصبح سرب القطر وأهله آمنا وجسد الوطن من داء الفتن معافى ونور السعادة بآفاقه واضحا (2). وفي هذا الجو من الاستقرار والسلم تفرغ «أبو حمو» إلى القيام بالأعمال العمرانية والثقافية. فوجه عنايته إلى المدرسة الموضوعة **على ضريح أبيه «أبي يعقوب» وعميه. فضاعف فيها الفعلة وأرحب الأبنية وبنى** العروش وأحمد المغارس واستجلب المياه وأجزل الأوقاف وعين الجرايات ورسم فيها الخطط (3) وجعل فيها لتدريس العلم، الفقيه العلامة «أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني»، وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الرجل وقلنا ان «أبا عنان» ضمه إلى مجلسه العلمي إلى أن هلك آخر سنة 759 هـ. ولما ملك «أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن» «تلمسان» استدعى «الشريف التلمساني» من «فاس». فسرحه القائم بالأمر وقتئذ الوزير «عمر بن عبد الله». فانطلق الشريف إلى «تلمسان» وتلقاه «أبو حمو» براحتيه، وأصهر له في بنته، فزوجها إياه، وكلفه بتدريس العلم في المدرسة المذكورة. فأقام الشيخ يدرس فيها العلم من خامس شهر صفر 765 هـ (4) إلى أن هلك ليلة الأحد رابع ذي الحجة عام 1370 م. فحضر جنازته الملك «أبو حمو» الثاني ووزراؤه، وبكاه

---

(1) بغية الرواد جـ 2 ص : 125.

(2) نفس المصدر ص : 122.

(3) بغية الرواد جـ 2 ص : 136.

(4) دشنها الملك نفسه وسماها بالمدرسة اليعقوبية لقباً لاسم أبيه.

القريب والبعيد ورثاه الفقيه «أبو علي الحسن بن إبراهيم بن سبع» بقصيدة طويلة . وتأسف الملك عليه أكثر من سواه . فكثيرا ما كان يرسله سفيرا إلى المغرب وأفريقية . فبعث بعد دفنه الفقيه إلى ولده «عبد الله» وأكرمه وقال له : «ما مات من خلفك وإنما مات أبوك لي لأني أباهي به الملوك» ، وولاه مدرسة والده ورتب له جميع مرتباته . ثم جاء يوم الميلاد النبوي . فقامت الأفراح وأنشدت المدائح كالمعتاد . فكان ملك المغرب ووزيره «عمر بن عبد الله» لا يريان بعين الرضا وجود أولاد الأمير «أبي علي» ابن السلطان «أبي سعيد» «بسجلماسة» . وفي سنة 765 هـ خرج كبيرهم «عبد الحليم» إلى الحج . فسارع ملك المغرب يبعث «محمد بن عثمان» ابن السلطان «أبي تاشفين الزياني» أميرا على «سجلماسة» في محله ووازره بـ «موسى بن علي بن برغوث» «وعمر بن محمد بن مجن» «وسعيد بن موسى علي الغزي» وحاشية مرينية وغوغاء عرب معقلية . وحرض «محمد بن عثمان» القبائل ضد «أبي حمو» . فتجمعت الجموع ببني إزناسن . فخرج اليهم «أبو حمو» وشتت شملهم ورجع إلى حضرته يوم السبت ثامن من شعبان . فأنشده «محمد بن صالح شقرون» أحد كتاب دولته قصيدة (1) طويلة نجتزي بذكر مطلعها :

حدث عن الملك المنصور ماشئتا تجد ألذ حديث يشبه القوتا

وما لبث رؤساء القبائل التي آثارها «محمد بن عثمان» أن قصدت «أبا حمو» تلتمس الرضا والمغفرة نادمين على ما قاموا به من العدى ضد أمير المسلمين ، فعفا عنهم . ثم اقتضى نظره الحركة لتدويخ قطر المغرب . فوصل إلى «تازة» ثم رجع إلى حضرته ، وأنشد قصيدة لوّم فيها على «عمر بن عبد الله» نكث عهده :

قد خنت بعد ايمان مؤكدة وتلك عادتكم في سالف الحقب

ويرميه بالضعف والعجز :

تخوض بحرا ولا تخشى عواقبه ومن سما ذكره في العلم والكتب
وعاندت ويحك من اعطاه خالقه وليس يسلك لجّ البحر بالنجب

(1) تجدها في تاريخ الأدب الجزائري ص : 224 .

وبالجور والغدر والخداع :

جرتم على الله في أحكامه ولقد — قطعتم الدهر بين اللهو واللعب
هتكت سرّ مرين طالما ستروا — قتلت مالكم غدرا بلا سبب
تعمّداً جرءة أخليت دارهم — ولم تدع لبني الأملاك من عقب

ثم ينوه بجيشه الزياني اللجب المنتصر ويهدد خصمه :

فلا يغرك ما كان من لعب — شمّر إزارك جاء الحق فارتقب
لما دعوت على بعد أجبتكم — وقد دعوناك من قرب فلم تجب
وقد نهضت بعون الله متكلا — على الإله ومن يرجوه لم يخب
بعسكر لجب ضاق الفضاء به — كالبحر أعظمْ به من عسكر لجب
عرمرم زاخر فاضت مواكبه — كأنّه سحب أربت على سحب
من كل ليث شجاع فارس بطل — حامي الذمار من الأعاجم والعرب
على سوابق خيل ضمر عرب — تزهى بحليتها كالخرّد العرب
من أحمر عسجدي اللون مذهبه — وأشقر كشعاع الشمس ملتهب
وأدهم متنه ليل وغرّته — صبح فيا حسنه من منظر عجب
وأشهب كشهاب إن رميت به — شيطان كل عدوّ في الوغى تصب
فالحمر من فلق والشقر من شفق — والدهم من غسق والشهب من شهب
تشن غاراتها في كل منهلة — فتنثني بالذي نهواه من أرب
بها وطئنا بلادا لا سبيل لها — وما أردنا تناولناه من كثب
حيث الهوادج والبوجات مشرفة — لاحت لمنزل رأس العين كالشهب
وافت بنو عامر من كلّ ناحية — في خيلها العرب أوفى نجعها الأشب
جاءت إلى نصر حزب الله وابتدرت — كالأسد تبدو عليها سورة الغضب
ومن إمام «عبيد الله» في أمم — فاضت مواكبها بالبيد والشعب
كتائب ضاقت الأرض والفضاء بها — في ظل ألوية خفاقة العذب
بحر على البرّ مرتجّ غواربه — من فوقه قطع الرايات كالسحب
ونحن نقدمهم والنصر يقدمنا — والأرض تهتز بالفرسان والنجب
ثم ارتحلنا «لتامَسْلَمْت» مرحلة — وكوكب الفتح قد وافى ولم يغب

إلى ثنية «بلـزوز» توجين أتــت لمستراح أرحنــاهـا من التعب
ثم ارتحلنـا على اسم الله تـقـدمنا طلائع الفتح في أبرادها القشب
حتى نـزلنا على «دبدو» ووساحته جالت عساكرنا في السهل والهضب
لما بدا للعـداء ألاّ نـجـاة لهـم ولا فـرار وقد أشفوا على الشجب
تضرعوا وأتــوا طوعـا لخـدمتنا بالذل والذعر خشوف الهلك والعطب
وقد عفونـا وان العفـو شيـمتـنـا ومن تـردّى رداء العفـو لم يخب
ونـال من عفـونـا ما كان يأمله «جمو بن زيان» بعد القهر والغضب
ومن هنـاك لـوينـا نحو «ملويـة» وكـم تـركنا بها من منزل خرب
ما كل من قاد جيش الزحف قائده وليس يذكر غير الماجد الـدرب
لما دعونـاك من قـرب فلم تجب علمت قولك بين الهـزل واللعب
ثنيت عنك عنـان العزم محتكما بالرأي والحزم لا عجزا عن الطلب
لابـد من ساعة بيـني وبينكـم تغيب شمس الضحى فيها ولم تغب
وتكتسي الأرض ثوبا كالعقيق ولا تجري الجداول إلاّ من دم سرب
والخيل جائلـة والأسد ذاهلــة والأرض عاريـة من ثوبها القشب
هناك تجـني ثمـارا كنت غارسها وبحـكـم الدهر بالآيات والعجب
ونأخذ الثأر ممن دنـا وقـصـا من العداة وهذا منتهى أربـي
ثـم الصلاة على المختار من مضـر خير البـريـة من عجم ومن عرب

فندم ملك المغرب ووزيره على ما فرطا في جانب «أبي حمو» ، فأرسلا اليه رسولا يسأل السلم . فأجاب «أبو حمو» رغبتهما .

ضاقت «بتدلس» يد الأمير «عبد الله» الحفصي ، فأرسل إلى «أبي حمو» بتسليمها له ؛ ثم عرض ابنته عليه . فتلقى «أبو حمو» ذلك بالبشر وأرسل مع رسوله «مهدي بن عيسى اللؤلؤي» . ووصل إلى باب الأمير «عبد الرحمن بن أبي بفلوسن علي» «وأبو بكر بن رحو بن أبي الطلاق العسكري» في ملإ من قومه «ومحمد بن عبو المنباوي» «ومحمد الزبير بن طلحة بن المظفر العمراني» وكافة رجال المعقل المستصرخين أمير المسلمين على طلب المغرب . فأكرم نزلهم ووعدهم بإبلاغ مناهم . فانصرفوا لإثارة الحرب «بسجلماسة» وما اليها .

وفي سنة 767 هـ ، أرسل «أبو حمو» إلى بني راشد «زيان بن أبي يحي بن ونزمار» وإلى مناداس ووانشريس «إبراهيم بن محمد بن تاجاجيت المصوجي» وإلى شلف «عطية بن موسى» وإلى المدية «وادفل بن عبو بن حمادين» وإلى تادلس «يعيش بن راشد بن الزعيم المجني» وإلى وجدة «موسى بن خالد بن محمد» وأعطاهم الجيوش وامرهم بالحركة .

وكانت وقتئذ دار الصنعة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم . فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك . فتستك لأصواتهم وآلاتهم الأسماع وتحار في إحكام صنائعهم الأذهان وتقف دون بصرهم الهائل الأبصار . ثم تعرض قومتهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة ، ويخزن كل بحجار صنعه المعدّلة ، وينصف العاملون من أرزاقهم عدلا هكذا أبدا (1) أما المعامل الخاصة فكانت كثيرة ومن الطبيعي أن تكثر الصنائع وأن يتأنق أصحابها فيها . فإن العمران قد تزايد ودواعي الترف والثروة قد توفرت في المدينة ، وقد خطا اهلها خطوات شاسعة حثيثة في طريق الحضارة وذلك بمقتضى ناموس التطور الطبيعي من ناحية ، وبعامل الاتصال الدائم بالخارج المتحضر من ناحية أخرى . فقد نعثر الآن في مختلف المتاحف الوطنية على تحف تلمسانية (شكل 28 ، 29) من صفر وخزف ونسيج وتطريز (شكل 30) وحلي تدل على يد عاملة ماهرة ، وفي كثير من الخزانات على مخطوطات قديمة تثبت وجود وراقين كانوا يعانون صناعة انتساخ وتجليد الكتب المعبرة عن اشتغال أهل «تلمسان» بالأمور الفكرية كإخوانهم الأندلسيين والمغاربة والتونسيين وقتئذ .

وفي الرابع والعشرين من شهر محرم سنة 767 هـ ، أرسل «أبو حمو» الفقيه «الشريف التلمساني» «ومحمد بن عمر البريطل» إلى المغرب لإكمال عقد المهادنة . فكان سفرا ميمونا .

ثم صرف وزيره «عمران بن موسى» للقاء كريمته بنت الأمير «أبي عبد الله بن يحي» الحفصي . فامتثل ، ووصل بها إلى الحضرة .

(1) بغية الرواد ج 2 ص : 161 .

ومما يؤسف له أن قاضي الحضرة الفقيه «أبو العباس أحمد بن الحسن» توفي . فاعتاض منه الفقيه «ابا عثمان سعيد بن محمد العقباني» . كان هذا إمام «تلمسان» وعلامتها . ولد بها عام 720 هـ . تتلمذ «لابن الإمام» وأخذ الأصول عن «أبي عبد الله الآبلي» وغيره . وتصدر للإقراء . أخذ عنه ولده «قاسم العقباني وأبو الفضل ابن الإمام وابن مرزوق الحفيد وابراهيم المصمودي وأبو يحي الشريف وأبو العباس أحمد بن زاغو» . ولي قضاء الجماعة «ببجاية» أيام السلطان «أبي عنان» . وناهيك برجل اصطفاه الأمير من بين علماء كثيرين كانت تزخر بهم تلك المدينة ، وولي قضاء «سلا ومراكش» ، وله في هذا الوظيف ما ينيف عن أربعين سنة . ألف شرح الحوفي وشرح جمل الخونجي والتلخيص «لابن البناء» وقصيدة «ابن الياسمين» في الجبر والمقابلة ، وتفسير سورة الفاتحة وشرح البردة . توفي سنة 711 هـ .

وفي نفس الوقت ضيق الأسبان الخناق على «غرناطة» . فاستصرخ ملكها «أبو عبد الله» «بن السلطان الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بن نصر» «أبا حمو» بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه «أبي البركات محمد بن ابراهيم البلفيقي» والقصيدة طويلة نجتزي بذكر مطلعها .

هـل من مجيب دعـوة المستنجـد أم مـن مجـير للغـريـب المفرد ؟

وبكتاب ورسالة من إنشاء الوزير الفقيه الأديب «لسان الدين بن الخطيب» يقول فيها بعد التمهيد : «فإنا كتبناه اليكم ، كتب الله لكم سعدا يداني آمالكم ونصرا يعلي سلطانكم وجهادا ينسب آثاره الصالح إلى أعمالكم وتأييدا يمدّ هذا الوطن بما يعود به الفخر عليكم من حمراء غرناطة ـ حرسها الله ـ وليس إلا ما دهم البلاد من خطب الاعداء وتفاقم الشدة التي قدم العهد بمثلها وما يرجى من لطفه الكريم في تقريب ساعة الفرج وإزالة العسر باليسر وتثبيت القدم على الجهاد في سبيله ، والحمد لله كثيرا كما هو أهله . فليس إلاّ لطفه وفضله واخوتكم الكريمة فضلها معروف وحقها متعين وفخرها في الملوك المجاهدين شهير وعملها الصالح في إمداد المسلمين كريم الأثر لا زالت تحيي معالم سلفها وتجدّد في صالحات ما يعود عليها بالحسنى وزيادة والى هذا ، يا محل أخينا ، وصل الله سعدكم وحرس مجدكم ، فإننا بهذا القطر من المسلمين من لدن أقامنا الله وسلفنا ومن

قبلهم في سبيل المدافعة والجهاد لم نبل شدة أثقل وطأة ولا حادث أمرّ وقعا ولا خطبا أشنع ولا متوقعا أعظم مما تحرك في هذه الأيام وهو أن كبير دين النصرانية الذي لا يُردّون حكمه ولا يعصون أمره لما أعياه شتات أمته وإعانة المسلمين بعضهم على بعض حرك منهم أمة تسدّ الفضاء وتكاثر الحصى لِتعِين الفند على أخيه . فإذا استقل بالملك صار الجميع يدا واحدة على المسلمين ، وقسّم بينهم البلاد وسوغها ، وعاهد الكل الاّ يخاطبون إلاّ من المحال التي عينها والولايات التي حدها والبلاد التي أباحها . ويختص البرجلوني من ذلك بنزول المرية . وتجتمع الأساطيل الحربية على تملك الساحل وقطع الجوار . واتفق رأيهم على إتلاف الغلات المستغلة التي ترمق نفوس هؤلاء العباد الغرباء المنقطعين أهل لا إله إلا الله ، وبالله سبحانه نستدفع ما لا نطيق ، وبالله ندرأ في نحور هذا العدو الكبير ، وبالله نستظهر على هذا الخطب العظيم . ربنا أفرغ علينا صبرا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، ولا مفزع بعد الله لهذه الأمة في الشدائد إلا إلى المسلمين إخوانهم في الدين ورضاعتهم ثدي كلمة التوحيد وشركائهم في إرث الدعوة المحمدية . والفضلاء لا يتهنؤون العيش مع صراخ الجار وضيم أخي الملة ، ولا يلتذون بالنعيم مع بؤس الأحبة . وقد كنا عجّلنا تعريفكم وتعريف الجهة المرينية خروجا عن العهدة وإبلاغا لضرورة الإسلام وتذكيراً بوجوب الإعانة على من يرجو لقاء ربه من المسلمين ، فصدر الجواب منهم بما يرضي القلوب من الإعانة والامتعاض والمساهمة والشروع في المبادرة وتعيين المعونة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . ومثلكم من يتنافس في الخير ويسابل في البر ويرغب في بقاء الذكر وقبول القربة وإرضاء الله في عباده والرسول في أمته وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . نحن لا نملك إلا أنفسنا وقد بذلناها في سبيل الله وقمنا بحق استنفار المسلمين واستدعائهم . فالله الله في المسلمين فما بعد المعيشة من عدار ، ووعد الله حق ، والإسلام يجود بنفسه . فإن لم تنعر الهمم وتعر الأحرار ويقذف الله الحمية في قلوب المؤمنين هلكت هذه الأمة واستؤصلت الكلمة وجهات الإعانة أعظمها النفوس وأدناها الدعوات ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، وما هو إلا أن يطوى البساط ويقع إلى الله سبحانه الانتقال فنجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وقد بعثنا إلى تقرير هذه الضرورة من نعتقد أنه يوفي الغرض فيها لديكم ، ويلقي الحال مفصلا ومجملا

عندكم ، وهو الشيخ فلان وصل الله مبرته وتمم من القبول والعصمة بغيتـــه وهو ـ حفظه الله ـ يشرح ما اقتضه الكتاب ويفسر ما أجمله الخطاب ، والله يطلعه من تلقائكم على ما يعود بالإمداد والإعانة ، ويتولاه بالجمل الذي يسهل مرامه . فلكم الفضل في تلقي وفادته عليكم بما يشرح صدره وييسر أمره ويصل العادة الجميلة من إعانة المسلمين ونصر كلمة الدين بما هو الخليق بمجدكم الأصيل والمنسوب على فخركم الملوكي وكرم عائلتكم السلطاني . والله سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام» (1) . فامتعض «أبو حمو» لدين الإسلام . فأمدهم بالأحمال العديدة من الذهب والفضة والخيل الموسومة والمراكب المشحونة زرعا . فكتب «أبو عبد الله محمد بن نصر» إلى «أبي حمو» مثنيا شاكرا ومعترفا مادحا من إنشاء الفقيه «أبي عبد الله بن الخطيب» . فالرسالة طويلة فنجتزي بما نصه : «إلى السلطان الأكرم «أبي حمو» أبقاه الله شهيرا في الله امتعاضه ، فائضة لوراد الآمال الظماء حياضه ، سمحتم بالأموال الجمّة ، وقد حتم زناد الحمية والهمة وساهمتم دينكم في الشدائد الملمة ووفيتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذمّة وراعيتموه في هذه الأمة ولم تقنعوا بإجابة الداعي وإخلاص المساعي وأعمال المتاجر الرابحة والشروع في إنشاء الأساطيل السابحة وتعيين الحصص وإزالة الغصص حتى خاطبتم مظنات الانتصار ومن يجاوركم من ملوك الأمصار وأطلقتم لسان العز بالله في مقامات الاستغفار وسهلتم السبيل إلى ذلك على النفوس التي لا ترضى بالعار والهمم التي لا تدين بحماية الذمار . كافى الله لكم هذه الأعمال فبمثلها يبأى ويفخر ، والوسائل إلى الله التي مثلها يقتني ويذخر ... ونحن نصرف أعنة الثناء عليكم فقد تكفل الله به وهو الغني الشكور ، ونغري ألسنة الأقلام بهنائكم ما اعتقب الرواح والبكور . فلنهنئكم مزية السبق إلى إجابة دعوة الحق وليهنكم وصف الزعامة والصرامة ، وبداركم إلى هذه الكرامة ، وليهنكم ثناء الناس على قيامكم من الجهاد بفرضه وحبهم إياكم وهم شهداء الله في أرضه . فأنتم اليوم واحد الأحد رعاية للمهمل واتساما بالعلم والعمل . سياستكم في التدبير سديدة وأواخي الحزم منكم شديدة وآراؤكم حميدة ومقاصدكم مبدية في الخاصة والعامة معيدة . جمعتم القبيل لما افترق وصابرتم الهول عندما طرق وجددتم الرسوم

---

(1) بغية الرواد جـ 2 ص : 171 .

الدارسة ، وأوضحتم السبيل الطامسة . فحق على من لديكم أن يغتبطوا منكم بما منحوه من يمن النقيبة وإحماد الضريبة ومخول الصنائع الغريبة . حفظ الله كمالكم وسنى من فضله آمالكم» (1) فبفضل هذا المدد الذي تقاطر على أهل «غرناطة» من المغرب العربي أمكنهم أن يصدوا العدو ويسترجعوا حصونا وأمصارا .

فهذه الأموال التي أعان بها «ابو حمو» الأندلس تدل على رفاهية البلاد وعلى ذلك الاستقرار الذي كانت تتمتع به . إلا أن هذا الاستقرار لم يلبث أن تضعضع من جراء قيام «أبي زيان» على الخليفة وخداع القبائل ونفاقهم . قصد «أبو زيان» «المدية» بمظاهرة حصين والعرب . فأنهض اليه «أبو حمو» وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث ببني عبد الواد وأحلافهم من توجين وبني راشد ، وقائده «عطية بن موسى بن فارس» بجيش شلف . ثم أردفهما بالوزير «عمران بن موسى بن فارس» بكتائب الحضرة . ولكن هؤلاء القواد لم يتمكنوا من القضاء على الثوار بل انهزموا بحيث خرجت البلاد الشرقية عن طاعته . فلم يتصل خبر الهزيمة «بأبي حمو» حتى بعث ولده «أبا تاشفين» بعسكر لجب لاستجاشة سويد والديالم والعطاف ، ودعا الشيخ «عثمان بن مسلم الزردالي» يشد ساعد ولده . لكن هذا الشيخ لم يلبث أن انفصل عن «ابي تاشفين» ومال إلى «محمد بن ابي زيان» . فالف «أبو حمو» جيشا وقصد الثوار ، ولكن الدائرة دارت عليه ، ولم يسعه إلا العودة إلى الحضرة فأجمع الثوار على الاقدام «بمحمد بن أبي زيان» على الحضرة . فانضم اليهم في طريقهم جميع الناس . فجمع «أبو حمو» ما كان لديه من العسكر وباغث أعداءه ، فشتت شملهم . وفي اليوم السادس من ذي القعدة خرج إلى الصفصيف وبعث إلى عربه بالنهوض ، ونادى بالناس ، فأخذوا السلاح وأخذ السير وراء المخالفين . فنشبت الحرب بين الطرفين ، فانتصر «أبو حمو» . فخاب أمل «محمد بن أبي زيان» وأشياعه . فبادر عرب سويد والديالم والعطاف وبنو يعقوب إلى الطاعة ، فقصدوا السلطان ملتمسين الرضا والأمان . فعفا عنهم .

وكان «ابو حمو» قد بلغه خروج «عبد الرحمن بن خلدون» من «بجاية» وما أحدثه السلطان الحفصي بعده في أخيه واهله . فكتب إليه يستقدمه قبل هذه

---

(1) بغية الرواد ج 2 ص : 174 .

الواقعة . فتفادى «عبد الرحمن» بالاعتذار وأقام باحياء «يعقوب بن علي» ، ثم ارتحل إلى «بسكرة» ، فأقام بها عند أميرها «أحمد بن يوسف بن مزني» .

فلما وصل «أبو حمو» إلى «تلمسان» أخذ في استئلاف قبائل رياح ليجلب بهم مع عساكره على أوطان «بجاية» . وخاطب «عبد الرحمن بن خلدون» في ذلك لقرب عهده باستتباعهم وملك زمامهم . ورأى أن يعوّل عليه في ذلك ، واستدعاه لحجابته وعلامته . وكتب الرسالة بخطه فقال : «الحمد لله على ما أنعم والشكر على ما وهب . ليعلم الفقيه المكرم «أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون» ، حفظه الله ، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم لما اختصصتم به من الرتبة المنيعة والمنزلة الرفيعة وهو قلم خلافتنا والانتظام في سلك أوليائنا أعملناكم بذلك (1) .

وكتب الكاتب إلى «عبد الرحمن بن خلدون» الرسالة التالية يوم السابع عشر من رجب سنة 769 هـ : «أكرمكم الله ، يا فقيه «ابا زيد» ووالي رعايتكم . إنّا قد ثبت عندنا وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا والانقطاع إلى جنابنا والتشيع قديما وحديثا لنا مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم ومعارف فقتم فيها نظراءكم ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية . وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي ـ أسماه الله ! ـ أكبر درجات أمثالكم وأرفع الخطط لنظرائكم قربا منا واختصاصا بمقامنا واطلاعا على خفايا أسرارنا ، آثارناكم بها إيثارا وقدمناكم لها اصطفاء واختيارا . فاعلموا على الوصول إلى بابنا العلي ـ أسماه الله ـ لما لكم فيه من التنويه والقدر النبيه حاجبا لعلي بابنا ومستودعا لأسرارنا وصاحب الكريمة علامتنا إلى ما يشاكل كل ذلك من الإنعام العميم والخير الجسيم والغناء والتكريم لا يشارككم مشارك في ذلك ولا يزاحمكم أحد وان وجد من أمثالكم . فأعلموه وعوّلوا عليه والله تعالى يتولاكم ويصل سراءكم ويوالي احتفاءكم والسلام ورحمة الله وبركاته» .

وصلت هذه الرسالة على يد سفير من وزراء «أبي حمو» إلى أشياخ الدواودة في هذا الغرض . فقام «عبد الرحمن» في ذلك أحسن مقام وشايعه أحسن مشايعة ، وحملهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته . وانحرف كبراؤهم عن

(1) كتاب العبر ج 7 ص : 902 .

خدمة السلطان «أبي العباس» الحفصي إلى خدمته والأعمال في مذاهبه . واستتام غرضه من ذلك . وكان أخوه «يحيى» خلص من اعتقاله «ببونة» ، وقدم عليه «ببسكرة» . فبعثه إلى السلطان «أبي حمو» كالنائب عنه في الوظيف متفاديا عن تجشم أهوالها بما كان نزع عن غواية الرتب . وطال عليه إغفال العلم فأعرض عن الخوض في أحوال الملوك ، وعاد الى المطالعة والتدريس ، فوصل «يحي» الى «تلمسان» ، فاستكفى به الملك في ذلك .

ورغم مشايعة عبد الرحمان بن خلدون «لأبي حمو» وايلاف ما بينه وبين الدواودة انهزم الملك أمام «أبي العباس» و «محمد بن أبي زيان» وحلفائه زغبة ، ورجع إلى «تلمسان» . ولم يزل «ابو حمو» بعد ذلك في استئلاف زغبة ورياح يؤمل الظفر بابن عمه «محمد بن أبي زيان» ، وفتح «بجاية» حتى دخلت زغبة في طاعته واجتمعوا ورياح على خدمته . فنهض «حينئذ» من «تلمسان» لشفاء نفسه من حصين «وبجاية» وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعمائة . فوفد عليه «عبد الرحمن بن خلدون» بالبطحاء وصلى به عيد الفطر وخطب به وأنشده عند انصرافه من المصلى يهنئه بالعيد ويحرضه :

هذي الديار فحيهن صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال ان لم تروها	عبرات عينيك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا	أن لا يرين مع العباد سحاحا
ايه عن الحي الجميع وربما	طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

....

ومنازل للظاعنين استعجمت	حزنا وكانت بالسرور فصاحا

والقصيدة طويلة نكتفي بهذه الأبيات منها .

فدخل «يحي» في خدمة الملك . وأقبلت ليلة الميلاد النبوي . فاحتفل «أبو حمو» كالمعتاد بمدعاها . وأبى كاتبه الجديد إلا أن يبين مقدرته في ميدان القريض ، فقال مطولة مدح فيها النبي ثم «أبا حمو» . فوقعت في نفس الممدوح الموقع الجليل . فأمر «أبو حمو» حاجبه أن ينظم شعرا على لسان الجواري المعرفات ساعة المنجانة الغريبة التي سبق الحديث عنها . فقال :

الساعة الأولى

المتقارب :

أمولى الملوك وأعلى الأمم ... ومن جوده العالم الكل عَم
مضت ساعة ليث لو تنثني ... فإن الحياة بكم تغتنم
ولله وجهك لما بدا ... وقد خلته البدرَ في الأفق ثم
عليه لأجل التقى هيبة ... وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى ... سرورا لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه ... ففعلك هذاعلى ذاك نم
فنلت السعادة دنيا وأخرى ... وجزت المفاخر دون الأمم
فدم ما حييت لنا ملكا ... تطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية

الكامل :

أخليفة الرحمن والملك الذي ... تعنو لعزّ علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي علا ... بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهرا ... وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت ... تثني عليك ثنا الرياض على المطر
لازال هذا الملك منصورا بكم ... وبلغت مما ترتجي أسنى الوطر

الساعة الثالثة

المتقارب :

أمولاي ، يا ابن الملوك الأولى ... لهم في المعالي سَنِي الرتب
تولّت ثلاث من الليل أبقت ... لك الفخر في عجمنا والعرب
فدم حجة الله في أرضه ... تنال الذي شئته من أرب

الساعة الرابعة

المجتث :

يا واحدا في المعالي ... ومالك الفضل أجمع

مـولاي دمـت عليـا ... مضت لليلك أربع
لازلت تفنى الاعادي ... وللمفاخر تجمع

الساعة الخامسة

الرمل :

يا أمير المسلمين ... وجمال العالمينا
والذي حاز المعالي . ... كلها دنيا ودينا
قد مضت لليل خمس ... حسنها راق العيونا
وانقضى النصف فآه ... هكذا تمضي السنونا
دمت في عز وسعد ... خالد الملك مكينا

الساعة السادسة

المجتث :

يا واحدا في علاه ... من بأسه في عساكر
ست من الليل ولت ... ما ان لها من نظائر
دامت لياليك حتى ... إلى المعاد نواضر

الساعة السابعة

يا من له الفضل طبع ... والفخر فيه سجيه
مرت من الليل سبع ... ما ان لها مثنويه
لازالت والشمس جمع ... يعليك رب البريه

الساعة الثامنة

يا أكرم الخلق ذاتا ... وأشرف الناس أسره
مرت ثمان وأبقت ... في القلب مني حسره
فبهن كان شبابي ... أخا نعيم ونضره
ولى بها الدهر عني ... ترى لها بعد كره
فيالله يبقيك مولى ... يطيل في السعد عمره

الساعة التاسعة

البسيط :

يا أوحد الناس في مجد وفي شرف	وأفضل الخلق في باس وفي كرم
مولاي ، تاسعة الساعات قد ذهبت	والليل من بعدها قد عاد ذا هرم
كذا يمرّ ولا ندري الزمان بنا	وينقضي العمر في اللذات والندم
من كان ذا عمل في البر مثلكم	يا فوزه يوم تخشى زلة القدم
لازلت ذا عزة والملك ذا شرف	بكم وأنتم مدى الأيام في نعم

الساعة العاشرة

يا ملك الخير والخيل التي حكمت	له بعز على الأيام مقتبل
هذا الصباح لقد لاحت بشائره	والليل ودّعنا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة	مضين لا عن قلى منا ولا ملل
كذا تمر ليالي العمر راحلة	عنا ونحن من الآمال في شغل
نمسي ونصبح في لهو نسر به	جهلا وذلك يدنينا من الأجل
والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفي	عليه اذا مر في الآثام والزلل
يا ليت شعري غدا كيف الخلاص به	ولم نقدم له شيئا من العمل
يا رب عفوك عما قد جنته يدي	فليس لي بجزاء الذنب من قبل
يا رب انصر أمير المسلمين «أبا	حمو» الرضى وأنله غاية الأمل
وابق في العز والتمكين مدته	وأعل دولته الغراء في الدول

وبعد هذا الميلاد وصل إلى «تلمسان» عرب المغرب كافة أولاد حصين والعمارنة والمنبات طرداء خوف ملكهم «أبي فارس عبد العزيز» متذممين «بأبي حمو» . فأجابهم وأكرم مثواهم .

وافى «أبا حمو» الخبر أن «أبا زيان» القائم عليه رجع إلى حصينه بمظاهرة «أبي بكر بن عريف» . فخرج إلى الثائرين . فشتت شملهم ورجع إلى حضرته . ولم يسترح حتى أرسل «محمدا البريطل» إلى السلطان «أبي فارس» ملك «فاس» في شأن المهادنة . ثم جاء المولد النبوي ، فاحتفل كالمعتاد . فأنشد «محمد بن يوسف الثغري» مطولة يمدح النبي صلى الله عليه وسلم قائلا :

فيا نسيما سرى في الطيب منغمسا مجررا ذيله في كل بستان
مغازلا لخدود الورد يلثمها ملاعبا لقدود الرند والبان
مصاحبا لرياحين الربى سحرا وساحبا من عليها فضل اردان
قبّل ثرى روضة حل الحبيب بها بل جنة عرفها روحي وريحان
وقل غريب بأقصى الغرب أقصدها سهم البعاد فهل للقرب من آن

ثم يسترسل شعره فيقول في «أبي حمو» :

موسى الخليفة والاجماع منعقد عليه لم يختلف في فضله اثنان
كأنه للورى روح وهم جسد ولا حياة بلا روح لجثمان

وأنشد «يحيى ابن خلدون» هو الآخر قصيدة مدح فيها أولا النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

هو المصطفى والمجتبى سيد الورى وأكرم مبعوث إلى العجم والعرب
أتى بالهدى يمحو الضلال نهاره فأشرق صبحا لا يميل إلى الغرب

ثم التفت إلى «أبي حمو» فقال :

شريف ملوك الأرض فرعا ومحتدا وأكملهم في الجنس والفصل والكسب
هو القطب والأملاك شهب سمائه وهل دارت الشهبان إلاّ على القطب؟

وبعد المولد وصل إلى قصر «أبي حمو» «محمد بن عمر البريطل» «وحسون بن علي الصبيحي» رسولين من السلطان «أبي فارس عبد العزيز» ملك المغرب لاقتضاء الصلح والتماس طرد معقل الخارجين عليه . فلم يقبل «أبو حمو» هذا الشرط . وهؤلاء العرب كانوا على بيعة «محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق» . فكساه «أبو حمو» شارة الملك وأرسله صحبة هؤلاء العرب لحصار «سجلماسة» ، وملك المغرب يومئذ محاصرا «لعامر بن محمد الهنتاتي» الثائر عليه بمراكش . واثر ذلك ، نادى «أبو حمو» الناس بالحركة ، وقدم الكتب لكافة قبيله وأحلافه وسائر الجيوش يأمرهم بالنهوض واللحاق به . وفي يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الثاني من سنة 771 هـ (2 أيلول 1369 م) نهض يغذ السير إلى أن بعث الثعالبة بمتيجة وأخذ بمخنق «الجزائر» .

ولما كان بتاسلة في عودته ، ورد عليه الخبر بأن ملك المغرب «أبا فارس» قد أخذ «عامر بن محمد الهنتاتي» وعاد إلى «فاس» داعيا قومه إلى الحركة شرقا امتعاضا لرفض «أبي حمو» اقتراحاته وإيجافه على «سجلماسة» «لمحمد المريني» ومعقل . وتمادى السلطان إلى البطحاء وضمّ بها جنوده الشرقية كافة وقبيل بني عامر بأسره ، وثنى العنان للقاء ملك المغرب ، وعسكر ظاهر الحضرة أول ذي القعدة (27 أيار 1370 م). وخيم «بنو عامر» بالصفصيف . وفي سنة 773 هـ جمع «أبو فارس» جيشا عرمرما قاصدا «تلمسان» . فدخلها ، ولكنه لم يجد شيئا من ذخائر «أبي حمو» . فقد احتل كل ما اشتمل عليه قصره من مال وحرم وذخائر وفرس . فبقي «أبو حمو» يتنقل في أحواز الصحراء ، ولقي من الأهوال والشدائد بعدما كانت الحياة متواتية له من لذاتها وينعم بمسراتها دون أن تلهيه عن القيام بما يضمن للبلاد استقلالها ورفاهيتها . وقد أنشد قصيدة بعد حلوله «بتاجورارين» يشكو في مطلعها الزمان الذي خطر عليه مواصلة التمتع بالعيش الرغد في عراص مسجورة بالزهر والورد بين الحسان وألزمه أن يحيى حياة الشظف في الفيافي واصطناع السيف في رقاب أعدائه والنابذين بحرمة العهود ، ونجد هذه القصيدة في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري ص : 216 . إليك مطلعها :

قف بالمنازل وقفة المتردد ما بين نأي بالطلول وموقد

«ولأبي حمو» نفس كبيرة لا تعرف اليأس . فعللها بقوله :

يا نفس لا تيأس وإن طال المدى فالله يجمع شمل كل مبعد
ستعود أيام السرور وطيبها وتعود عن قرب ليالي الأسعد

فلم يخب أمل «أبي حمو» ، فقد أشفق الله عليه بالقضاء على عدوه . فقد مات يوم 23 من ربيع الثاني سنة 774 هـ (20 تشرين 1373 م) وكان مصابا بمرض السل . فقام بدعوة «أبي حمو» مولاه «عطية بن موسى الركاب» . وقد تغلب على دولة مرين وزيرها «أبو بكر بن غازي بن الكاس» بشبهة بيعة ولد السلطان «أبي فارس» الخامس السن . فصرف «أبو بكر بن غازي» أحلافهم من مغراوة وألبس «إبراهيم» ابن السلطان «تاشفين» شارة الملك عوض «أبي حمو»

وارتحل مغربا بقومه . فلم يقبل أهل «تلمسان» «إبراهيم» . فنازلهم ليالي قاتلوه فيها إلى أن يئس وانصرف . فوصل حينذاك إلى الحضرة «الحاج موسى بن علي بن برغوث» والخونة «محمد بن عمر البربطيل» «ووادفل بن عبو بن حمادين» «وسعيد بن تاصلت» . فمنعهم الناس من الدخول اليها حتى أحلفوهم بمؤكدات الايمان ألتزام بيعة «أبي حمو» . وفي جمادى الأولى من نفس السنة (3 أيلول 1373 م) ورد على الخليفة «عبد الله بن شيقر» يبشره بما وقع بالحضرة . فارتحل «أبو حمو» قاصدا دار ملكه . وفي 22 من جمادى دخل «تلمسان» ، فشرع في لمّ شعث جيوشه وإيلاف العرب الشرقية والغربية ، ونهض لاستئصال مغراوة لمظاهرتها بني مرين .

ولم يتصل سلطان «غرناطة» ، «أبو عبد الله محمد الغنى بن أبي الحجاج» بعودة «أبي حمو» إلى دار ملكه حتى أرسل رسولا يهنيه ويقدم له هدية حافلة . فأكرم نزله وأرجعه بما يناسب تودده من الشكر (1) . ووجه اليه «لسان الدين ابن الخطيب» أبياتا لزومية في عرض الهناء أيضا وهي :

وقف الهواء على ثناك لساني	رعيا لما أوليت من إحسان
فكأنما شكري لما أوليته	شكر الرياض لعارض النيسان
أنا شيعة لك حيث قضية	لم يختلف في حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت في	ميدان نصرك فارس الفرسان
ورويت غر مآثر أسندتها	لم تتفق لسواك من إنسان
الشمس أنت قد انفردت وهل ترى	بين الورى في مطلع شمسان
جبرت بجبرك كل نفس حرّة	وشدا بشكر الله كل إنسان
وبدت سعودك مستقيما سيرها	وعلت ففرّ أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافرا	عن أي وجه للرضى حسان
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق	بمضاعف الأنعام والإحسان
فالشكر يقتاد المزيد ركائبا	فتتاب بابك منه في أرسان
ثم السلام عليك يزري عرفه	طيبا يعرف العود والبلسان

(1) بغية الرواد ج 2 ، ص : 276 .

وهذه المقطوعة ليست الأولى ولا الأخيرة . فقد أرسل إلى «أبي حمو» قصيدة سينية فائقة ، لولم تكن طويلة لأتيناك بها فنكتفي بذكر مطلعها :

أطلعن في سُدَف الظلام شموسا   ضحك الظلام لها وكان عبوسا

وأعقبها بنثر بليغ يدل على مكانته في الكتابة وطول باعه في اللغة . ويقول «المقري» : «إنه فعل ذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه . فجعل هذه الرسالة مقدمة بين يدي نجواه لتمهّد له مثواه وتحصل له المستقر إذا ألجاه الأمر إلى المفرّ . ويقول «يحيى بن خلدون» : ان «ابن الخطيب» فعل ذلك عند استشعار المخافة من أهل المغرب» . ونحن نؤيد قول «المقري» لأن القصيدة وردت على «أبي حمو» «وابن الخطيب» لم يزل وزيرا بالحمراء . فالقصيدة التي أرسلها إلى «أبي حمو» وهو في المغرب هي تلك الميمية الغرّاء التي تزيد على المائة والعشرين بيتا والتي يستصرخه فيها ويستشفع به عند السلطان «الغني بالله أبي عبد الله محمد بن نصر» ، إلا أن الحال عاجله ، وقتل في السجن وذلك في سنة 772 هـ . فقال في مطلعها :

أما لو علمنا انه ينطق الرسم   ولم يبق يوما من مسمّاه إلا اسم
وأن سؤال الربع ينقع غلة   فيحصل من أنباء من ظعن العلم
لطال وقوف واستهلت مدامع   وبث غرام طالما صانه كتم

ولم يمدح «لسان الدين» «أبا حمو» فقط ، فإنه قال في «تلمسان» :

حيا «تلمسان» الحيا فربوعا   صدف يجود بدرها المكنون
ما شئت من فضل عميم ان سقى   أروى ومن ليس بالممنون
أو شئت من دين اذا قدح الهدى   أورى ودنيا لم تكن بالدون
ورد النسيم لها بنشر حديقة   قد أزهرت أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أم يحيى (1) أنجبت   فلها الشغوف على عيون العِين

وقد وصفها بقوله : «تلمسان» مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه

---

(1) يعني بحبيبة ام يحيى عين ماء تلمسان الذي هو من أعذب المياه وأخفها . وكانت جارية بالقصور السلطانية . ولم تزل إلى وقت المقرّي بقية آثار ورسوم .

وأعلاجه ، عبادها يدها وكهفها كفها ، وزينتها زيانها وعينها أعيانها . هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد ، حجبتهما أيدي القدرة عن الجنوب ، فلا تحوّل فيها ولا شحوب ، خزانة زرع ومسرح ضرع . فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رقاق رفاع ، إلاّ أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصيد في جوف القرا ، مغلوبة الأمراء . أهلها ليست عندهم الراحة ، إلا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة إلاّ لمن أقام رسم الفلاحة . ليس بها عقارب إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة إلاّ فيمن ارتكب الخطارة .» وفي نفس سنة 776 حذق «أبو زيان محمد» نجل «أبي حمو» سورة البقرة .فأقام الملك مدعى كريما وعرسا حافلا جمعت فيه الأشراف والمشروف والرفيع والوضيع ، ونودي في أرباب الغناء والعزف والطبرخانات والكريخ وغيرهم بالمدينة حاشرين . فاجتمعوا بمشور داره الكريمة يروقون الأبصار ويبهجون الأسماع .. وجيء بخوانات الطعام العديدة من كل ما حلا في الفم وحلي في العين . فطعم الناس (1) . فرفع يومئذ «الثغري» قصيدة قال فيها:

تهلل وجه الروض وابتسم الزهر ... وغارت في أفقها الأنجم الزهر
وضاحكت الأرض السماء مسرة ... وقابلها من كل ريحانة ثغر
ومالت قدود القضب زهوا كأنها ... نشاوى تمشت في معاطفها الخمر
وغنت قيان الورق خلف ستورها ... وللورق ان غنت بأوراقها ستر
أجدت سرورا في صنيع خليفة ... أتاحت له الأقدار ما يقتضي القدر
لمولاي موسى أبدت الأرض زينة ... فتوجّها زهر ووشّحها نهر
وقد رفلت في حلة سندسية ... وشّاها الصبا وشيا ودبّجها القطر
فللروض إيراق بنائله الذي ... غدا الروض منه وهو فينان مخضر
وللزهر إشراق بمحفله الذي ... غدا الدهر منه وهو جذلان مفتر
ولله من يوم أغرّ محجّل ... وأيام مولانا محجّلة غر
به الحسن والحسنى جميعا تجمعا ... تلاقت به البشرى وراق به البشر
وقد سرّ أبناء الملوك بأنسهم ... وناهيك من أنس الملوك إذا سرّوا
أشمس الهدى أطلعت في أفق العلى ... نجوما ولي العهد بينهم البدر

(1) بغية الرواد ج 2 ص : 310 .

«أبو تاشفين» سيف دولتك الذي ... به تفخر العلياء أو يعتلي الفخر

له السؤدد المأثور والمجد والعلا ... له الكرم المشهور والنائل الغمر

أمير رضى أرضى الخلافة أمره ... فقد فاز بالرضوان ممن له الأمر

تلاه أخوه في علاه وإنه ... لمنتصر بالله عز به النصر

وان «أبا زيان» زين لذاته ... زكا منه نجل حين طاب له نجر

وقد حذق القرآن حذق مجرد ... فأشرق منه القلب وانشرح الصدر

وهشت له الجوزاء تخدم حفله ... وقد شد من عقد النطاق لها خصر

ويتلو كتاب الله والله حافظ ... لتالي كتاب الله ما حفظ الذكر

وقرّة عين المجد يوسف صنوه ... بهديهما العلياء شد لها أزر

وكوكب أفق السعد خامسهم أبو ... علي علا في المعلوات له قدر

وناصرهم يتلوه «عثمان» واقتدى ... بفارس عبد الله فانتظم الدر

فيا ملكا خاضت أشعة نوره ... فأشرق منها للعلى أنجم زهر

ليهنئك أبناء بنيت بهديهم ... من الدين أركانا يُهدّ بها الكفر

بهم تزدهي الأعلام والبيض والقنا ... كما أزدهت الأقلام واللوح والحبر

فما منهم إلاّ أمير مؤيد ... وما منهم إلاّ رضى ماجدٌ بر

جمعتهم لدى القصرين كل فضيلة ... سما لكم في الخافقين بها ذكر

مآثر شتى من قرى وقراءة ... تضمن منه كل مأثرة قصر

فمن صدقات غار جودها الحيا ... وفيض هبات غاض في جودها البحر

دعوتم إليها كل باد وحاضر ... فلبّوا كأن الناس ضمّهم الحشر

كأن الثريا نحوكم مدّ كفّها ... فمن نيلكم في كفها ورق وفر

كذا تبتني العليا ويذخر الثنا ... وتكتسب الزلفى ويغتنم الأجر

مكارم لا تنفك تزداد جدة ... على الدهر لا تبلى وان بلي الدهر

فدامت بك الأيام تظهر حسنها ... فيحسن في أوصافها النظم والنثر

ودونك من در الدراري قوافيا ... فيا من رأى الشعري بنظمها الشعر

قواف قفت اثر النجوم مناهجا ... فليس بمقفيّ لها أبدا أثر

وما هي إلاّ بكر فكر تبرّجت ... وفي لفظها درّ وفي لحظها سحر

مخبرة من قال مستخبرا لها ... سلي هل لديها من مخبّرة ذكر

وفي أواخر أيام شعبان عزم «أبو حمو» على استنابة ولده «أبي تاشفين» وقصر النظر في الملك عليه وإطلاق يده على السيف والقلم والخراج والحكم ، فأمر أن يكتب بذلك صك . فامتنع «أبو تاشفين» من قبول ذلك .

وفي 26 من شعبان سنة 776 هـ فتحت جيوش «أبي حمو» «تدلس» . فجاء أعيانها إلى «تلمسان» في 9 رمضان سنة 776 هـ (13 شباط 1375 م) يبايعونه . فهنأه حينئذ الكاتب «أبو الفضل بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي العصامي» .

بشرى كمنبلج الصباح المسفر	أو كالصباح جاءت بريا العنبر
حياك عاطر نشرها فكأنها	دارين أهدت طيب مسك أذفر
جاءتك تخبر بالفتوح كريمة	أكرم بها من قادم ومبشر
وافت بفتح «تدلس» لك مالكي	فاهنأ بملك بالفتوح مؤزر
«فتدلس» تقضي بفتح «بجاية»	فانهض بعزك أو بسعدك تظفر
واكرع بواديها وجل ببديعها	وربيعها الزاهي بذاك المنظر
واقرع معاقلها وجس بخلالها	فالله يمنحها بأمر أيسر
لازلت ذا سعد جديد ترتقي	أوج الكمال على توالي الأعصر
وبقيت في العز المكين مؤيدا	مهما سرت نفحات روض مزهر

ورفع أيضا في ذلك أحد زملائه وهو «محمد بن علي بن قاسم المرسي» قصيدة مطلعها :

مولى الملوك واحد الخلفاء	ومقر كل مجادة وعلاء

أما «محمد بن يوسف القيسي الثغري» فقد رفع القصيدة الدالية الرائعة التي سبق لنا ان ذكرناها حيث تحدثنا عما جادت به قرائح الأدباء في مدح تلمسان ص : 150 .

كثر حساد «ابن الخطيب» وسعوا بينه وبين ملكه ، فتنكر له . فخاف «ابن الخطيب» ونزع عنه الى «عبد العزيز»سلطان المغرب . فتقبله السلطان وقربه فبعث «ابن الأحمر» إلى «عبد العزيز» بهدية لم يسمع بمثلها من متاع الأندلس وما عونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره

«ابن الخطيب» اليه . فأبى «عبد العزيز» . ولما هلك هذا واستبد الوزير «ابن غازي» بالأمر خاطبه «ابن الأحمر» في «ابن الخطيب» بمثل ما خاطب «عبد العزيز» فرفض وأساء . فنهض «ابن الأحمر» ينتقم منه . فخلع على «أبي العباس بن أبي سالم المريني» وأمده بعسكر من غزاة الأندلس أعطاه مالا يستعين به على أمره وبعث رسله إلى الأمير «عبد الرحمن بن أبي يفلوسن» باتصال اليد بابن عمه «أبي العباس أحمد» ومظاهرته على ملك أسلافه بفاس . فشخص «أبو العباس» إلى عاصمة المغرب ودخل إلى البلد الجديد سابع محرم سنة 776 فقبض على «ابن الخطيب» وأودع السجن ثم قتل خنقا في محبسه . وفي الغد دفن بمقبرة باب المحروق .

إرتحل «عبد الرحمن» إلى «مراكش» كما جرى الاتفاق بين الرجلين . فلم يلبث أن تغير الجو بين «أبي العباس» «وعبد الرحمن» . فارتحل «أبو العباس» إلى «مراكش» وحاصرها . فأرسل «عبد الرحمن» ابن عمه «أبا العشائر منصورا» إلى «يوسف بن علي» وقومه ليجلبوا به في المغرب ، فيضطر «أبو العباس» أن يرفع الحصار عنه . ولما قدم «أبو العشائر» على «يوسف» سار به إلى «تلمسان» مستجيشا بالسلطان «أبي حمو» ضد «أبي العباس» بما كان بينه وبين الأمير «عبد الرحمن» من العهد بذلك . فبعث «أبو حمو» معهم ابنه «أبا تاشفين» في بعض عساكره . فوصلوا إلى أحياء العرب ، فدخلوا أحواز مكناسة وعاثوا فيها . وكان السلطان عند سفره إلى «مراكش» استخلف على دار ملكه «بفاس» «علي بن المهدي العسكري» في جماعة من الجند . فاستنجد «بونزمار بن عريف» شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحيائه بنواحي ملوية . فساروا جميعا لمدافعة العدوّ بنواحي مكناسة ، فأمكنهم أن يصدّوهم عن متابعة زحفهم على «فاس» . وقصد «أبو حمو» فيما بقي له من العساكر مدينة تازة ، وحاصرها ، وخرب قصر الملك هناك ومسجده المعروف بقصر تازورت . وبينما هم على ذلك إذ بلغهم الخبر بفتح مراكش وقتل الأمير «عبد الرحمن» . فأجفلوا من كل ناحية . ورجع «أبو حمو» من «تازة» قاصدا «تلمسان» ومرّ بقصر ونزمار «بمرادة» فهدمه .

لما عاد «أبو العباس» الى «فاس» أخبر بما فعل العرب «وابو حمو» بالمغرب . فقام ينتقم على «أبي حمو» فنهض إلى «تلمسان» فاتصل خبره «بأبي حمو» ، فاعتزم على الحصار ، وجمع أهل البلد ، واتفقوا على المقاومة . إلا أن «ابا حمو» خرج



في بعض تلك الليالي في ولده وأهله وخاصته ، وأصبح مخيما بالصنفصيف . فقصده أهل المدينة مستمسكين به متفادين من معرة هجوم عساكر المغرب . فلم يسمع لهم ، وارتحل الى البطحاء ، ثم قصد بلاد مغراوة . فنزل في بني بوسعيد قريبا من شلف وأنزل أهله بحصن تاجحمومت . فوصل أثناء ذلك «أبو العباس» إلى «تلمسان» ، فملكها واستقر بها أياما ثم هدم أسوارها وقصور الملك وكانت لا يعبر عن حسنها ، اختطها «أبو حمو» الأول وابنه «أبو تاشفين» الأول واستدعيا لها الصناع والفعلة من الأندلس . فبعث إليهما السلطان «أبو العباس الوليد» صاحب «غرناطة» بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس ، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم ان يأتوا بمثلها ، وذلك باغراء وليه «ونزمار» جزاء بما فعله «أبو حمو» من تخريب قصر تازروت . ثم خرج في اتباع «أبي حمو» ونزل على مرحلة من العاصمة الزيانية . فاتصل به هناك خبر لم يكن له في الحسبان. فان «موسى» ابن عمه «أبي عنان» أجاز من الأندلس إلى المغرب وأنه خلفه إلى دار الملك . فانكفأ من حينه راجعا وأغذ السير إلى المغرب . فتنفس «أبو حمو» الصعداء فرجع إلى «تلمسان» واستقر في ملكها متأسفا على ما قام به «أبو العباس» من التخريب والإتلاف .

كان للسلطان «محمد بن الأحمر» المخلوع تحكم في دولة السلطان «أبي العباس بن أبي سالم» صاحب المغرب بما أمده من مدد العساكر والأموال حتى أتم أمره واستولى على البلد الجديد . وكان قد أجاز «أبو العباس» إلى الأندلس أسباط السلطان «أبي الحسن» من ولد «أبي عنان» الذين كانوا معتقلين «بطنجة» حتى لا يزاحموه . فنزلوا على السلطان «ابن الأحمر» . فأنزلهم بقصور ملكه بالحمراء ، وأغدق عليهم الأموال ، ووسع عليهم الجرايات ، وأقاموا عنده . ولما نهض السلطان «أبو العباس» إلى «تلمسان» ، وتمّ الفتح ، وصل الخبر إلى ابن الأحمر ، وكانت الصلة وثيقة بينه وبين «أبي حمو» . فغضب وجهز «موسى» ابن السلطان «أبي عنان» من الأسباط المقيمين عنده واستوزر له «مسعود بن رحو بن ماساي» وبعث معه عسكرا . فدخلوا «فاس» . فلم يقدر «محمد بن حسن» على صده ، فلم يرَ بُدّاً من أن يبادر بطاعته . فدخل السلطان «موسى» إلى دار ملكه وجلس على العرش ، وذلك في عاشر ربيع الأول من سنة 786 . فجاء

الناس من كل فج يقدمون طاعتهم وولاءهم إلى الملك الجديد. وصل «أبو العباس» ، ولكنه فاته الوقت . فكانت دار الملك في يد السلطان «موسى» . فانفض من حوله عساكره ، وقبض عليه وقيّد ثم بعث إلى الأندلس . فأنزله «ابن الأحمر» بقلعة ملكه الحمراء ، وفك قيوده ، ووكّل به ، ووسع له الجراية .

أصبح «أبو حمو» ، كما ترى ، درة المجد تطيعه البلاد كلها طاعة أرغمت أنوف الأعادي . إلا أن الزمان لم يلبث أن دال براية عزه وضعضع أركان ملكه . فقد ولى ولده «أبا زيان» على «وهران» وأعمالها . فغار أخوه «أبو تاشفين» وطلبها لنفسه ، فأسعفه أبوه ظاهرا وأوصى كاتبه «يحي بن خلدون» بمماطلة «أبي تاشفين» في كتابها ريثما يجد حلا مرضيا لذلك . ففعل «يحي» . وكان من بطانة «أبي حمو» رجل يسمى «موسى بن يخلف» قد استخلصه «أبو تاشفين» وجعله عينا على أبيه . وكان يغص «بيحي» ، ويغار من تقدمه عند الملك ، ويغري به «أبا تاشفين» ويؤكد له أنه يماطله بالكتاب خدمة «لأبي زيان» أخيه وإيثارا له عليه . فوثق به «أبو تاشفين» بدون ترو ، واستشاط على «يحي» ، وترصّده عند انصرافه إلى بيته بعد التراويح في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعمائة في جماعة من الأوغاد ، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتا ، فاتصل الخبر بالسلطان صبيحة تلك الليلة . فبث الطلب عن أولئك المعتدين في أنحاء المدينة ، فأخبر بأن ولده «أبا تاشفين» هو الذي دبّر هذه المكيدة لوزيره . فأغضى وأقطع «أبا تاشفين» مدينة «وهران» كما وعده . وكانت مرين تعمل في خفاء في تفريق كلمة آل زيان وتشتيت مملكتهم . وذلك ببثّ بذور الشقاق والنزاع بين رؤساء الدولة وزعمائها ، وسعت في فصل ولي عهد المملكة «أبي تاشفين» على أبيه «أبي حمو» . وقد نجحت سياسة مرين هذه . فانتقض «أبو تاشفين» على أبيه آخر سنة 788 هـ (1386 م) وجسر على التعدي على أبيه ، فحاربه حتى اضطر «أبو حمو» إلى مغادرة عاصمته والانتقال بعرشه الى مدينة الجزائر . فاعترضه ولده وولي عهده «أبو تاشفين» وألقى به في سجن «وهران» وخرج في طلب إخوته ، فامتنع عنه بعضهم متحصنين بجبل تيطري وبقي الآخرون «بتلمسان» . فبعث إلى من كفاه قتلهم . بينما كان «أبو تاشفين» لاهيا مع إخوته وكل من يشايع أباه فإذا «بأبي حمو»

(1) ابن خلدون جـ 7 ص : 292 .

ينجو من سجنه ، فيتدلى منه بعمامته . فاجتمعت الأمة عليه يومئذ ، وأحاط به أنصاره ،وذهبوا به إلى «تلمسان» . فجلس على عرشه المغصوب فلحق «أبو زيان بن أبي تاشفين» بتيطري وأخبر أباه . فأسرع «أبو تاشفين» الى «تلمسان» لا يلوي على شيء . فاقتحمها . فما كان على أبيه إلا أن يلتجىء إلى مئذنة المسجد معتصما بها فاستنزله ولده متجافيا قتله . فأظهر بعد ذلك السلطان «أبو حمو» رغبته في الحج . فأسعفه ولده «أبو تاشفين» تفاديا منه وأركبه سفينة مع بعض التجار النصارى المسافرين إلى «الأسكندرية» وأوصاهم به . فجاءت السفينة مرسى «بجاية» . فقام «أبو حمو» ولاطف أولئك النصارى في نزوله بفرضة المدينة . فاستأذنوا له أمير «بجاية» في ذلك فأذن له ، فنزل بها ، ومنها سار إلى الجزائر آخذا في تعبئة الجيوش والاستعداد لمنازلة « تلمسان » . فاتصل الخبر « بأبي تاشفين» فبعث عسكرا إلى شلف مع ابنه «ابي زيان» ووزيره «محمد بن عبد الله بن مسلم» . فتواقعوا مع «أبي زيان بن أبي حمو» . فهزمهم ، وقتل «أبا زيان بن أبي تاشفين» ووزيره «ابن مسلم» وجماعة من بني عبد الواد . وفي غضون ذلك ذهب «أبو حمو» إلى «تامة» من ناحية المغرب . فطار خبر وصوله إلى «أبي تاشفين» . فسار اليه من «تلمسان» في عسكره . فأجفل «أبو حمو» إلى وادي زا ، واستجاش هناك أحلافا من المعقل ، ورجع إلى «تامة» . فجاءوا لنصره . وجاء «أبو تاشفين» قبالته ، لكنه بلغه خبر هزيمة ابنه ومقتله بشلف . فولى منهزما إلى «تلمسان» «وأبو حمو» في اتباعه . لما وصل «أبو تاشفين» سرح مولاه «سعادة» في طائفة من الجند لمحاولة العرب في التخلي عن «أبي حمو» . فحمل عليه «أبو حمو» وقبض عليه . فانفض حينذاك عن «أبي تاشفين» بنو عبد الواد والعرب الذين معه . فاضطر إلى مغادرة «تلمسان» . فدخلها السلطان «أبو حمو» في رجب سنة تسعين وسبعمائة . وقدم عليه أبناؤه . فأقاموا معه «بتلمسان» . أما «أبو تاشفين» فاتصل بأحياء سويد واتفق مع شيخهم «محمد بن عريف» أن يفدا على السلطان «أبي العباس أحمد المستنصر» ، ملك «فاس» . لما حضرا بين يديه قبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوهما . فوصل خبر ذلك إلى «ابن الأحمر» وكانت الصلة وثيقة بينه وبين «أبي حمو» ، وكان «لابن الأحمر» دالة وتحكم في دولة «أبي العباس» بما سلف من مظاهرته على أمره منذ أول دولته . فبعث اليه أن يرسل اليه «أبا تاشفين» . فلم يفعل «أبو

العباس» وفاء بذمته وعلّله بالقعود عن نصره . ولكنه نصره . فسرح ابنه «أبا فارس» والوزير «محمد بن علال» في العساكر لمصارخة «أبي تاشفين» وخرجوا من «فاس» أواخر احدى وتسعين وسبعمائة وانتهوا إلى «تازة» . وبلغ خبرهم إلى «أبي حمو» ، فخرج من «تلمسان» وجمع أشياعه من بني عامر «والجراح بن عبيد الله» وقطع جبل بني ورنيد المطل على «تلمسان» وقام بالغيران . وهناك كان اللقاء بينه وبين خصومه : ولسوء الحظ كبا به فرسه ، فسقط صريعا غرة شهر ذي الحجة سنة 791 هـ (21 ايلول 1389 م) وعمره يومئذ 61 سنة .

خلال أبي حمو موسى ومشاريعه

جلس أبو حمو على العرش من يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة 760 هـ (7 شباط 1359 م) إلى شهر ذي الحجة سنة 791 هـ (1389 م) أي واحدا وثلاثين عاما تقريبا . فالحقبة طويلة تدل على حسن تبصره ومدى حنكته السياسية . دانت له أثناءها رقاب المخالفين . فالويل كل الويل لمن سولت لهم نفسهم أن ينازعوا سلطانه . فلابد لهم ، ان أرادوا السلامة بنفسهم وقبيلهم ، من أن يهادنوه . وكم توافدت عليه الوفود المهنئة والمظهرة خضوعها وولاءها واعترافها بسلطانه ينشدون مودته ويتسابقون إلى رضاه . فكان كريم النفس سموحا وفيا ، لكنه مع ذلك دائم الحذر ، دائم اليقظة عارفا بتقلبات القبائل والتمرد والثورة . وهذا ما يفسر تلك الهجومات المفاجئة التي كان يشنها من وقت إلى آخر في أطراف البلاد حتى يبين لهم أنه يعرف الحركات والدسائس والمؤامرات التي تدبر في طي الخفاء ضد سلامة الدولة . وكان في بعض الأحيان لا يفوز فوزا مبينا في وقائعه مع الأعداء ، وذلك يرجع من جهة إلى خيانة توجين ومغراوة الذين كانوا ينظرون إلى مجد «أبي حمو» نظرة حقد وغيظ ، يرون أنفسهم أندادا لبني عبد الواد ، فليس هذا القبيل أجدر من قبيلهم بالسلطان ، فلماذا يكبح جموحهم عن بسط سيادتهم في المغرب الأوسط ويلزمهم الطاعة له وما يترتب عليها من خدمة وجبايات ؟ ويرجع من جهة أخرى إلى خذلان العناصر العربية طمعا فيما يغريهم به الخصوم من العطايا وتفاديا من صد «أبي حمو» لهم عن القيام بالفساد والعيث . فكان يرغم هؤلاء وأولئك على الرضوخ له ومهادنته وطلب صفحه وصلحه .

وهدف «أبي حمو» من التغلب على هذه العناصر المناوئة للدولة في الداخل هو رغبته الشديدة في نشر الاستقرار في البلاد ، فبه يتأتى له أن يكون دائما على أهبة لردّ كل غزو محتمل من الخارج ، وبه ايضا يمكنه ان يهتم برفع مستوى البلاد من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية . فكان حارصا كل الحرص على أن تكون البلاد مزدهرة ، فلابد لذلك من أن تأمن البوادي فينطلق الفلاحون إلى أعمالهم ، وتأمن السبل فيمارس التجار تجارتهم في اطمئنان،يقصدون أسواق القرى والأمصار . فكانت معامل الصوف والأحصرة والخزف كثيرة في القرى والدساكر . ومنتوجات هذه المراكز تغزو أسواق العاصمة والأسعار تهبط لكثرة السلع وتصبح في متناول جميع طبقات الشعب . ومنتوجات العاصمة المختلفة تغزو بدورها أسواق الضواحي والأمصار النائية . وهذا التبادل التجاري على صعيد المملكة كلها ، يشجع الصناعة ويوجهها ويعين على توزيع ثروات البلاد على جميع المناطق ويدخل هكذا الفرح إلى جميع البيوت . وتجدر بنا الإشارة إلى أن الصناعة لم تكن من خصائص الرجال وحدهم ، فالنساء أيضا كن يشاركن فيها . فكانت لهن يد ماهرة في صنع الأثوبة الصوفية والخمائل والتطريز والخياطة وذلك في عقر بيوتهن ، فشيمتهن العفة والتشبث بالسنة والتقاليد الاجتماعية الموروثة .

لم تزل «تلمسان» مركزا تجاريا خطيرا لأهمية موقعها الجغرافي . إن علاقاتها التجارية لم تعرف فتورا مع المغرب والبلاد الاستوائية تستورد وتصدر السلع والبضائع المختلفة . كان التجار يرسلون سلعهم من «تلمسان» إلى ما وراء الصحراء عن طريق «سجلماسة» كذي قبل حيث تلتقي قوافل المغرب الأوسط بقوافل المغرب الأقصى وتؤم جميعا «تنبكتو» ثم «غانة» . وقوافل أخرى تخرج من «سجلماسة» أيضا وتقصد موريطانية ثم السنيغال والمالي وغانة وغينيا .

قد تكونت شركة صحراوية هي شركة المقّريين . نقل «لسان الدين بن الخطيب» في الإحاطة عن شيخه «أبي عبد الله المقّري» أنه لجده «أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمٰن» أربعة إخوة اشتركوا في التجارة ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجارة ، واتخذوا طبلا للرحيل وراية تقدم عن المسير . وكان «أبو بكر» «ومحمد» «بتلمسان» «وعبد الرحمٰن» «بسجلماسة» «وعبد الواحد»

«وعلي» «بايوالاتن» الواقعة في الشمال الغربي «لتنبكتو» على بعد أربعمائة ميل . فكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع . وذلك برسل إليه بالجلد والعاج والجوز والتبر . والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما بأحوال التجارة والبلدان . فاتسعت أموالهم وعظم شأنهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصادرات كانت أوفر بكثير من الواردات لأن البلاد كان لها الاكتفاء الذاتي بمحصولاتها ومواردها المحلية على ما يفهم من كلام «لسان الدين» .

ولم تقتصر حركة تجار «تلمسان» على جهات الصحراء . فوجوههم كانت موالية أيضا شطر الأسواق الأروبية . لم تزل وقتئذ «هنين وارشغول ووهران» تشكل أهم موانئ المغرب الأوسط . فالسفن المشحّنة بالسلع الوطنية والمستوردة من الأقطار الأخرى ، تخرج قاصدة الأندلس «ومرسيلية» «وبيزا» «وجنوة» ، ثم ترجع إليها مشحنة بسلع تلك البلاد إلى «تلمسان» . وهذا التواصل بين تجار بلدان مختلفة ينتج عنه تواصل حضارات هذه البلدان وتفاعلها . فإذا ما عاد التجار إلى مواطنهم حملوا واياهم عادات وأفكار وأساليب جديدة تفعل فعلها في حياة هذه المواطن وفي أوضاعها الحضارية . فإن السلع هي دليل على حضارة المجتمع الذي أنتجت فيه ومظهر من مظاهرها . فإذا ابتغاها أبناء مجتمع آخر لم يستمدوا منها فائدة عملية فحسب بل تأثروا أيضا بمحمولاتها الحضارية ، ولذا كانت التجارة سبيلا واسعا منتجا من سبيل التبادل الحضاري (1) . والتجارة مصدر من أهم مصادر الثروة تدر على أصحابها المال الوافر. فمن البديهي أن تتكون في الوسط التلمساني طبقة أرستقراطية . وهذه الطبقة توجه أعمال الصناع والأدباء والفنانين فترقى . فاختراع المنجانة التي سبق أن أشرنا اليها لبرهان قاطع على مدى تقدم الصناعة بالنسبة إلى ذلك الوقت . فإن حركات الطيور وحركات الخادم والأصوات الأطوماطيكية لتدل على مهارة صانعها «على بن الفحام» التلمساني . فإن الحضارة التلمسانية وفنونها وموسيقاها وآدابها دفعت حاجات هذه الطبقة وذوقها الفني . ولم تفد التجارة الشعب فقط ، فقد أفادت الخزينة أيضا . فلو لم تكن مليئة على الدوام لما تمكن «أبو حمو» من القيام بما يتطلبه الجيش والمصالح

(1) معركة الحضارة.

العامة من الإنفاق ولما أعان غير ما مرة الأندلس المحتضرة . وكان ديوان الجباية يشرف على مداخيل الدولة ومصاريفها . ولا شك أن دار الضرب كانت تابعة لهذا الديوان .

ويبدو مما تقدم أن البلاد كانت مزدهرة اقتصاديا في ظل «أبي حمو» . وازدهار الاقتصاد يضمن الازدهار الاجتماعي والثقافي معا . فشيدت المدارس والمساجد والحمامات (1) والمارستانات والبيوت والمتنزهات وعني بالمصالح العامة . يقوم المحتسب بمقاومة المنكرات ويحمل الناس على احترام مصالح المجتمع ويمنعهم من الغش والتدليس ويحكم بهدم المباني المتداعية . ويعينه على القيام بمهته أمناء يحلون ما شكل من القضايا بين الباعة والزبناء . والقضاء يشرف عليه قاضي الجماعة وهو بمثابة وزير العدل في الوقت الحاضر ويساعده على القيام بمهمته قاضي الحضرة وقضاة الأطراف ، والأمير هو الذي يختاره وربما بعد مشاورة كبار العلماء ، ويختص في النظر في قضايا وخصومات أفراد الجيش قاضي الجند . وهذا القاضي يعد هو الآخر من نواب قاضي الجماعة .

قد مكن اهتمام «أبي حمو موسى» بشؤون الثقافة من ظهور شخصيات تلمسانية لمعت في سماء المغرب العربي مثل «الشريف التلمساني» وولده «عبد الله» «وسعيد العقباني» وابنه «قاسم» ، و«ابن مرزوق الخطيب» «وابن مرزوق الحفيد» «وعمران موسى المشدالي» البجائي نزيل «تلمسان» «ومنصور بن علي الزواوي» . وقد انثال على هؤلاء طلبة العلم من كل جهات العالم العربي . كيف لا وقد استقلوا بملكة التعليم . قد تلقى في أول الأمر هذه الملكة الإمام «المازري» عن الشيخ «اللخمي» ، وانتقلت إلى الشيخ «ابن عبد السلام» مفتي البلاد الأفريقية ، واستقرت في تلميذه «ابن عرفة الورغيمي» وفي الشيخ الإمام «أبي عيسى موسى» . ونال من هذا الأخير هذه الملكة تلميذه «أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني» . وانتهت

---

(2) من أقدم حمامات تلمسان حمام الصباغين الذي يقع بالزقاق الذي يربط الشارعين المعسكر و خلدون ولا شك أنه أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان بجوار سوق الصباغين في ذلك الحي والدليل على ذلك أنه لازال بجواره دكان للصباغة ، وحمّام الحفرة الذي يقع بالقرب من سيدي اليدون .

طريقته لولده «عبد الله أبي يحي» المفسر العالم ، واستقرت أيضا طريقة «ابن الإمام» في تلميذه «سعيد العقباني» التلمساني وانتهى ذلك إلى ولده «أبي الفضل قاسم العقباني» . وكلهم قرأوا كتب «الغزالي» وعلموا مبادئه وألفوا فيها وفي غيرها التصانيف المفيدة . وصفوة القول ، انهم زاحموا كلهم رتبة الاجتهاد ، لا يقنعون كغيرهم من الفقهاء بالحفظ والنقل وإنما كانت ترتكز دراستهم على الرأي والجدل والمناظرة . وأعانهم على ذلك الرياضيات التي مهروا فيها يومئذ . ولقد استحسن «عبد الرحمن بن خلدون» التعليم الذي كان قائما «بتلمسان» «وبجاية» . وليس هناك ما يدعو إلى التعجب من موقفه من هذا التعليم . فإنه ، هو نفسه ، قد تلقى العلم في الجزائر وتتلمذ لعلمائها قبل أن يشرع في تدوين مقدمته في سنة 776 هـ بقلعة بني سلامة بنواحي «تيارت» الحالية هذه المقدمة التي بها اشتهر وبها أصبح للتاريخ اتجاه جديد وبها يعد «ابن خلدون» المبتكر لعلم الاجتماع وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الاجتماعي والسياسي وفلسفة التاريخ والقانون العام . ولم تشتهر «تلمسان» في العلوم الفكريّة من أصول وحديث وتفسير وعلوم لسانية ورياضيات فحسب . فإن الوسط الأدبي لم يبلغ من الرقي في أي عصر من العصور الزيانية ما بلغه في عصر «أبي حمو موسى» الثاني . وهذا ليس بالغريب . فكان الملك نفسه من أهل العلم والمعرفة وفنون الأدب . وقد اعطيناك نماذج من شعره . وله تأليف في السياسة . لخص فيه سلوان المطامع «لابن ظفر» وزاد عليه فوائد وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا وقعت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم وسماه واسطة السلوك في سياسة الملوك . كانت نسخة منه في خزانة الأخ الدكتور بن اسماعيل ـ رحمه الله ـ بوهران . وكان «أبو حمو» يهتم بجمع الكتب (1) ما يدل على مدى تقديره للعلم . وما مرت ليلة من ليالي الميلاد النبوي في أيامه إلاّ ونظم فيها قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وملك عالم أديب لا يكون وزراؤه وحجابه وقواده إلاّ من أهل العلم والأدب ككتابه وقضاته .

---

(1) قد أسس أبوحمو خزانة وسع بها على الطلبة والراغبين في العلم ، ولكن لم يبق من أثرها إلاّ العبارة التالية : أمر بعمل هذه الخزانة المباركة مولانا السلطان ابو حمو ابن الامراء الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه كما وصل ونوى وجعله من أهل التقوى . وكان الفراغ من عملها في يوم الخميس ثالث عشر لذي قعدة عام 760 (ستين وسبعمائة) .

ويبدو حرصه على ذلك في محاولته جلب «عبد الرحمن بن خلدون» إلى بلاطه . لم يحصل عليه ولكنه حصل على أخيه وصنوه «يحي بن خلدون» فاستخدمه حاجبا وكاتبا ووزيرا ، وكان له يد طولى في العلم والأدب والتاريخ . فهو الذي أرخ للدولة التي خدمها حتى هلك . ومدح «أبا حمو» في كل مناسبة بجانب تلك الكتلة من الشعراء التي تعد مفخرة العصر الموسوي والتي تتمثل في الثغري العلامة الناظم الناثر والتلاليسي الأديب الطبيب وشقرون الشاعر الكاتب والعصامي الشاعر الكاتب وغيرهم . ولعلك قد حكمت لهم أو عليهم حينما قدمنا لك نفثات من أدبهم .

وهناك شخصية لابد من ذكرها ،فقد حلقت في سماء الأدب وتبوأت ذروة المجد ، وهذه الشخصية تتمثل في «أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني التلمساني» . كان إلى جانب كونه شاعرا وكاتبا وعالما مؤرخا مثل أبيه الذي اتصل «ببني زيان» فقلدوه خطتين السيف والقلم لبراعته في الميدانين . هو أيضا تقلد الأعمال الجليلة وخدم الملوك . فقربه إليه السلطان المريني «ابراهيم أبو سالم» وقلده خطة الكتابة . ثم انتقل الى البلاط الزياني ، وكتب للسلطان «أبي حمو» . إلاّ أنه عاد الى البلاط المريني «بفاس» كاتبا للأشغال فرئيسا لديوان القلم إلى أن توفي سنة 799 هـ (1337 م) . فقد ألف للسلطان «المتوكل على الله أبي فارس المريني» كتابا دوّن فيه الحضارة الإسلامية على عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وسماه تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، لم يتصدّ إلى هذا الموضوع من قبله .

يثبت «يحي بن خلدون» في بغية الرواد وجود بمارستانات «بتلمسان» . وهذا ليس بالغريب . فأين ذلك الرجل الذي لا يصاب قط في بدنه طول حياته ؟ فقد يمرض ويلجأ إلى من يعالجه . فتلمسان كجميع البلدان لم تخل من الأطباء منذ أصبحت آهلة . وقد ازدان بلاط «أبي حمو موسى» بشخصية تتمثل في «أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي» . اشتغل بالطب والجراحة حتى برع فيها ، ونما صيته إلى السلطان . فقربه اليه واتخذه طبيبا لنفسه . وعلاوة على حذقه كان متميزا في العربية والأدب وقد حدثناك عنه وعن أدبه .

وهناك شخصية أخرى في الطب تتمثل في «محمد بن علي بن فشوش التلمساني» . فقد مارس الطب وبرع فيه مثل الإسرائلي «موشي الأشقر» . ان «عبد الباسط بن خليل» المصري من علماء القرن التاسع الهجري غادر بلاده وارتحل إلى الجزائر ليستكمل بها معلوماته في الطب . فنزل «تلمسان» وأخذ بها عن أطبائها . فقال في أستاذه «موشي» : (لا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم . وقصده كثير من الفضلاء للأخذ عنه . لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره . ويريد تركيب الأدوية والفلسفة ، وكانت الفلسفة متصلة بالطب . فكل فيلسوف كان له إلمام بالطب . ومن أطباء القرن العاشر الإمام «السنوسي» شارح البخاري . له شرح رجز ابن سيناء في الطب ، وله شرح كبير على الحوفية في الفرائض والحساب ألفه وهو ابن تسعة عشر عاما ، «وداود بن عبد الله البغدادي» ثم «التلمساني» الطبيب الماهر . كان ضريرا . لقبه «ابن القاضي» في مصر سنة 986 هـ (1) . وبجانب هؤلاء الأطباء علماء كثيرون كانت لهم مشاركة في هذا العلم مثل «علي بن ثابت بن سعيد بن علي بن محمد القرشي» التلمساني (772 ـ 829 هـ) والطب يدعو إلى صنع الأدوية ، وجل الأدوية كانت تشكل بالأعشاب في الغالب ، ويجدها الأطباء بسوق العشابين (2) التي كانت قائمة «بتلمسان» وقتئذ والتي لازال أثرها بها اليوم . فان الطبيب يومئذ كان معالجا وصيدليا معا .

تدهور الدولة الزيانية :

مات «أبو حمو» وخلا الجو لابنه «أبي تاشفين» . فقد ولد هذا «بندرومة» أيام كان أبوه وجدّه بها عام 752 هـ (1351 م) . وتولى عهد المملكة آخر شعبان 776 هـ (1372 م) فقد أعانه بنو مرين على أبيه ، فلا نتعجب إذا رأيناه يضرب السكة باسمهم ويدعو اليهم ويخطب باسمهم ويدفع لهم الاتاوة . كان أخوه «أبو زيان» واليا من قبل والده «أبي حمو» ، قصد «تلمسان» في رجب 792 هـ (حزيران 1390) . وما كادت جموعه تبلغ العاصمة حتى غمرها «أبو تاشفين» بأمواله ، فتفرقت عن أبي زيان وتركته في فئة قليلة . فخرج اليه حينئذ «أبو تاشفين»

---

(1) درة الحجال ص : 142 .

(2) كانت سوق العشابين والعطارين بزقاق الرمان ونهج بن دي بون . وتلي هذه السوق سوق المناجل والغرابل والأحبال وآلات اعداد الصوف وغير ذلك .

فهزمه في شعبان 792 هـ (غشت 1390 م) . فلم ينفع «أبا زيان» إلاّ أن يلجأ إلى الصحراء ريثما يجمع حشودا أخرى . فكانت هذه المرة من معقل . ثم عاد إلى حصار «تلمسان» في شوال (أيلول) فردته عنها جنود مرين . فأجفل ثانية إلى الصحراء . ثم أجمع على استصراخ مرين . فوفد على ملك «فاس» . فرحب به ووعده بالمؤازرة والانتصار له من أخيه . فيا لها من مهزلة ! فأقام «أبو زيان» هناك ينتظر هذه المؤازرة وهذا الانتصار الى أن قضي أخوه نحبه إثر مرض أصابه في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الثاني 795 هـ (آخر شباط 1393 م) . فبادر يومئذ وزيره «أحمد بن الغزالي» بمبايعة صبي من أبناء «أبي تاشفين» ، وقدم نفسه كوصي على العرش ، وأخذ يدبر شؤون الدولة ، ويتصرف في مهام السلطنة الزيانية مباشرة . فغضب لذلك والي الجزائر «يوسف بن أبي حمو» ، فنهض إلى «تلمسان» . فاقتحمها وقتل الوزير والصبي المكفول . وكان لهذا الحادث اضطراب في الرعية . ولم يتصل الخبر بسلطان «المستنصر أبي العباس» حتى خرج إلى «أبي زيان» وكان في طريقه إلى «تلمسان» فلحق به ورده عن «تازة» إلى «فاس» معتقلا . ومن نفس المكان بعث بولده «أبي فارس» في جنوده إلى «تلمسان» ، فامتلكها ، وأقام بها دعوة أبيه ، ووجه الجنود إلى شرق «تلمسان» ، فاستولوا على معظم المغرب الأوسط لعدم وجود من يقاومه من بني عبد الواد . فمرض أثناء ذلك «المستنصر» وقضى نحبه في محرم سنة ست وسبعين وسبعمائة . فاستدعى وزراؤه وخاصته ابنه «أبا فارس» من «تلمسان» ، وبايعوه «بتازة» ، وذهبوا به إلى «فاس» . فجلس على عرش أبيه . وفي غضون ذلك قام «أبو ثابت بن أبي تاشفين» الثاني واستولى على عرش أسلافه . فلم يلبث في ملكه أكثر من أربعين يوما إذ فاجأه عمه «أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو الثاني» ، فخلفه عن ولايته وقتله في جمادى الأولى سنة 796 هـ (آذار 1394 م) وتزعّم المملكة عشرة أشهر ، ثم أزاله المرينيون ، وولّوا مكانه أخاه «أبا زيان بن أبي حمو الثاني» . وكان «أبو زيان» معتقلا «بفاس» ، فأطلق «أبو فارس» اعتقاله ومكّنه من العودة إلى «تلمسان» ليقوم فيها بدعوة بني مرين . فذهب «أبو زيان» وقاتل «أبا الحجاج يوسف بن أبي حمو» وأجلاه من «تلمسان» وجلس على عرش أجداده غرّة ربيع الثاني سنة 796 هـ (شباط 1394 م) . ولم يطمئن حتى أوتي له برأس أخيه «أبي الحجاج» .

كان «أبو زيان» ميالا إلى العلم والأدب ، يحسن الشعر والنثر . فقد ولى وجهه شطر الشرق وكاتب سلاطينه . وبأيدينا قصيدة تشهد بذلك أرسلها إلى «برقوق» صاحب مصر وقتئذ يبدأها بذكر أشواقه إلى زيارة البلاد المقدسة ، ثم يتخلّص إلى ممدوحه فيشيد بذكره ويطلب وداده فيقول :

ملك بـه نـام الأنـام وأمنت ... والفضـل جم والعطـاء جزيـل

دام الـوداد على البعـاد موصـلا ... بيـن القلـوب وحبلـه موصـول

وكانت هذه القصيدة مشفوعة بهدية جميلة :

وتـأكـدت بـهـديـة وديـــة ... جمعت بثينـة في الهوى وجميل

فقد اعتنى هذا السلطان بالتأليف . فخلف كتابا في علم النفس سماه : (الإشارة في العلم بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة) ، بحثنا عنه وبحثوا عنه من قبلنا ولكن بدون جدوى . وقد نشط «أبو زيان» العلم وأهله كأبيه . فكثر التأليف بحيث لو امتد عهده لعرفت الثقافة ازدهارا كبيرا ، لكن بني مرين غاروا وتخوفوا منه لحسن سمعته في الداخل والخارج ، فتنكروا له . فأغروا به أخاه «محمدا عبد الله بن أبي حمو» . فغزا هذا العاصمة واحتلها بمساعدة الجند المريني طبعا ، وذلك في غرة القرن التاسع الهجري (1398 م) . فاضطر «أبوزيان» إلى أن يتخلى عن العرش وأن يغادر عاصمته ، وبقي يتنقل في البلاد بين أحياء العرب إلى أن قتل سنة 805 هـ (1402 م) .

جلس «محمد عبد الله الأول» على العرش وأخذ يباشر أمور دولته بنفسه ، فدب في مفاصلها الحياة . فخشيه ملك «فاس» وعزم على قطع دابره . فنهض اليه سنة 804 هـ ، وأسره ، وجعل في محله أخاه المعروف «بابن خولة» ، فكان جوادا حليما محبوبا من الرعية التي رجع لها شيء من الدعة والاطمئنان . فإنه عمل ما في وسعه ليعيد للدولة شبابها ، إلا أن المنية عجلت بخطفه في سابع ذي القعدة سنة 813 هـ . فخلفه ابنه «عبد الرحمن» ، ولكنه لم يدم عهده أكثر من شهرين وبضعة أيام ، فقد خلعه عمه «السعيد بن أبي حمو» أواخر المحرم سنة 814 هـ ، ولم يصعد على العرش إلاّ ليستولي على موارد الدولة . فقد دفعه انغماسه في البذخ والرفاهية إلى تشتيت أموال الخزينة . فشمر أخوه «عبد الواحد أبو مالك»

على ساعده وخلعه . فكان شجاعا حازما مقتفيا أثر أبيه . فاسترجع مدينة الجزائر من يد الحفصيين ، وحارب بني مرين في عقر ديارهم ونصب على عرش «فاس» بعض حفدة «أبي عنان» . فاستطاع حينئذ أن يضع حدا لطمع مرين في «تلمسان» ولعيث حشودهم المتكررة في المغرب الاوسط . فامتدت الدولة في عهده ، وساد البلاد نوع من الاستقرار اطمأنت له قلوب الفلاحين والتجار والسكان . ومما يؤسف له أن هذا الاستقرار لم يدم أمده ، فثار عليه «محمد» بن أخيه «أبي تاشفين» واستمد الحفصيين . فلبى سلطانهم نداءه ونهض في جموعه معه ، ونشبت الحرب بينه وبين صاحب «تلمسان» . فكانت الدبرة على «أبي مالك عبد الواحد» إلا أنه أفلت وقصد «فاس» تاركا العرش «لأبي عبد الله محمد الثاني بن أبي تاشفين» الثاني المدعو «بابن حمرة» . وذلك سنة 827 هـ . فعاد «أبو فارس عزوز» إلى دار ملكه بعد ما أنفق أكثر من عشرة أحمال مالاً في هذه الحركة . وهذا المال استمده من خزينة دولته فلا بد من تعويضه ، وذلك على حساب الشعب التونسي طبعا . يظن «أبو فارس» أنه يخدم مصالح الدولة الحفصية ببسط نفوذه على المغرب الأوسط . فإن هذا النفوذ لا يفيد شعبه في شيء بل يفقره . فالدولة لا يعظم شأنها إلاّ إذا اعتنى صاحبها برفع مستواها اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وحضاريا .

سبق أن قلنا إنّ «أبا مالك عبد الواحد» ذهب إلى «فاس» يطلب مساعدة مرين على استرجاع ملكه . فعجز سلطان المغرب عن مظاهرته . فولّى وجهه شطر تونس . فأرسل ولده «المستنصر» إلى صاحبها «أبي فارس عزوز» ، فرجع بكتاب يعده العاهل التونسي بالإعانة على أن يقدم بنفسه إلى حضرته . فقبض عليه وأتي به الى «ابن الحمرة» ، فقتله وقطع ذكر «أبي فارس» من الكتب والخطبة انتقاما منه .

لم يبق «عبد الواحد» مكتوف الأيدي ، فلحق «بتونس» وعاد منها بجيش هزمه «ابن الحمرة» . فاضطر «أبو فارس» أن يخرج نفسه مع «عبد الواحد» إلى «تلمسان» . فدخلها عنوة في جيشه سنة 831هـ (آذار ـ نيسان 1418م) وأجلس «عبد الواحد» على عرشه . خرج «ابن الحمرة» إلى جبال «بني يزناسن» ، ثم انتقل إلى جبال «برشك» «وتنس» ، واستألف عربها ، وقصد بجيوشه «تلمسان» ، ففتحها رابع ذي الحجة سنة 834 هـ (1431 م) ، وقتل عمه «عبد الواحد» . فنهض إليه «ابو فارس» وأخرجه وأجلس على العرش الزياني «أبا العباس أحمد

بن أبي حمو» أخا «عبد الواحد» غرة رجب سنة 834 هـ . فضبط الأمور ، وأظهر العدل ، وأحسن السيرة . فطال عهده نسبيا وأشرق بعض الشيء وذلك برجع إلى أن «أبا فارس» قبض على «ابن الحمرة» وذهب به إلى «تونس» واعتقله بقصبتها حتى مات سنة 840 هـ . ولكن «أبا العباس» حدثته نفسه أن يعلن استقلاله عن «أبي فارس» . فنهض اليه هذا ، لكنه توفي في طريقه نحو «تلمسان» بسفح جبل الوارشنيس في الوقت الذي أراد أن يتوجه إلى المصلى لقضاء صلاة عيد الأضحى سنة 837 هـ (1434 م) ، فعاد جيشه إلى الحضرة التونسية . فخلفه «أبو عمر عثمان» ، وقد زهد في كل ما يتعلق بالمغرب الأقصى . فأصبح حينئذ «أبو العباس» الزياني يتخبط وحده ضد مزاحميه ، وما أكثر ما كان المزاحمون ! فقام «أبو عبد الله بن أبي زيان» المتوكل واقتحم العاصمة ، وأخرج منها صاحبها «أبا العباس» في أوائل جمادى الأولى سنة 866 هـ (1462 م) . فجمع آل زيان المتشتتين شرقا وغربا ، وأحسن معاملتهم ، وأدر عليهم الرزق ، ومهد المملكة ، وأخضع الرعية . ولكن لم يجلس على العرش حتى نهض «عثمان» الحفصي في شوال (تموز) ، وحاول الاستيلاء على «تلمسان» . فصده عنها صاحبها ولم يعترف به . إلا أنه سرعان ما داخله الخوف ، فبعث له بعض الفقهاء يلتمسون صلحه وعفوه . فعفا ، وابتعد عن «تلمسان» مغذا السير إلى دار ملكه ، فإذ جيوشه قد نفذ لهم المؤن . ولكن «أبا عبد الله» لم يكن وفيا فيما وعد به الملك الحفصي من الولاء ، فراح ينبذ شيئا فشيئا كل ما يقف في طريقه إلى الاستقلال عنه ، بيد أنه كان يأخذه الاضطراب كلما طرق سمعه خبر محاولة «عثمان» الحفصي النهوض إلى «تلمسان» .

تدهور الأندلس العربية :

منذ وطئت أقدام العرب أرض الأندلس أخذ النصارى يتكالبون عليهم ، ويشنون عليهم الغارات ، ويحاصرون المدن الإسلامية ، ويستولون عليها الواحدة تلو الأخرى . فأحس المسلمون بأن مصير بلادهم الزوال . وقد عبر أحد شعرائهم عن ذلك في الأبيات التالية عند سقوط مدينة طليطلة في يد الأسبان :

شدوا رواحلكم ، يا أهل أندلس ، فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط ؟

فأخذ الأندلسيون يتسللون فرادى وجماعات إلى المغرب العربي . وكان حظ الجزائر منهم كبيرا . فقد وفد عدد وافر على «تلمسان» . وقد وافيناك بأسماء بعضهم أعلاه . أخذت الأندلس بتوالي الأيام في طريق الانهيار عندما تحطمت أركان الدولة الأموية ، وتوزع أشلاءها أمراء الطوائف الذين كانت لهم اليد الطولى في تمكن الأسبان ونصارى أوربا من إنزال الضربة القاضية بالوجود العربي ومحو آثاره نهائيا من الأندلس . فبقدر ما نفعت معركة الزلاقة هذا الوجود بقدر ذلك أودت به إلى الهلاك هزيمة الموحدين في موقعة حصن العقاب الراجعة إلى هروب الأندلسيين أمام العدو . فكانت ضربة قاسية زعزعت إيمان المسلمين في قدرتهم على الصمود طويلا أمام إرادة الأسبان في التحرر من سيطرتهم ، وأشعرتهم بأن وجودهم في حالة الاحتضار . وليس ذلك بالغريب . فإن الأمراء المسلمين وجيوشهم تتوزعهم الأغراض والشهوات والأحقاد . وبنهاية الدولة الموحدية غرقت الأندلس في بحار من الدماء ، وتكالبت النصارى من أسبان وبرتغال على هذا الوجود ولم يبق منه إلا سلطنة بني الأحمر الذين كانوا تابعين «لفرديناند الكاثوليكي» يؤدون له الجزية صاغرين ، ويقدمون له المساعدة المطلقة .

انطلقت في الأندلس غزوات مرينية . ولكن هذه الغزوات لم تكن إلا الصحوات التي تسبق النهاية لأن الأندلس كانت في حالة احتضار كما سبق أن قلنا .

فإن بني الأحمر خوفا من مرين أن يبسطوا نفوذهم على ما بقي من الأندلس بما في ذلك مملكة بني الأحمر ، عملوا ما في وسعهم لنشر الشوك في طريقهم . فأثاروا الحروب الداخلية في المغرب حتى اضطر المرينيون إلى الانسحاب ، وراسلوا الأعداء ، وتحالفوا معهم في النهاية على تكوين جبهة موحدة ضد المسلمين ناسين أنهم يحفرون بذلك قبرهم بأيديهم .

تضييق النصارى على غرناطة :

تمت المصاهرة بين «فرديناند» ملك أراغون وبين «إيزابيلا» وارثة عرش قشتالة سنة 1469 م ، وقويت إثرها جبهة المقاومة الإسبانية . فلم تهل سنة 896 هـ حتى كان الملك «فرديناند» وقرينته بمروج «غرناطة» بجيوشهما العرمرمة المزودة بالمدافع والذخائر الحربية الهائلة تؤيدها بالمال والسلاح والرجال المسيحية كلها

في أوربا . وطال الحصار ودام سبعة أشهر . فالمدينة ظلت صامدة صمودا لم يسمع بمثله ، لكنها لم تلبث أن استسلمت ، فتقوضت مملكة بني الأحمر وتقوض معها صرح الحضارة العربية التي غمرت الإنسانية يومئذ بكنوز العلم والعرفان . فلم ينفع المسلمين إلاّ مغادرة بلادهم الحبيبة (شكل 31) فإن الأسبان اندفعوا إلى تطهير أرضهم من المسلمين ، ولم يسمحوا لهم حتى البقاء كأقلية دينية ، وسعوا للقضاء على كل شيء له اتصال بالإسلام . «فعروج» وحده أنقذ ما يزيد على العشر الآلاف نسمة . لكن المستضعفين من الرجال والنساء في «غرناطة» خانتهم القدرة على الانسحاب ، فأجبروا على التنصر وقلبهم مطمئن بالإيمان (1) . أقفلت المساجد ، وحولت الى كنائس . وعمد العدو الى الكتب التي هي ثمرات القرون وأحرقوها ، وهدمت الحمامات ، ولازال واحد منها بحي البائسين يشهد بذلك فلم يبق منه إلا بعض جدرانه . وأما الموريسكوس والذين بقوا على ساحل البلاد الجنوبي فلم يسلموا من أذى النصارى . طالما استصرخوا ملوك المسلمين فلم يلب نداءهم أحد . فكانت حينئذ دول أفريقية الشمالية عاجزة كل العجز عن إنقاذهم . فقد ضربت الفوضى أطنابها في ربوعها ، إلا ما كان من الدولة الجزائرية الجديدة الفتية . فجهزت أيام «قلش» حملة لإعانتهم ، وأمدتهم بما أمكنها من سلاح وعتاد ورجال . ولكن ذلك لم يؤخر الأجل المحتوم . فاستمرت محنة مسلمي الأندلس . وليس ذلك بالغريب . لم يصب بلدهم «ذلك الخطب إلاّ من اختلاف رؤسائه وكبرائه ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه . فكل يروم الرئاسة لنفسه ويجر نارها لقرصه . والنصارى ـ لعنهم الله تعالى ـ يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ويضربون عمر منهم بزيد حتى تمكنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطارف والتلاد» . هكذا شهدت شخصية أندلسية أدبية من تلك الشخصيات التي وردت على «تلمسان» عند سقوط «غرناطة» في يد العدو . وهذه الشخصية تتمثل في «أبي عبد الله بن الحداد الوادي آشي» . جاء في الإحاطة عن النفح جـ 338 أن «الوادي آشي» شاعر مفلق وأديب شهير مشار اليه في التعالم منقطع القرين منها في الموسيقى مضطلع بفك المعمى . سكن «المرية» واشتهر

(1) توفيق المدني .

يمدح رؤسائها من بني صمادح . خلف ديوان شعر كبيرا . وله في العروض تصنيف مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية . وكان له مصاهرة مع «ابن مرزوق» ، ثم آلت إلى مقاطعته . فقال في ذلك :

يلومني الأقوام من بعدما سطا ... علي ابن مرزوق ومن بإنفاق .
فقلت لهم : كفوا الملام فإنني ... تركت ابن مرزوق وأممت رزاقي

لما ضيق الأسباب على «غرناطة» خرجت جماعة من علمائها قبل أن تنزل عليها الضربة القاصمة ، وقد رأوا العدو رابضا متربصا في مروج تلك العاصمة للاستيلاء عليها . منهم القاضي الشهير «أبو عبد الله بن الأزرق» «وبنو داود» المذكورون في فهرست الشيخ «ابن غازي» . أما «ابن الأزرق» فهو الإمام العلامة الخطيب الحجة الأعرف المؤرخ ، الناظم الناثر الراوية قاضي الجماعة بحضرة «غرناطة» «أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي الشهير بابن الأزرق» الغرناطي (1) . قد ارتحل «ابن الأزرق» إلى «تلمسان» بعد التسعين وثمانمائة . ثم غادر هذه العاصمة قاصدا المشرق ، ولعله غادرها لأنه لم يرقه الجو السياسي الذي كانت تعيش فيه «تلمسان» الشبيه بالجو الذي تركه «بغرناطة» في نهاية القرن الخامس عشر ، فكانت الفوضى السياسية والاضطرابات المتوالية بلغت في أفريقية الشمالية مبلغا نعجز عن التعبير عنه ، فكانت الفوضى سائدة بالبلاد التونسية بحيث أصبح الملك ليس له حق التصرف خارج قصره حيث يحميه حرس من المرتزقة المسيحيين . والمغرب كان قد سقط من الجهة الغربية أيام الفوضى والاحتلال المريني تحت سيطرة البرتغال بعد حروب أبلى فيها الشعب المغربي البلاء الحسن ، ولكن لم يكن للشعب قيادة حكيمة تنظم حركاته وتوجه هجوماته . وكانت ضاعت له من الجهة الشرقية مراكز استراتيجية هامة ، صخرة باديس الحربية ومدينة «مليلة» ومدينة «سبتة» وبالجنوب الغربي بلدة «يفني» . وتحصن في جميعها الأسبان ولازالوا بها إلى الآن .

أما «تلمسان» فكانت تشمل بصفة غير محدودة الغرب الجزائري الحالي . وكان رجال الدولة قد تحرروا من السلطة المركزية . فكان أدعياء الملك لا يجدون

(1) المقــري .

صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم . وكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم .

مات «محمد أبو عبد الله بن أبي زيان المتوكل» . فخلفه ابنه «تاشفين» نحو أربعة أشهر . فخلعه أخوه «ثابت الثالث محمد» ، فعجز عن ضبط الإقليم الشرقي . فاضطرمت نار الفتنة ومات سنة 902 هـ . فخلفه أكبر بنيه «أبو عبد الله محمد الثالث» المعروف «بالثابتي» المعروف نسبة إلى جده ثابت . تملك هذا عام 902 هـ (1496 م) . وكان فطنا ذكيا حسن التدبير . أضبط أمور مملكته ، وأصبحت الخزينة في عهده زاخرة بالمال . زاد ما بين سنتي 904 و 906 هـ في أحباس «أبي مدين» ما قيمته مائة دينار . وقبيل صعوده على العرش 895 هـ 1490 م كان سقوط «غرناطة» . فاضطر عَمّ ملكها «أبو عبد الله محمد بن سعد» المعروف «بالزغل» ، الذي بويع بالإمارة عندما أخذ «فرديناند» أمير «غرناطة» ، إلى مغادرة بلاده ، ومواقفه في المقاومة لا تحتاج إلى دليل . فنزل بوهران فيمن انضم اليه من الأعيان والكبراء الذين أيقنوا بنهاية الأندلس الإسلامية ، ومن ثم انتقلوا إلى «تلمسان» . فاقتبلهم «الثابتي» بما يليق بمقامهم من الحفاوة والإكرام . فاتصل خبرهم بالملك «فرديناند» . فامتلأ قلبه حقدا وسخطا على ملك «تلمسان» . فأدرك ذلك الثابتي ، فبادر إلى السعي في ترضية «فرديناند» خوفا من شوكته . وما يدريك أن ينهض اليه في جموع جرارة لا طاقة للملك الزياني بصدها فيقوض عرشه ؟ فسافر إلى إسبانية مصحوبا بهدايا ثمينة منها خيول عربية عتاق ولؤلؤة فاخرة نادرة وطيور مصنوعة من الذهب الخالص من جملتها دجاجة بستة وثلاثين نقفا . وقدم ذلك بنفسه إلى ملك الأسبان . فانكسرت حدة غضبه عنه . ثم عاد السلطان بعد ذلك إلى دار ملكه آمنا . وكانت وفاته 909 هـ (1503 م) .

أما «الزغل» فقد استوطن «تلمسان» ، ومات فيها ، ودفن بالمقبرة الموازية للمسجد الجامع ، وقد عثر على رجمة قبره العالم «بروسلارد» (1) ، فقد عزيت هذه الرجمة «لأبي عبد الله بن أبي الحسن» ، إلا أن هذا الملك قد استقر بعد

---

(1)

النكبة بفاس وبها توفي . فلم يستوطن «تلمسان» من ملوك «غرناطة» إلا «الزغل» الذي جلس على العرش 1485 م فالرجمة اذاً له لا لغيره .

تلمسان في عهد الثابتي :

دخل «حسن الوزان الزياني» (ليون الافريقي) «تلمسان» ضيفا على «أبي ثابت الزياني» فيحدثنا عما استلفت نظره طيلة مقامه هناك فيقول : «تلمسان» مدينة كبيرة وقاعدة ملك . كان بها في عهد «أبي تاشفين» الأول ستة عشر ألف أسرة . وتضاءل هذا العدد ، فهبط إلى اثني عشر ألفا من جراء الاضطرابات التي منيت بها المدينة حين اكتسحتها حشود «أبي الحسن» . فمات الكثير وفر الكثير خوفا من الموت وصيانة لأعراضهم . ان آيات التقدم والرقي ماديا وأدبيا بادية على المجتمع ، فأينما وجهت نظرك رأيت التجار والصناع . وتحتوي المدينة على مساجد جميلة يتولى أمرها أئمة ، وعلى خمس مدارس جميلة أيضا يزينها الزليج والزخارف المتنوعة قد اعتنى بتشييدها ملوك «تلمسان» ، وعلى حمامات مختلفة وفنادق عديدة من بينها اثنان يحل بهما تجار جنوة وفينسيا . وهناك حي خاص باليهود (1) ترى على رؤوسهم عمائم صفراء يتميزون بها . والسكان ينتهلون الماء من سقايات وضعتها يد البلدية في الشوارع ، إلاّ أن الينابيع التي تمد هذه السقايات تقع بخارج المدينة حيث يسهل على الأعداء أن يحولوا مجراها . أما الأسوار فإنها متينة ذاهبة

---

(1) وهذا الحي يعود الى أيام افرايم عنقاوة . ظهر اليهود«بتلمسان» منذ عهد سحيق . وكانوكثيرين في عهد الموحدين لكنهم يسكنون خارج المدينة . ولما أستولى الأسبان على الأندلس صارت حياتهم فيها جحيما . فهاجروها ولجأوا بأفريقية الشمالية . فقصدت جماعة منهم تلمسان يرأسها عالم طبيب يدعى أفرايم عنقاوة . فاتفق أن امرأة من الأسرة السالكة مرضت . فأعضل داؤها الأطباء . فأحضر الملك أبو العباس أحمد بن أبي حمو موسى 866 هـ (1462) عنقاوة . فعالجها ، فشفيت . فلم يقبل اليهودي أجرة ، ولكنه استأذن الملك في أن يسكن هو وطائفته داخل المدينة وأن يبني معبدا . فقبل الملك . فاستقر اليهود داخل تلمسان في حي خاص بهم وأخذوا يمارسون التجارة والصناعة في اطمئنان تحت رعاية المسلمين . فحصلوا على أموال طائلة . ولما أحتل الفرنسيون البلاد كانوا لهم أنصارا على المسلمين . ولما اندلعت الثورة العارمة كانوعيونا وأعوانا للجيش الفرنسي الغاشم . لكن يد الله فوق أيديهم جميعا . فتمكن الجزائريون من دحر الفرنسين وتطهير البلاد من السلالة الصهيونية .

في الهواء لها خمسة أبواب مصاريعها حديدية وتحتوى على مآو معدة للحراس .
ومن الجهة الجنوبية يقع القصر الملكي ، فإنه محاط بأسوار عالية تخالها قلعا .
ويحتوي هذا القصر على منازل وبنايات تزينها البساتين الشيقة والسقايات ، والكل
يظهر لك من آيات الفن . ولهذا القصر بابان الأول خارجي يتراءى لك منه الريف ،
والثاني داخلي يقع بصرك منه على الحدائق والدور التي يقصدها أصحابها للاستجمام .
زيادة على موقعها وعلى ما يجدون فيها من المتعة ينعمون بالفواكه ويشربون المياه
النمرة الصريدة . وما يزيد هذه الأملاك روعة وجود تلك الكروم التي تجود بعنب
لذيذ مختلف الألوان وتلك الوفرة من أشجار «حب الملوك» التي لم يقع بصري قط
على مثلها في أي بلد من البلدان التي سبق لي أن زرتها ، بله التين الحلو الأسود
الفاخر الطويل الذي يذخرونه جافا لفصل الشتاء ، والجوز واللوز والبطيخ والقرع .
وعلى نهر الصفصيف الذي يبعد بثلاثة أميال عن المدينة أرحاء زيادة على الأرحي
الأخرى التي تقع بناحية الجبل . وبالقلعة الواقعة شمالي المدينة تسكن طائفة من
اليهود منهم المحامون والأحبار ، وكلهم يمارس مهنته في اطمئنان ، والمدارس
تزخر بالمقرئين والطلبة الذين يدرسون فيها الفقه والرياضيات ويجدون العيش
والسكنى . والسكان أربع طبقات ، طلبة وتجار وجنود وصناع . فالتجار أهل
ثروة ، تدر عليهم تجارتهم الأرباح الطائلة ، وقد اشتهروا بالصدق في معاملتهم .
وكانوا يقصدون بسلعهم بلاد السود . والصناع من جهتهم كانوا مولعين بحرفهم
التي كان مستواها مرتفعا والتي تضمن لهم الرفاه . والحرس الملكي كان مؤلفا
من صفوة الجند يغدق عليهم الملك ثلاث دوقات (1) في الشهر وعلى خيلهم
نفس القدر . والطلبة الفقراء يسكنون بالمدارس . وعندما يتخرجون يتصدرون
للاقراء أو يمتهنون العدالة أو يتولون الإمامة . وثياب التجار وأهل البلد أفضل من
ثياب أهل فاس كما أنهم أكرم منهم للضيف . ولباس الصناع أنيق ، لكنه قصير ،
ولا يتعممون فيكتفون بطاقية على رؤوسهم ، وينتعلون أحذية طويلة تكسوا أرجلهم
وسوقهم نصفها . أما العسكر فيلبسون قميصا قطنيا ذا أكمام واسعة ، ويردفون
عليه عباءة ثم رداء من الملف فضفاضا مثل القميص . ولكن الضباط يرتدون
ثيابا من الملف ردفا للرداء والقميص . والطلبة تختلف أزياؤهم باختلاف بيئاتهم
ومنزلتهم فيها . والمشائخ والقضاة والأئمة والوزراء يرتدون ثيابا فاخرة تتلاءم ومنزلتهم

الاجتماعية . وملك «تلمسان» لا يظهر إلا قليلا ، ولا يدخل عليه إلاّ رجال بطانته للنظر والبحث في شتى القضايا التي تتعلق بمصير الدولة . ويحتل المقام الأول لدى الملك مزواره ، ويتلوه صاحب ديوان الإنشاء والتوقيع الذي يشرف على تحرير الرسائل والصكوك الصادرة عن الأمير لغيره من الملوك والأمراء . وعمال الجهات والولاة والقواد ، ويعرض عليه الكتب الواردة من الأقطار والأمصار . ثم يلي هذا الوزير رئيس ديوان الجبايات الذي يشرف على مداخيل الدولة ، ووزير المالية الذي يشرف على مصاريف الدولة ويوزع المال على حسب أمر الملك . ويقال إن الخزانة كانت تحوي ثلاث أو أربعة آلاف (دوقة) وقد يتضاعف هذا القدر بتضاعف الاستقرار في المنطقة . ويأتي في الأخير الحاجب الذي يدخل الناس على الملك ، ثم القهرمان المشرف على أمور القصر الملكي . والملك يرتدي ثيابا خاصة توائم مقامه العالي . فإنه فارس مقدام صنديد يعبىء بنفسه جيوشه عندما يروم التحرك ، وله حرس يرافقه ويرعاه في جميع تنقلاته . وإعالة هذا الجند وهذا الحرس يكلفه سوائر باهظة بحيث يضطر أحيانا الى ضرب نقود جديدة كثيرة من ذهب مزيف ومن فضة ونحاس ومن معادن مختلفة أخرى (1) ذكر لنا «حسن الوزان» مع هذا كله أن المرأة التلمسانية شغوفة بالحلي (2) . نعم . فإنها تحلي جبينها (ش ، 32) وأذنيها (ش ، 38) وجيدها (ش ، 32) وصدرها وأصابعها (ش ، 30 ، 36) ومعصميها وكعبيها (ش ، 37) بالذهب الخالص أو بالفضة والنحاس إذا كانت فقيرة . ولا تسل عن كثرة كلفها بالأحجار الكريمة وبالديباجات والمذهبات .

إلاّ أن هذا الرحالة عند تحدثه عن الصناع لم يتكلم على ما كانوا يصنعون . لم يذكر لنا نقش النحاس (شكل 37) والخشب (شكل 39) ولا تنميق الأدوات الجلدية ولا تطريز التيجان المخروطة والقفاطين (شكل 40 ، 39) والفريملات والمناطق والأحذية التي تتزين بها النساء . كما أنه لم يتكلم على النسيج (شكل 41) والقزازة اللذين كانت «تلمسان» تمتاز دوما بهما . يقول قبله «عبد الرحمن بن خلدون» : «إن المنسوجات الصيفية من حرير وصوف مرغوب فيها» وقد تحدث «مرمل» (3)

---

(1) ترجمة بتصرف واسع .

(2) صنع هذه الحلي كان من اختصاصات اليهود يصنعونها ويبيعونها برأس الصاغة لصق مسجد سيدي أبي الحسن وبالسويقة بجوار سيدي البناء .

(3) Marmol

بعده عن الثياب الصوفية فقال : «بلغت الثياب الصوفية قدرا من الدقة حتى أن بعضها لا تزن عشرة أواق» وقال «فارس أرفيو» : (1) «ان « تلمسان» تتميز بصنع نوع من البرنس يجعلون الشعر من الداخل في فصل الشتاء أو من الخارج في فصل الصيف أو عند سقوط المطر لأن المطر يسقط فوق الثوب دون أن ينفذ الماء فيه وإذا ما سقط المطر طويلا على الثوب فليس عليك إلا أن تنفضه فتجده جافا كأنما لم ينزل عليه ماء .

الحالة الثقافية بتلمسان :

كثرت الفتن والاضطرابات في المغرب الأوسط ، ورغم ذلك بقيت سوق الثقافة الإسلامية نافقة ، وان كان يظهر فيها شيء من الفتور . ويرجع ذلك إلى أن بني زيان – ولا سيا أبي حمو موسى الثاني – نهضوا بها نهضة واسعة ودفعوا بها دفعة قوية ، فأمكنها أن تثبت هذا الثبات لهذه الاضطرابات المتوالية ، وأضمم إلى ذلك اتصال التلمسانيين المباشر بالأندلسيين المهاجرين . فقد استولى الإسبان على «غرناطة» «والمرية» حيث انحازت الثقافة بعد سقوط «قرطبة» «وأشبيلية» . فما كان على المسلمين إلا أن يهجروا الأندلس العزيزة . فنزح منهم عدد كبير إلى الجزائر ، وانتشروا في حواضرها ، وسكن قسط وافر منهم «تلمسان» التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس من قبل ، وحملوا اليها طبعا معهم علومهم وآدابهم وفنونهم وعوائدهم وأزيائهم . فقد نظموا حلقات تعليم بالمدارس والمساجد وخاصة بالمسجد الجامع . وكان المسجد قبل هذه الآونة ، زيادة على وظيفته الدينية مركزا من مراكز الثقافة العربية والإسلامية منذ عهد المرابطين كمساجد حواضر البلاد ، ولكن إثر نزوح الأندلسيين إلى «تلمسان» أصبح معهدا للتدريس لا يقل أهمية عن جامعي الزيتونة والقرويين . فبرز عدد وافر من العلماء في الأصول والتفسير والتوحيد والعلوم اللسانية والرياضية . فلا شك أنك تريد أن تلم بأسماء بعضهم . فإليكها مع ترجمة مختصرة :

كان «أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله شهاب الدين» الندرومي التلمساني المعروف بابن الأستاذ الندرومي فقيها مقرئا عالما بالمنطق من أهل «ندرومة» . أخذ عن الإمام

---

(1) Le chevalier s'Arvieux

«ابن مرزوق الحفيد» وغيره ، ووصل القاهرة ، وتصدر بها للإقراء . له «كفاية العمل» اختصر فيه شرح شيخه «ابن مرزوق» على جمل الغنجي في المنطق . كان حيا بعد الثلاثين والثمانين 1427م على رأي صاحب نيل الابتهاج .

وكان «ابن زاغو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن» المغراوي التلمساني فقيها مالكيا مفسرا صوفيا عابداً . أخذ عن «سعيد العقباني» «وأبي يحي الشريف» وغيرهما . أخذ عنه «ابن زكري» والحافظ التنسي» «وأبو الحسن القلصادي» . درس في المدرسة اليعقوبية . وتوفي في 14 ربيع الأول 845 هـ في الوباء ، وخلف تصانيف . ذكره «القلصادي» في رحلته فقال : شيخنا الفقيه الإمام المصنف والمدرس أعلم الناس في وقته بالتفسير وأخصهم . قام بتدريس كتاب الإحياء «لأبي حامد» .

وكان «محمد بن أحمد بن أبي يحي» التلمساني الشهير بالحباك فرضيا فلكيا . ولد ونشأ «بتلمسان» أخذ عنه «محمد بن يوسف السنوسي» . له بغية الطلاب في علم الاصطرلاب ونظم رسالة الصغار في الاصطرلاب وتحفة الحساب في عدد السنين والحساب . وتوفي سنة 868 هـ (1464 م) وكان «أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مخلوف الراشدي» الشهير «بأبركان» فقيها حافظا محدثا . أصله من «طرابلس» ولكنه نشأ «بتلمسان» وبها تعلم وأخذ عن مشايخها . له الثاقب في لغة «ابن الحاجب» وثلاثة شروح على الشفاء . مات سنة 868 هـ (1464 م) .

وكان «أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب العجيسي» المعروف بالعبادي من أهل «تلمسان» . وقال التنبكتي : توفي بتلمسان سنة 868هـ 1464م) وكان «محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي» الشهير بالجلاب التلمساني فقيها مالكيا حافظا . أخذ عنه الإمام السنوسي «والوانشريسي» وأثنيا عليه . توفي سنة 875هـ

وكان «محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني» فقيها . له مشاركة في الأدب . ولد ونشأ «بتلمسان» وولي فيها قضاء الجماعة . من نتائجه تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، وهو كتاب فريد من نوعه في الجزائر . ألفه استجابة لرغبة أبداها أحد المهتمين برعاية الصالح العام وتغيير

المناكر وبموقف الشريعة من البدع التي شاعت وبطرق معالجتها . وبدأ كتابه بتمهيد يتحدث فيه عن المصادر الشرعية لقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعن قضية حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعن من يغير المنكر وما يشترط فيه شرعا وفي طرق تغيير المنكر وعن مراقبة تغيير المنكر وعن طرق الكشف عن المنكر بجمع القرائن والاستعانة بأمناء عدول يُوَزَّعون على الحارات والأسواق والشوارع لا بالتجسس أو باختلاف المناسبات . ثم استعرض ما يقع فيه الاحتساب من منكرات الشوارع والحارات والأسواق وأرباب الحرف والصناعات بدون أن ينسى طرق معاملة أهل الذمة والمعاهدين فيما لو أخلّوا بشروطهم أو أحدثوا ما لا يُحَقّ لهم . وذيّل كتابه بالتحدث عن أصول ولاية الحسبة ، وذكر من له حق تقليدها لغيره وبتوضيح أوجه الاتفاق والاختلاف بينها وبين خطتي القضاء والمظالم بعد أن قرر توسطا بين الخطتين . ويفيد المؤلف بعادات كانت متبعة في بيع اللحم والخبز والسلاح .

كان الجزار في مدينة «تلمسان» يخلط مع اللحم شيئا من الكرش والمصران أو الشحم على قدر كثرة الثمن وقلته وعلى حسب حال المشتري . فإذا كان يخشى بأسه أضيف للحم شيء قليل من البطن أو قد لا يزاد له شيء . أما الفقير المستضعف فتزاد له مع اللحم مقادير كثيرة من الكرش وتعتبر في الوزن .

واعتاد أصحاب بعض الأفران أن لا يتركوا الخبز حتى ينضج ثم يطرحوه في الأسواق ، وفي هذه الحالة ، يجب على صاحب السوق - على رأي المؤلف - أن يمنع بيعه في الأسواق ويؤدب أصحاب الفران وصاحب الحانوت . والمحتسب في «تلمسان» يتغاضى وقتئذ عن أصحاب الأفران وبائعي اللحم لأنهم يُؤدون له الرشاوي .

ويخبرنا «العقباني» بانتشار التزييف والغش في العملة . يقول «العقباني» : «ان فساد سكة المسلمين وغش دراهمهم قد عم وقوعه بهذه البلاد المغربية بأسرها ولم يقطع لمادة ذلك، جسم حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم

---

(1) كان الجزارون مع الخضارين والخبازين بجانب المدرسة التشفينية قبل أن ينتقلوا الى المدرس .

بغلاء الأسعار في كل شيء لطيّ العدّ في المبيعات بالزيوف حتى الأكرية فإنّا لله وإنا اليه راجعون» . وقد انتشر في أسواق «تلمسان» عادة النجش أو التناجش بأن يعطي الرجل قيمة للشيء دون قصد في شرائه تغريرا بغيره . ويسمّى هذا العمل في عرف التجار «بتلمسان» (البزم) .

ويخبرنا «العقباني» أن أهل الذمة كانوا لا يحملون بمساواة المسلمين في ديار الإسلام في ملابسهم وركائبهم ومبانيهم فضلا في إظهار التفوق عليهم .

فقد أدلى «العقباني» دلوه مع دلاء الباحثين في الحسبة وجذبه مملوءا بفوائد اجتماعية لذلك العصر في «تلمسان» وغيرها يضمها كتابه النفيس . توفي «العقباني» سنة 871 هـ (1467 م) .

وكان «أبو العباس محمد بن قاسم بن توزت» التلمساني فقيها مالكيا . له مشاركة في العلوم العقلية والنقلية والحساب والهندسة والفرائض . أخذ عنه الإمام «محمد بن يوسف السنوسي» .. ولد سنة 832 هـ وتوفي في سنة 895 هـ .

وكان «محمد بن مرزوق الكفيف» من أعيان فقهاء المالكية . أخذ عن والده «ابن مرزوق الحفيد» وعن شيخ الإسلام الحافظ «ابن حجر العسقلاني» في الفقه وأصوله والعربية والمنطق في سنة 861 هـ . وعاد إلى «تلمسان» . توفي بمسقط رأسه سنة 901 هـ (1481 م) .

وكان «أبو العباس حسن الغماري» التلمساني فقيها . أخذ عن الإمام «أحمد بن مرزوق» . وتوفي سنة 874 . ودفن بخلوته شرقي الجامع الأعظم .

وكان «زكرياء يحي بن أبي عمران بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني» قاضيا ببلدته مازونة . أخذ عن علماء «تلمسان» «كابن مرزوق الحفيد» «وقاسم العقباني» «وابن زاغو محمد بن العباس» . خلف كتابا «الدرر المكنونة» في نوازل مازونة ، وهو كتاب حافل بفتاوي المتأخرين من علماء الجزائر وتونس والمغرب . توفي «بتلمسان» سنة 883 هـ (1478 م) .

وكان «أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي» كبير علماء «تلمسان» وزهادها في التفسير والحديث وعلم التوحيد . أخذ عن «الحسن أبركان»

«ونصر الزواوي» وغيرهما . توفي «بتلمسان» عن ثلاث وستين سنة . له العقيدة الصغرى والعقيدة الوسطى وشرح صغرى الصغرى وشرح صحيح البخاري وشرح جمل الغنجي في المنطق وشرح مقدمات الجبر والمقابلة «لابن الياسمين» والعقد الفريد في حل مشكلات التوحيد وكتب كثيرة .

وكان «أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري» التلمساني المعروف بالرصاع فقيها من القضاة . نشأ «بتلمسان» وعاش «بتونس» وولي قضاءها . كان في أيامه الأخيرة إمام جامع الزيتونة والخطابة . كان مصدرا للإفتاء وإقراء الفقه والعربية . وترك تصانيف . توفي سنة 894 هـ (1489 م .

وكان «أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن أحمد الحسني» التلمساني فقيها مالكيا من القضاة . أخذ عنه «أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق» الغرناطي الذي سبق الكلام عليه . توفي بعد سنة 896 هـ (1491 م) .

وكان «محمد بن عبد الرحمن الحوضي» أديبا . نشأ «بتلمسان» ونال من الأصول قسطا وافرا ، وتعاطى الأدب . فأصبح شاعرا لا يستهان به . من شعره مادحا سلطان «تلمسان» «أبا عبد الله الزياني» قوله :

أصبح المزن من عطائك يحكي	يوم تفخر الأنام عطاء
كيف يدعي لك الغمام شبيها	ولقد فقته سنا وسناء
أنت تعطي اذا تقصر مالا	وهو يعطي اذا تطول ماء

توفي «الحوضي» (1) في ذي القعدة عام 910 هـ «بتلمسان» . هكذا جاء في وفيات «الوانشريسي» .

وكان الحافظ «محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي» (2) التلمساني أديبا ومن أكابر علماء «تلمسان» وصفه «أحمد بن داود» ببقية الحفاظ قدوة الأدباء العالم الجليل . أخذ العلم عن علماء بلده منهم «ابن مرزوق الحفيد وابن الإمام وقاسم العقباني والعالم الأصولي» «محمد ابن النجار وابراهيم التازي وابن العباس» . تصدر للإقراء ، فأخذ عنه «أبو القاسم الزواوي والشيخ عبد الله بن الجلال وحفيد

(1) ترجمته بنفس المصدر ص : 281 . ط . (1)

(2) انظر ترجمته في تاريخ الأدب الجزائري ص : 287. ط . (2)

الحفيد بن مرزوق» . وله تآليف منها الطراز في الضبط ونظم الدر والعقيان في دولة آل زيان وراح الأرواح فيما قاله «أبو حمو موسى الثاني» . وتوفي سنة 900 هـ (1494 م) .

وكان «أحمد بن يحي بن محمد الوانشريسي» متخصصا في علوم الشريعة والأصول . ولد حوالي سنة 834 هـ (1428 م) ، وتتلمذ لشيوخ «تلمسان» «كأبي الفضل قاسم العقباني القاضي العالم ومحمد بن العباس وأبي عبد الله الجلاب والكفيف بن مرزوق والغرابلي والمازوني» . وقعت له محنة من طرف السلطان ، فانتهب داره «بتلمسان» في أوائل محرم 874 هـ (تموز 1419 م) . فعزم على مغادرة بلده، ولجأ إلى «فاس» فاستوطنها وانقطع فيها للتدريس . فتخرج على يده جماعة من كبار العلماء منهم ولده «عبد الواحد وأبو عبّاد بن مليح اللمطي والأستاذ أبو زكرياء السوسي والفقيه محمد بن عبد الجبار والورتد غيري والمصمودي وقاضي فاس محمد بن الغرديسي» . وكان لهذا القاضي مكتبة هائلة انتفع بها الشيخ الوانشريسي في تصنيف معياره . قد وصفه «المقري» بحافظ الإسلام توفي يوم الثلاثاء 20 من شهر صفر سنة 914 هـ (14 أفريل – حزيران 1508 م) وقد رثاه «الوادي آشي» غير ما مرة . فمما قاله فيه هذه الأبيات :

فقد أظلمت «فاس» بل الغرب كله ... بموت الفقيه «الوانشريسى أحمد»

رئيس ذوي الفتوى بغير منازع ... وعارف أحكام النوازل الأوحد

له دربة فيها ورأي مسدّد ... بإرشاد الأعلام في ذاك تهتدي

وتالله ما في غربنا مثله ... ولا من يدانيه بطول تردد

عليه من الرحمن أفضل رحمة ... تروح على مثواه فيضا وتغتدي

وكان «أحمد بن محمد بن زكري المانوي» التلمساني فقيها مالكيا أصوليا بيانيا علامة «تلمسان» ومفتيها في زمنه . كان في أول الأمر حائكا . فتعاطى العلم ، فأخذ عن «ابن مرزوق وقاسم العقباني وابن زاغو» . توفي على حسب «الوانشريسي» في صفر سنة 899 هـ (1493 م) . خلف مسائل القضاء والفتيا وبغية الطالب في شرح عقيدة «ابن الحاجب» ومنظومة في علم الكلام أسماها محصّل المقاصد مما به تعتبر العقائد .

وكان «ابن صعد بن أحمد بن أبي الفضل بن سعد» التلمساني فقيها صوفيا . نشأ «بتلمسان» وأخذ عن علمائها كالحافظ «التنسي» . خلف مصنفات وتوفي سنة 901 هـ (1496 م) .

وكان «أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش» فقيها أصوليا . له شعر . خرجت عائلته من «اشبيلية» واستوطنت «تلمسان» وبها ولد وأخذ عن علمائها . توفي سنة 911 هـ (1505 م) تاركا مصنفات .

سقوط «وهران» في يد الأسبان :

خلف الملك الراحل «الثابتي» أخوه «أبو زيان» الثالث المسعود ، فخلفه عمه «أبو حمو» الثالث الملقب بأبي قلمون في تحفة الزائر وبأبي قلمس عند أبي رأس ، وسجن المسعود . وفي عهده استولى الأسبان على المرسى الكبير . فإن النصارى لم يكتفوا بدحر المسلمين إلى ما وراء البحر فأبوا إلا أن يستولوا على المغرب العربي على نية حمل أهله على اعتناق الدين المسيحي قسرا . وأضف إلى ذلك أن الأسبان كانوا يخافون أن يعيد المسمون الكرة من جديد . فكانوا يعلمون أن هزيمة المسلمين في الأندلس ما هي إلا نتيجة اختلاف الملوك والقادة والزعماء في العدوتين وأن المغرب العربي سوف يتغلب على هذه المآسي فتجتمع كلمتهم مرة أخرى ويكتسحون الأندلس ويتربعون فيها كما وقع من قبل . فغادر الأسطول الاسباني مدينة «مالقة» يوم 29 أوت 1505 م قاصدا المرسى الكبير . فنزلوا بعد مقاومة عنيفة سنة 911 هـ واحتلوا المدينة ، وفي سنة 914 هـ هجموا على «وهران» ، فاحتلوها ، وحوّلوا مسجدها الأعظم كنيسة ، وأطلقوا عليه اسم كنيسة القديس ميكائل . ولاذ الحاكم الاسباني إلى المكر . فأخذ يوالي جهوده بواسطة الخونة من الأعراب المحيطين «بالمرسى الكبير» لبث بذور الفتنة والشقاق بين المسلمين والوعد ببذل الإعانات المادية والأدبية لمن يتعلق بأذياله . وقد نجحت مساعيه . فثار على «أبي حمو الثالث» «أبو زيان السعيد يحي الثابتي» أخو «المسعود» السجين حيث كان المسلمون يستعدون للجهاد ليستردوا ما امتلكه الأسبان . فدخل «تنس» واستبدّ بها تحت حماية إسبانية . فجهز «أبو حمو الثالث» جيشه لقتال ابن أخيه بتنس كما جهز «يحي» لقتال عمه . فلما كان على وشك الانتصار التام توقف جيشه

عن القتال . فثبت «يحي» «بتنس» ، ورجعت جموع «أبي حمو» إلى «تلمسان» . وحارب «أبو حمو» الأسبان مرارا ، ولكنه عجز عن مقاومتهم . فاحتمى بهم في آخر الأمر على أن يؤدي لهم ضريبة سنوية مبلغها اثنا عشر ألف دوقة واثنا عشر فرسا وستة بزاة . فانظر إلى أين أدى شقاق الأسرة المالكة الراجع إلى نهمهم وعدم وعيهم . فغضب الشعب التلمساني على «أبي حمو» لإهانة الإسلام باحتمائه بالنصارى ولأثقال كاهلهم بالضرائب لاسترضاء سيده حاكم «وهران» .

«تلمسان» في عهد الدولة الجزائرية الجديدة :

قيض الله للجزائر بطلين مجاهدين غيّرا مجرى التاريخ في بلادنا هما «عروج» وأخوه «خير الدين» . خرجا مجاهدين في سبيل الله . فأنقذا عددا كبيرا من مسلمي الأندلس ، وحاولا إنقاذ «بجاية» ، وفتحا جيجل ، واستوليا على النفائس ومختلف البضاعات التي وضعها فيها أهل مدينة «جنوة» المعادين للمسلمين ، وبادروا بإرسال هدية سنية للسلطان «سليم العثماني» في« استامبول » ، وشرحا للسلطان العثماني ما هما عليه من جهاد مرير في سبيل إنقاذ وطن الإسلام من بين براثن الصليبية الاسبانية التي توشك أن تقضي عليه رغم استبسال أهله في الدفاع الغير المنظم ، وحاجتهما الأكيدة للعون والتأكيد . فقبل السلطان «سليم» هذه الهدية وفرح بها ، وقرر أن يمد يد المساعدة لهذين المجاهدين في سبيل الإسلام . وما هي إلا حتى جاءت هدية السلطان للبطلين التركيين ردا على هديتهما . فكانت تشمل 14 سفينة قرصنة تحمل رجالا أشداء مع كميات من الأسلحة والعتاد الحربي . وهكذا ابتدأت العلاقات الودية الجهادية بين الجانبين العثماني والجزائري . فقام البطلان يهيئان حملة جديدة تقضي على الاحتلال الإسباني نهائيا. فبدأ بتحرير «الجزائر» فيسر الله لهما ذلك . فاجتمع مع رجال الحل والعقد فيها . فأجمعوا على إسناد خطة أمير الجهاد إلى «عروج» . فكان ذلك الحجر الأساسي لصرح الدولة الجزائرية الجديدة ، وكان ذلك في سنة 1516 نفس السنة التي مات فيها «فرديناند الكاثوليكي» . وتألف الجيش من الأتراك أصحاب «عروج» وهم قلة قليلة يقودون الفرق الجديدة ويسيرون في الطليعة ومن رجال الأندلس المهاجرين ومن الجزائرين . فلم تسمع مدن البليدة ومليانة والمدية والمقاطعات القبائلية بالخبر حتى انضم أهلها إلى الدولة الفتية . وأوّل ما فكر فيه

«عروج» وأخوه «خير الدين» هو إنقاذ مدينة «تنس» من «الثابتي» . فساروا اليه في شهر حزيران سنة 1517 م على رأس جيش مؤلف من ألف تركي وفرق من المجاهدين الأندلسيين والجزائريين . أمدت اسبانية «الثابتي» بخمسمائة رجل ومع ذلك دخل المسلمون «تنس» ، فهرب السلطان المزعوم الخائن ، وركب الأسبان سفنهم . رأى «عروج» بعد ذلك أن يقسم المملكة إداريا إلى مقاطعتين مقاطعة شرقية يشرف عليها أخوه «خير الدين» ومقرها الإداري مدينة «الجزائر» العاصمة . لم يبرح «عروج» مدينة «تنس» حتى جاءه وفد مهم من «تلمسان» يشكو له عفونة الحالة السياسية في العاصمة الزيانية وما انتابها من فوضى واضطراب من جراء تنازع أفراد الأسرة الزيانية وتطاحنهم على السلطان ، ويطلب منه نجدته ضد السلطان «أبي حمو الثالث» الذي جلس على عرش «تلمسان» بإعانة الأسبان وتحت حمايتهم بعد أن اجتمع بالملك «فرديناند الكاثوليكي» في مدينة «بورغوس» باسبانية (1) ، ودان له بالطاعة ، وأعلن له التبعية وألقى بالملك الشرعي «أبي زيان» في غياهب السجن . فلبى «عروج» نداءهم ونهض قاصدا «تلمسان» . فاتخذ طريقا بعيدة عن الشواطيء حتى لا يصطدم بالأسبان فيصدوه عن غايته . مر بقلعة «بني راشد» ، فأعجبه موقعها ، فجعل منها مركزا لحماية مواصلاته وترك بها حامية من 600 رجل أمر عليهم أخاه الثالث «إسحاق بن يعقوب» ، وأمرهم بالتضييق على الأسبان في «وهران» وعرقلة أعمالهم وتحركاتهم العسكرية حتى لا يعيقوا سيره نحو «تلمسان» . ثم انطلق حتى صادف «أبا حمو» في جيش غفير يشتمل على 6000 فارس و 3000 راجل يحاولون صدّه عن «تلمسان» . فهاجمهم حالا ، فانهزموا . وواصل «عروج» سيره إلى «تلمسان» . فتقبله أهلها حارا . أما «أبو حمو» فالتجأ إلى «وهران» واضعا نفسه تحت حماية حاكمها مستمدا منه المساعدة والمدد ليسترجع ملكه . وكان «عروج» قد أجلس على عرش «تلمسان» السلطان «أبا زيان الثالث المسعود» بدل عمه الذي اغتصب منه الملك «أبو حمو الثالث» ، وجعل دولة «أبا زيان» تابعة لدولة «الجزائر» . فاستقرّ الوضع بالعاصمة . ولكن ، ما هي إلا أيام حتى عادت الفتن والدسائس إلى ما كانت عليه من قبل يغذيها الأسبان من جهة ويغذيها صاحب العرش والطامعون في

---

(1) Burgos

هذا العرش من جهة أخرى . فاتفق أن غادر «عروج» «تلمسان» يتنقل في نواحي المغرب الأوسط فعفن في أثناء غيابه الجو السياسي . فقام «أبو زيان» ينبذ تبعيته للجزائر بينما أخذ أشياع عمه «أبي حمو» يطالبونه بالنزول عن العرش . والأسبان وقتئذ متربصون للوثوب على الفريسة التي من أجلها يتفانون . ولحسن الحظ أن عاد «عروج» الى العاصمة . فأغضبه ما حدث ، ولم يقف موقف المتفرج . فأبى إلاّ أن يطهر الجو قبل أن يستفحل الأمر . فأمر بقتل «أبي زيان الثالث» وأنصاره ورجال المشايعـة .

فأبى حاكم «وهران» إلا أن يجعل حدّا لتوسع الدولة الجزائرية على حساب أنقاض الدولة الزيانية . فامدّ «أبا حمو» بالعدد والعدد وبعث به الى «تلمسان» . فعرج على «قلعة بني راشد» حيث كان «إسحاق بن يعقوب» شقيـق «عـروج» رابضا . فنازله بحشوده العديدة ، ولكن «إسحاق» لم يستسلم له إلاّ بعد أن تعهّد له بأن يتركه حرا يذهب إلى «تلمسان» مع بقايا رجاله . فكان له ما طلب وقصد «تلمسان» . لكن جماعة «أبي حمو» كمنوا لهم ، فاغتالوهم أثناء الطريق ، وذلك في أواخر يناير 1515 م . وفي غضون ذلك كان جيش «أبي حمو» يسير إلى «تلمسان» ، وكانت فرقة «بأرسغول» ، فسارت نحو «تلمسان» ، وانضمت إلى جموع «أبي حمـو» ونصبوا حول المدينـة حصـارا محكمـا ، فنشبت الحرب بينهم وبين «عروج» والذين كانوا معه من جزائريين وتلمسانيين . فأبلى هؤلاء بلاء لانظير له رغم عدد الأسبان وأنصارهم من رجال «أبي حمو» وبقوا صامدين مدة ستة أشهر إلى أن تمكّن الأعداء من تحطيم أسوار المدينة بقصف المدافع . فدخلوا المدينة وانقلبت المقاومة إلى حرب في الأسواق والطرقات والمنازل . فاضطر «عروج» وبقية رجاله في آخر الأمر إلى قلعة المشور ، فتحصنوا بها منتظرين مددا يأتيه من الملك الوطاسي «بفاس» تنفيذا لاتّفاق عقد بينهما . فأرسل إليه ملك المغرب بجيش ليتمكن من الدفاع عن «تلمسان» ضد العدوّ المشترك وأنصاره . لكن ذلك الجيش سار على طريق «مليلة» ، فطال به السير ، ولم يتمكن من الوصول في الوقت اللازم . فلمّا تمّ الأمر قفل راجعا .

ضاق الحصار على المشور ولم يبق فيه إلاّ زهاء 500 رجل من الأتراك مع «عروج» عزموا على الموت عن آخرهم دفاعا عن القلعة التي كانت تحمل آمال

الوحدة وآمال الإنقاذ . جاء يوم عيد الفطر وتقدم نحو المشور جماعة من المسلمين كثيرة العدد وطلبت من حماة المعقل السماح لهم بإقامة صلاة العيد في مسجد المشور حسب عاداتهم ، فأذن لهم الأتراك بذلك . وما كادت هذه الجماعة تدخل الحصن حتى أخرجت من بين ثيابها أسلحتها وانقضت على الأتراك فأمعنت فيهم قتلا . لكن البقية الباقية من الأتراك لم تلبث أن استرجعت ثباتها ونظمت خطة دفاعها وتمكنت من دحر المعتدين وراء الأسوار . فقرر «عروج» أن يشق طريقه بواسطة السلاح ليصل إلى ساحل البحر فيجمع حوله أنصارا وينتظر وصول أسطول «الجزائر» بمدد يرسله «خير الدين» . لكن جماعة كبيرة من الأسبان تحت قيادة «الفردنخار سيادي لابلازا» تبعته . فوقعت بين الفريقين معركة بنواحي المويلح قرب الحدود المغربية . ويقول بعضهم إن اللقاء كان بالمالح الواقع بين «وهران» «وعين تموشنت» فإننا لا نرى رأيهم في ذلك . فكيف يمكنه أن يتخذ طريقا خطرة قد يصطدم فيها بالأسبان حيث أنها تؤدي إلى معقل العدوّ وبالأمس القريب قد اتخذ طريقه إلى «تلمسان» عندما نهض إلى «أبي حمو» من «الجزائر» بين الهضاب الداخلية حتى لا يصطدم بالأسبان في ناحية «وهران» وكانت جموعه يومئذ عديدة بالنسبة إلى الأفراد القليلين الذين كانوا في صحبته هذه المرة . وهذا اللقاء كان عنيفا ، فمات «عروج» واحتزوا رأسه ، وكان يبلغ الخمسين من عمره . فذهبوا برأسه إلى العاصمة . فدفن بجوار ضريح سيدي رمضان . فدخل إلى «تلمسان» عشرة آلاف من الأسبان ليعيدوا عبدهم وصنيعهم «أبا حمو» الثالث إلى العرش الذي تداعى بنيانه وانهارت أركانه .

كانت «هنين» تشكّل مركزا تجاريا هامًّا مع أوربا . فلم ير السلطان بدًّا من تحصينها حينما احتل الأسبان مدينة «وهران» فرضة «تلمسان» الثانية سنة 1509 م وطمعوا في بسط نفوذهم على العاصمة الزيانية وإقليمها ، «وهنين» من ذلك الإقليم ، فإن استولوا عليها نزل اقتصاد «تلمسان» إلى الحضيض حيث تنقطع المبادلات التجارية جهة هذا الثغر . وقد حدث ما كان يتوقعه السلطان . في شهر غشت من سنة 1531 م أمر الأمبراطور «شارلوكان» القائد الإسباني «دون بازان» بمهاجمة «هنين» بقوة واحتلالها ، فهكذا يسهل عليه ، الاستيلاء على إقليم «تلمسان» غربا وإمارة الحفصيين التي أخذ الهون يدبّ في مفاصلها

شرقا ، أن يضيّق على الدولة الجزائرية الفتية ويأخذ بخناقها فتستسلم لإرادته ـ لا قدر الله ـ فالقوات الاسبانية كانت ضخمة فاحتلت مدينة «هنين» وتحصّنت بها رغم المقاومة العنيفة التي بذلها الشعب الذي لم يكن له قيادة محنكة توجه حركاته ولم يكن بيده سلاح . فمات من العدو في هذه الموقعة 700 مقاتل وتعطب 15 مدفعا ولم يمكنهم أن يتوغلوا داخل البلاد . ثم لم يصلهم مدد من «وهران» ، فساءت أحوالهم حتى اضطروا إلى أن يبتعدوا عن المدينة ومرساها بعد ثلاثة أعوام خلال شهر كانون الأول 1534 م . وقد أمعنوا في تخريبها وتقويض مساجدها .

ثم لم يزل بنو زيان يتكالبون على العرش ويحتمي أدعياؤه بطائفة من الشعب وطائفة من الإقطاعيين حينا وبأسبانيا وبالجزائريين العثمانيين أحيانا . قتل «أبو زيان» الثالث . فخلفه أخوه «أبو حمو محمد عبد الله الثاني» بن المتوكل سنة 924 هـ 1518 م . حاول سياسة حياد بين اسبانيا والجزائر ، فلم يفلح ، وأبعد أخاه «مسعود» إلى «فاس» . ثم استرجعه ، فعدل عنه إلى «حسن بن خير الدين» واستعانه على أن يؤدي له ضريبة سنوية ومبايعة الخليفة «سليم الأول» العثماني . فأمدّه بالمال والجيش ، فأخرج أخاه إلى «وهران» ، وملك «مسعود» «تلمسان» ولكن لم يلبث أن نقض طاعة «ابن خير الدين» . فدعاه إلى الوفاء ، فأساء الجواب . فكان ذلك فرصة سانحة لأخيه فذهب إلى «الجزائر» يستنجد «ابن خير الدين» ضد أخيه ويلتزم البيعة والوفاء . فأنجده «ابن خير الدين» ، وتحزب معه الشعب ، ورجع إلى «تلمسان» ، واستمر على الوفاء مختارا تارة ومضطرا تارة أخرى إلى أن مات ملكا رغم الاضطراب والشغب . فخلفه ولده «محمد الرابع» سنة 930 هـ (1524 م) فاشتدت في عهده شوكة اسبانيا . فخضع لها واشترطت عليه ضريبة سنوية وتسريح أسرى النصارى وعدم منازعتها الاستيلاء على «الجزائر» «وشرشال» «وتنس» لكن الظروف حالت دون تنفيذ هذه الشروط . وفي سنة 949 هـ 1542 م خلعه أخوه «أبو زيان أحمد» الثالث بإعانة الأتراك ، وأقام جنداً منهم «بتلمسان» ، وأظهر استعدادا لمحاربة الأسبان ، وجمع كلمة المسلمين استجابة لرغبة الشعب . لكن «محمدا أبا عبد الله» أتى بنجدة اسبانية استأصلها «أبو زيان» بشعبة اللحم بالقرب من «وهران» في شهر شوال . ثم «أبو عبد الله» والأسبان أعادوا الكرة ،

فدخلوا «تلمسان» في ذي الحجة . ولا تسأل عما فعلوا بأهلها ؛ قد قتلوا ونهبوا واعتدوا على الحرم . وعاد «أبو عبد الله» إلى عرشه . وما هي إلاّ حتى هجم عليه أخوه «أبو زيان» سنة 950 هـ وكانت معارك بين الأخوين . فكانت الدبرة على «أبي عبد الله» لجنايته على «تلمسان» بإدخال النصارى اليها . وفي أواسط شعبان 952هـ استولى «حسن بن خير الدين» على «تلمسان» . فلحق «أبو زيان» «بدبدو» . فغدر به صاحبها «عمر بن يحي الوطاسي» ، فاعتقله ووزيره «منصور بن أبي غانم» ومن معه من آل زيان ونهب أموالهم . ثم سرح «أبا زيان» في محرم سنة 953 هـ ليحفظ «تلمسان» من السعديين لأن هؤلاء ، ان ملكوا «فاس» ، فلا شك أنهم سيغيرون على «تلمسان» . وبالفعل لما ملك الشريف «محمد المهدي» «فاس» ، عزم على اكتساح المغرب الأوسط والاستيلاء على «تلمسان» ، فيرى أنه أولى بهذا البلد من الأتراك الدخلاء . ولماذا لا يعتبر الأسبان والبرتغاليين دخلاء ؟ فليسوا من أمتنا ولا من ملتنا ، فإنهم أعداء الإسلام ولم يدخلوا بلادنا إلا لمحاربته في عقر بيته وتنصير المسلمين ومحقهم إن أبوا اعتناق النصرانية . فالأتراك كانوا يومئذ حماة الإسلام ، استنجدهم منكبو الأندلس واستصرخناهم نحن أيضا . فأجابوا فرحين وبذلوا النفس والنفيس مستبسلين . ولم يدخل الأتراك إلى «تلمسان» من تلقاء أنفسهم . فأهلها هم الذين استعانوهم على إنقاذ بلدهم من الفوضى التي رماه فيها ملوك آل زيان المتعاونون مع العدوّ المتكالبون على العرش .

محاولة السعديين الاستيلاء على «تلمسان» :

فجهز الشريف «محمد المهدي» مؤسس الدولة السعدية جيشا قويا ووضعه تحت قيادة ابنه الشريف «محمد الحران» وبعث به ليتوالى فتح «تلمسان» وبلاد المغرب الأوسط سنة 1550 م فنهض الأمير من «فاس» قاصدا «تلمسان» إلى أن نزل عليها ، وحاصرها تسعة أشهر ، ثم تمّ له الفتح يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة 957 هـ (1550 م) ، وأجلى الترك عنها ، وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي الشلف . والجزائر كانت يومئذ لا تفكر إلاّ في مقاومة الإسبان وتطهير البلاد من براثنهم . فجهز «حسن بن خير الدين» لذلك جيشا كثيفا إلى «وهران» ينتزعها من يد النصارى ، وبينما الجيش يواصل طريقه إلى «وهران» إذ اتصل به الخبر بأن السعديين استولوا على «تلمسان» ، واحتلوا «مستغانم» ،

ووصلوا الى شلف . فشكل الجزائريون في الحين فرقة ضخمة وعقدوا عليها «لحسن قورصو» . فسارت توا إلى شلف والتقت بالجيش السعدي وهزمته بينا فرقة أخرى قصدت «مستغانم» ودكت الحامية السعدية دكا . ثم شن معظم الجيش وأهل «تلمسان» هجوما عنيفا على السعديين أسفر على مقتل الشريف «محمد الحران» وقفول المغاربة إلى «فاس» . ولم يرتدع «محمد الشيخ» . فحدثته نفسه مرة أخرى باستئناف المعركة . فعد لولده «عبد القادر» على جيش يبلغ عدده عشرون ألف مقاتل إلى الجهة الشرقية ، لكنه لم يعبر الحدود الجزائرية المغربية . ولعل السلطان بعثهم لصد الجزائريين عن الدخول إلى المغرب. ومما يؤسف له أن الجزائريين والمغاربة لم يلبثوا أن التقوا بنـواحي قبـة سيدي موسى حيث استشهد البطل «عروج» قبل ذلك العهد . وكانت المعركة عنيفة أسفرت هي الأخرى عن مقتل الشريف عبد القادر قائد الجيش المغربي ورجوع هذا الجيش إلى ما وراء ملوية . وعاد الجزائريون إثر ذلك إلى «تلمسان» حيث نصبوا على العرش الزياني الأمير «الحسين بن عبد الله» الثاني ، وانسحبوا تاركين بالمشور 1500 جندي برأسهم «صفطة» الذي كان له الحكم الفعلي . ويبدو أن الجالس على العرش كان ظالما سيء السيرة . فضاق ذرعا أهل البلد من تصرفاته الشنيعة ، فاغتنمو فرصة وجود «صالح رايس» «بتلمسان» ، فرفعوا إليه شكواهم منه . فطلب في الحين رأي العلماء فيه . فاجتمعوا وقرروا خلعه ، فأعلن «صالح رايس» نهاية دولة بني زيان وانضمام «تلمسان» نهائيا إلى الدولة الجزائرية وذلك سنة 962 هـ (1554 م) .

لقد سبق أن قلنا أن الإسبان أجلوا المسلمين من ديارهم . فأتبعوهم إلى حيث رحلوا . ولم يلبث أمراء آل زيان أن يتواطأوا معهم . فزادت الحالة السياسية بذلك تدهورا في الاقليم كله . فأثقل الملوك ظهر السكان بالضرائب الفادحة ، وأضر الإسبان المنطقة كلها بغاراتهم الفاتكة وتعسفاتهم الشنيعة . كل ذلك ولم تخل «تلمسان» من العلماء ، ولكن هؤلاء مهما كان نشاطهم فكان ينقصهم روح الاجتهاد والإبداع ، ولا بدع من هذا ، فالانحطاط أخذ يدب قويا في مفاصل العصر سياسيا واجتماعيا وفكريا ، والرعية على دين ملوكها . فأصبحوا يجترّون ما وصل اليهم عن السلف . فقد صنفوا ، وهناك من صنف كثيرا ، ولكن تصانيفهم كانت

مرآة العصر خالية من الاجتهاد الذي اتسم به غيرهم في الأيام الماضية لم يضيفوا إلى التراث شيئا جديدا .

وسوق الأدب لم تفلت من هذه الظاهرة . كنا نلمس قبل هذه الآونة شيئا من الحياة في الأدب ، ولكن بما أنه لم يجد المؤثرات التي تشجعه وتدفع به إلى الأمام نراه ينحدر شيئا فشيئا نحو هوية عميقة يصعب له الخروج منها لأن البلاد تعيش ليالي دامسة . إلاّ أن هذا الظلام الحالك سينقشع مرة مرة فيظهر بصيص من النور ، فنقرأ أشعارا مملوءة بالحيوية على غرار ما قد عودنا عليه شعراء أيامنا الذهبية الزاهية . فنذكر من مثقفي هذه الفترة ، «أبا عبد الله محمد بن محمد بن العباس» . فكان فقيها نحويا من أهل «تلمسان» . أخذ عن الإمام «السنوسي والكفيف ابن مرزوق وابن زكري والحافظ التنسي» ، رحل إلى «فاس» . فأخذ عن «ابن غازي» وغيره . ثم رجع إلى بلده . فكان حيا بعد 920 هـ (1514 م) «ومحمد بن محمد بن هبة الله الوجديجي» المعروف بشقرون التلمساني ، ولد سنة 908 هـ له مشاركة في علوم المنطق والفرائض والبيان . ولي الإفتاء «بتلمسان» . رحل إلى «فاس» سنة 967 هـ وولي الإفتاء «بمراكش» . ولم يلبث أن عاد إلى «فاس» حيث توفي سنة 983 هـ (1579 م) .

«محمد أحمد التلمساني بن الوقاد» . أخذ العلم عن مشائخ بلده منهم «التنسي» رحل إلى المغرب الأقصى ، ودخل «تارودانت» ولي بها قضاء الجماعة . ثم انتقل إلى مكناسة الزيتون» ، ثم إلى «فاس» . وتولى في كلا البلدين الخطابة ، ولكن لم يلبث أن رجع إلى «ترودانت» واستقر بها . توفي سنة 1001هـ .

«وأبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف» المعروف بابن «مريم» . كان حيا سنة 1014 هـ (1605 م) ، ولد ونشأ بتلمسان وتوفي فيها . له البستان ، انتهى منه سنة 1014 هـ وتصانيف أخرى .

«وابا عثمان سعيد بن عبد الله التلمساني» المنداسي الأصل . كان شاعرا . من آثاره الحقيقة ، قصيدة لامية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . توفي سنة 1088 م .

قد استعدّ الجزائريون لاسترجاع «وهران» . وانضمّ إليهم جيش «تلمسان» ورجالها . في ذلك الوقت بالذات دخل الجيش السعدي على حين غفلة ، وجعل على رأس المدينة القائد «ابن غانم» زعيم قبائل بني راشد ووزير أواخر ملوك الزيانيين

المحتمين بأسبانيا . وكانت هناك حامية تحت قيادة «صفطة» ، فلم تستسلم مع قلتها . فالتجأت إلى حصن المشور ، واعتصمت به مقاومة حتى جاءها المدد . وهجوم السعديين على «تلمسان» في ذلك الوقت الحرج كان مدبرا . فما هو إلاّ تنفيذ اتفاق أبرم بين الشريف السعدي وبين الإسبان . ولا تنقصنا الوثائق على هذه المؤامرات الاسبانية السعدية التي هي امتداد للمؤامرات العديدة التي كانت على أرض الأندلس بين الإسبان والمسلمين ضدّ الإسلام ، تجد بعضها في كتاب الأخ «توفيق المدني» «حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ص 360 ـ 366» . فنهض «ابن خير الدين» في جيشه ، وسار حالا لإرجاع جماعة الشريف وراء حدود بلادهم ولإنقاذ الحامية الجزائرية التي بقيت في قلعة المشور تحت قيادة الأمير «صفطة» . وصل الجيش الجزائري إلى «تلمسان» ولم يضطر السعديين إلى الانسحاب إلى ما وراء ملوية فحسب بل تتبع خطاهم ووصل إلى «وادي اللبن» حيث دارت رحى معركة بين الجانبين كانت الدبرة على الجيش السعدي ثم رجع الجزائريون إلى الجزائر .

دب الوهن في مفاصل الدولة السعدية . فخرج الملك من عائلة الأشراف السعديين إلى عائلة الأشراف العلويين ، وكان ذلك سنة 1050 هـ (1640 م) . فاستتب الأمر للسلطان «محمد بن الشريف» بسجلماسة أصل العائلة الشريفة العلوية ، وانضمّ اليها المغرب من أقصاه إلى أدناه . ويحدثنا «الناصري» عن الغارات التي قام بها في المغرب الأدنى وفي الثغر الغربي من الجزائر فيقول : «سار بهم إلى بني يزناسن وكانوا يومئذ في ولاية الترك . فأغار عليهم وأنهب أموالهم وامتلأت أيدي العرب الذين جاءوا معه من مواشيهم ، ثم انتهى إلى «وجدة» وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك وبعضهم خارجون عنهم . فانحاز الخارجون إلى المولى «محمد» . فأغراهم بشيعة الترك ، فانهبوهم وشردوهم عن البلد . ثم دلته العرب على أولاد زكري وأولاد علي وبني يسنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانهبهم . ثم توجه إلى «تلمسان» . فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها ، واكتسح بسائطها . فبرز اليه أهلها ، ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقصبة ، فأوقع بهم وقتل منهم عددا كبيرا . ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانهب أموالهم ، ثم رجع إلى المغرب» .

فجمع «عثمان باشا» صاحب الجزائر ديوانه . وقرروا أن يوجهوا اليه وفدا يدعوه باسم الله والإسلام أن لا يعود لمثلها . وبعثوا اليه مع الوفد برسالة . فقرأها الشريف واغتاظ . فأرسل الديوان الجزائري الوفد من جديد ، وكلف رجاله بمخاطبة الشريف بالطريقة التي يراها مؤثرة . فنجح . يقول الناصري : «لما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظم ودخلته القشعريرة وعلاه سلطان الحق ، فأذعن وقال : والله ما أوقعنا في هذا المحذور إلاّ شياطين العرب . انتصروا بنا عليّ أعدائهم وأوقعونا في معصية الله . وإني أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسول الله لأقطعت وادي تافنه إلى ناحيتكم إلاّ فيما يرضى الله ورسوله ، وكتب لهم بذلك عهدا إلى صاحب الجزائر .

البلـد تحت سيطـرة الأتـراك :

ان تسلط الاسبان على البلاد كان له فعله البارز في تنبيه المجتمع الجزائري وفي إعداد نهضته واسترجاع كيانه . فاسترجع سيادته الكاملة . لكن لم يكد الاسبان يغادرون أرضنا حتى حل محلهم الأتراك . ولا تسل عما قاسى الشعب الجزائري من مرارة تصرفات الجند التركي المتكون من أتراك ومرتزقة . وأضف إلى ذلك أن الأتراك انفردوا بامتيازات على حساب أهل البلد ، الأمر الذي اضطرّ أسرات تلمسانية إلى أن يغادروا بلدهم العزيز ويستوطنوا المغرب . إلا أنه وقع استقرار نسبي كان له أثره في الميدانين الاجتماعي والاقتصادي في عهد «محمد عثمان باشا» «ومحمد باي الكبير» . فازدهرت الفلاحة وتربية المواشي . وبجانب الزراعة نرى ان الصناعة قد نشطت . فقد أحدق الصناء في النسيج والدباغة والنحاس والأسلحة كالسيوف والبنادق . والأندلسيون النازحون إثر الاضطهاد الإسباني المسيحي قد شاركوا في هذا النشاط الاقتصادي . فإنهم اندمجوا في المجتمع الجزائري (1) . فاستقرّ الفلاحون منهم بالريف ، فأفادوا مواطنينا بتجاربهم من ري إلى غراسة إلى تربية الحيوانات . واستقرّ الباقي منهم في الجهتين الشمالية والشرقية من المدينة ،

---

(1) الخليط من العنصرين التلمساني والأندلسي أطلق عليه في تلمسان اسم الحضر. فكان منهم العلماء والأدباء والفنانون والفلاحون والصناع والتجار وكل الأسواق كانت منشة في حيهم كثيرة الرواج متواصلة الحركة .

فأفادوا بعلومهم وفنونهم وحرفهم خلافا للأتراك الذين ظلّوا يعيشون على هامش المجتمع التلمساني ، وذلك لأن السياسة التركية كانت قائمة على التخوف من السكان الجزائريين وعلى حرمان هؤلاء من مناصب الإدارة والحكم كما فعلت «رومة» من قبل وفرنسا من بعد . فإن خطتهم كانت خطة استعمارية محضة . بقوا طويلا «بتلمسان» ومع ذلك طالما بحثنا على آثارات تركية بالمدينة فلم نعثر على شيء إلاّ ما كان من بعض الأسماء ، فإن الأتراك الذين كانوا مقيمين بها قد تزوجوا بالتلمسانيات اللواتي أنجبن ذلك العنصر المسمى بالكول أغلي والذي يمتاز بالعيون الزرق والبشرة البيضاء المائلة أحيانا إلى الشقرة وبالذكاء والفطنة . فإنه عاش حقبة على حدة بالجهة الغربية من المدينة وبحي باب الجياد كذلك ، ولكن لم يلبث أن اندمج في المجموعة التلمسانية نابذا مركبه التفوّقي الذي طالما تشبّث به لكونه من السلالة التي تحكّمت وتجبّرت حينا من الدهر في البلد . فليس ثمّة الآن ما قد يفرق بين عناصرها خلالا وآمالا كأنك بهم من أرومة واحدة .

فالعنصر الأندلسي كان إذاً عونا على ازدهار الفلاحة والصناعة اللتين تمدان التجارة فتنفق . والتبادل التجاري كان مع القطرين الشقيقين المغرب وتونس ومع بعض البلاد الأوربية .

رغم المحن المتوالية التي ألتمت «بتلمسان» ، فإنها بقيت محتفظة بما ورثته من التراث الفكري ، فنبغ فيها رجال كانوا السبب في وصول هذا التراث إلينا . أما الأدب فكادت جذوته تنطفىء لو لم تهب بقرائح أصحاب القريض تصرفات الاسبان ومكايد المتعاونين معهم فيثورون ساخطين على هؤلاء وأولئك مستصرخين محرضين عليهم ذوي النفوس الأبية الغيورة على الدين والوطن . ومن الشعر الجزائري الذي يعبر أحسن تعبير عن عاطفة الشعب المتأججة هذه الأشعار التي قالها العالم الأديب الشيخ «أحمد بن القاضي» والشيخ «عبد الله بن أبي علي المساوري» والشيخ العلامة «سعيد قدورة الجزائري» .

فمن مبلـغ عن قبائل عـامـر ... ولا سيّما ممن ترى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشـد ... بتـيـجـانهـم مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم في الغرب من كل ماجد ... طويـل القنا أهل الوفا والمغـافـر
وطلحة والأحلاف في غرب هذه ... وشيخ سويـد بل وكل مفـاخـر

وشيخ بـني يعقـوب والكمي والفتى ... بكل قبيل مولع بالعساكــــر
ويـا معشر الإسلام في كل موطن ... وفي كل نـاد سالف ومعـاصـر
ويـا سادة العربان من آل هـاشـم ... وغيرهم ، بالله ، ما صبر صـابر ؟
ويـا معشر الأتـراك ، يا كل عالم ... وكـل ولـي حـافـظ للأوامـر
أناشـدكم بالله ما عذر جمعكم ... لـدى الله في وهران أمر الخنازر
أذلّكـم الجبّار ! كيف رضيتـمو ... بسبي العذارى من بنات الأكابر ؟
قصرتـم من جـور البغـاة كأنكم ... يهـود الجـزاء تعطونها بالأصاغر
فـلا همـة تعلو بكـم من دنيـة ... ولا غيرة تدعوكمو للـمـآثـر
ولا ذمـة ترعونـهـا في نبيكـم ... ولا حـرمـة تحمـونها بالبواتر
عليكـم لحاف الذلّ أين فحولكم ... أمـا أبصروا في السبي خير الحرائر
وتحت اليهـود غـادة عـربيـة ... يعاليها الخنزيـر فـوق الهزابـر
ومـا منكـم إلاّ خصـي أذلـة ... بميسمـه النـصراني بآل عامـر
أضيـم ملـوك أم تغلب ظـالـم ... عليكـم رماكـم في جوار الكوافر ؟

واليهودي الذي يعني الشاعر هو ذلك الذي فوض إليه الاسبان التصرف في الخراجات البرية والبحرية وتوارثها عنه بنوه من سنة 915 هـ إلى 940 هـ . كان يخرج إلى مطالب بني عامر وخراجاتهم في زي الملوك . فينزل بفسطاطه ويحكم بين أهل الإسلام في شكايتهم ويأمر وينهي ويصفد ويقتل ويضرب . وكانت لهذا اليهودي جواري من أحسن بنات الإسلام (1) . قد وصف لنا التاريخ الجزائري غيورا على حريته وشرفه ، يأبى الذل والعار . فكيف يتحمل حكم اليهودي واستلاءه على بنات المسلمين ، وكيف يرى بعين الرضى استكانة بني عامر للاسبان والتعاون معهم على أبناء الوطن ؟ فلا بد من أن يثور ويطهر وطنه من العدو وقد أذكى أدباؤنا عزيمته .

استرجاع وهران وموقف الشعراء من ذلك :

فنهض الشعب واسترجع وهران في عهد الباي «مصطفى بوشلاغم» (2) وقد سجل الشعر الجزائري هذا النصر المبين . فمن القصائد التي قالها شعراؤنا قصيدة الشيخ «أبي زيد عبد الرحمن التلمساني» . يقول الشاعر :

(1) الشيخ أبو رأس (2) أبو راس

بكتابه المشارقة والمغاربة . وخلاصة القول فإن «المقري» كان أكبر مثقفي عصره ، له المقام الرفيع في الفقه والتفسير والحديث والشهرة الواسعة في التاريخ وفنون الأدب (1) .

الجزائر تصبح دولة جمهورية :

في العام 1817م أبى الداي الا أن يتخلص من البولدش أولئك الجنود الاتراك الذين لا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأي شيء . فغادر «علي خوجة» مقر الحكم إلى حيّ باب الجديد بالقصبة واختار حاميته الخاصة من أبناء الجزائر . فغضب لذلك الجنود الأتراك ، لكن القوة الشعبية قامت ضدهم وألزمتهم الاستسلام . فكهذا طهر الجزائريون بلادهم من المحتل الأجنبي وأحرزت الجزائر وحدتها القومية وحريتها واستقلالها بحدودها التي وجدها عليها الفرنسيون إبان الاحتلال وأصبحت دولة جمهورية . فتنفس الشعب الصعداء ، وأمكنه أن يسترجع ما فقده من رفاهية . ولكن ، سيتغير هذا كما سنرى .

تعدي فرنسا على الجمهورية الجزائرية :

ملىء البحر المتوسط بالقراصنة الاوربيين ، واشتدت حملاتهم على شواطىء أفريقية الشمالية . ففكرت نيابات الجزائر وتونس وطرابلس في إنشاء قوة بحرية ، ولم يتعرض إلاّ لسفن الدول المعادية . وكان المسلمون يعتبرون البحر المتوسط بحرا إسلاميا لا ينبغي أن تعلو فيه غير راية المسلمين ، ولا يسمح بالمرور فيه إلاّ لسفن الدول التي تبرم معاهدات السلام والصداقة مع دول المغرب العربي ، وتلزم أن تدفع غرامات سنوية وهدايا للوالي في مختلف المناسبات . ومن الدول التي أبرمت هذه المعاهدات فرنسا ، مما جعلها تكنّ كرها وحقداً للإسلام وللمسلمين . وكانت هذه الدولة شديدة الاهتمام بإحياء التجارة بالمشرق وتأسيس أمبراطورية استعمارية فيما وراء البحار . وهذا الهدف يحتم عليها تدمير قوات الجزائر البحرية التي في وسعها أن تحول دون تنفيذ عزمها . فقررت أن تستولي على الجزائر . فأخذت تستعدّ وتمهّد السبيل إلى ذلك . وكانت الجزائر قد أذنت لفرنسا أن تنشىء مراكز في «القالة» بشرط ألاّ تحصّن هذه المراكز ولا تسلّحها وأن تدفع ضرائب

---

(1) راجع ترجمته في تاريخ الأدب الجزائري ، ص : 292 .

مقابل السماح لإقامتها . ومن الأسف أن أولي الأمر لم يتنبهوا لخطر ذلك . ففرنسا بعدما تمكنت من إقامة مراكزها تنكّرت للشروط وجعلت تلك المراكز «وكرا» لنشاطها التخريبي ضد سلامة البلاد . ثم كانت الجزائر قد أقرضت فرنسا أموالا ، فتملّصت من أداء ما عليها من ديون . كل ذلك كان سببا لأزمة شديدة بدأت بحادثة المروحة وانتهت بحملة الاحتلال عام 1830 م .

جاء يوم عيد الفطر (1243 هـ) وذهب «دوفال» ، بحسب العادة المتبعة ، لتقديم التهاني للداي (حسين باشا) . وعند اللقاء به سأله الداي لماذا لا يجيب وزير الخارجية الفرنسية على رسائله المتعددة المتعلقة بتصفية حساب الدين ولماذا لا يكتب له مباشرة . فأجابه «دوفال» بكل وقاحة : «إن حكومتي لن تكتب إليك أبدا ، وأن الوزير لا يتنازل ليكتب ويجيب من هو دونه بلا واسطة . فغضب الداي ، وكانت بيده مروحة من الريش . فأشار بها إلى «دوفال» بقوله «أخرج يا كافر ، أخرج يا ملعون !» فادّعى «دوفال» أن ريش المروحة لمس وجهه وخرج وفي قلبه ما فيه .

لما علم وزير الخارجية الفرنسي بالحادث أمر «دوفال» بأن يوقف اتصالاته بالداي ويترك الأمر لقائد الحملة الذي سيأتي لينال الترضية خلال أربع وعشرين ساعة أو يستعمل القوة للانتقام لكرامة فرنسا التي أهينت بحسب زعمه في شخص قنصلها . ثم أخبر الدول الأجنبية بالحادث وأخطرها بأن شرف الملك قد أهين وهو يريد حينئذ أن يتلقى من الداي الترضية الكافية وإلاّ فرض الحصار على الجزائر حينا . فلم يقبل الداي تلك الشروط ، ففرضت فرنسا الحصار . وقامت إثر ذلك بين الدولتين حرب . وقبل هذه الحملة كانت فرنسا على بيّنة من الحالة الاجتماعية الجزائرية . فكانت تعرف أن نفوذ الحكومة أصبح لا يتعدّى المدن والقرى وأن الجبال والبوادي كان أمرها موكولا إلى زعمائها ، لا تقدر على تنظيم أهلها وإخضاعهم إلى الطاعة ، بل ألقت بينهم دسائس العداوة والبغضاء ، فتتفرق كلمتهم وتضعف شوكتهم فتتمكن حينئذ من الاستحواذ عليهم . ولما نزل العدو بأرض الوطن لم يجد السكان متكتلين ومتحدين ، فكل فريق كان يريد محق الآخر . وسرى داعي الانتقام في نفوس العامة . فصار كل من كان له ثأر يحاول الأخذ به . كل هذا سهّل للعدو الاستيلاء على مدينتي «الجزائر» و«وهران» . فزحف العدوّ من جهة

والفتن الداخلية من جهة أخرى أقلقا أهل العقد والحل من الأشراف والعلماء والاعيان في الناحية الغربية من البلاد ، فخافوا على سلامة الدولة . فتداعوا للنظر فيمن اجتمعت فيه شروط الإمارة ليبايعوه ، فيجمع كلمتهم ويوحّد صفوفهم ويكوّن منهم قوة تقف في وجه العدوّ وتصدّه وترغمه على أن يولي أدراجه . فوقع اختيارهم على «محي الدين المختاري» وكان يتسم بصفات تجعله أهلا للإمارة . فاجتمعوا وراودوه عليها . فاعتذر لهم بكبر سنه . فقرروا حينذاك أن يولوا وجههم شطر المغرب الأقصى ، فأوفدوا جماعة من أعيانهم إلى مولاي «عبد الرحمن» على أن يأخذ بزمام أمرهم . فرحب بهم ولبّى طلبهم . فعقد لابن عمه «علي بن سليمان» على إمارة المغرب الأوسط وبعثه معهم في خمسة الآف رجل . فحط «بتلمسان» . فلقيه الناس بالطاعة وأذعنوا له . وامتدّ نفوذه من الحدود الجزائرية المغربية إلى «مليانة» ، وبث العمال وجبي الأموال . فلم ير الفرنسيون تلك الصنيعة بعين الرضا لأنها تتنافى ومصالحهم ومقاصدهم . فبعث ملكهم إلى سفيره «بطنجة» أن يقدّم من قبله التنبيهات المشددة إلى سلطان المغرب وينذره بعداوة دولته ، ويهدّده بالحرب إن لم ينسحب ابن عمّه فورا من الجزائر . فرأى السلطان أنه لا يقدر على مجابهة فرنسا في ذلك الحين . فاسترجع ابن عمه بعد أن قام هذا «بتلمسان» نحو ستة أشهر . فبقي المغرب الأوسط على ما كان عليه من الاضطرابات . فلم ير الأعيان بدّا من أن يعمدوا مرة أخرى إلى «محي الدين» ويلحّوا عليه في قبول بيعتهم له على الإمارة والجهاد . فالحالة لا تزيد إلاّ استفحالا وتفاقما ، فأبى قبول الإمارة وقبل القيام بأمر الجهاد . فرضى القوم بذلك ، فالجهاد يشغل الناس عن الفساد . ومن ذلك الوقت أخذت الحشود ترد على مقربة من «القيطنة» . فينهض بهم إلى «وهران» فينازلها . وجرت بينه وبين المعتدين حروب أظهر فيها «عبد القادر بن محي الدين» إقداما وشجاعة وخبرة حربية فائقة استحوذت على قلوب المجاهدين . فاتصل خبره بالأشراف والعلماء وأعيان القبائل .

مبايعة عبد القادر بن محي الدين :

فاجتمعوا وقدموا على «محي الدين» وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه أو لولده «عبد القادر» فالعدوّ قويّ ومنظّم فلا يمكن لمقاومتهم أن تكون

نافذة المفعول إن لم يكن لهم أمير ينظم صفوفهم ويوجه حركاتهم . فإذاً لا مندوحة «لمحي الدين» عن الإجابة والقبول ، ولكن العبء الذي رموه على عاتقه ثقيل خطر لا طاقة له بتحمله . فقدّم ولده للإمارة لاعتقاده أنه أحق بها منه حيث استكملت فيه شروطها . فسر القوم لذلك واجتمع الأشراف والعلماء والأعيان وخيموا بوادي فروحة من غريس عند شجرة الدردار التي كانوا يجتمعون إليها للشورى بينهم . وجاء «محي الدين» في بنيه وأقربائه . ولما تلاحق الناس الذين لا بد من حضورهم للبيعة ، جلس «عبد القادر» تحت الشجرة . فقام والده فبايعه على السمع والطاعة ودعا له ، ثم لقّبه «بناصر الدين» . ثم بايعه إخوته وأقاربه ثم الأشراف والعلماء والأعيان وجميع الحاضرين ، وذلك يوم 20 تشرين سنة 1832 م . وفي الغد دخل إلى مدينة «معسكر» وفي بعد الغد قصد إلى وادي الرسيبية حيث وجد عشرة آلاف جندي في انتظاره لمبايعته والعمل تحت لوائه .

الصراع بين الأمير عبد القادر وفرنسا :

اختار «عبد القادر» مدينة «معسكر» لإقامته ، فكانت منها حركته ونهضته . وأبى إلاّ أن تكون له دولة منظمة إذ يعتقد أن المقاومة غير ممكنة إذا بقيت موكولة للقبائل المتفرقة وإذا لم يجمع شتاتها في قبضة دولة وطنية مخلصة منظمة تنظيما دقيقا . فعين رجالا أكفاء يعينونه على تدبير شؤونها . فاستوزر «محمد بن العربي» ، واستكتب ابن عمه السيد «أحمد بن علي أبي طالب» والسيد «الحاج مصطفى بن التهامي» والسيد الحاج «محمد الخروبي» ، وعين لحجابته «محمد بن علي الدحاوي» ، وولي الحاج «الجيلاني بن فريحة» ناظر خزينة المملكة «ومحمد بن فاخا» ناظر الخزينة الخاصة ، والحاج «الطاهر أبا زيد» ناظرا على الأوقاف ، والسيد الحاج «الجيلاني العلوي» مأمورا على الأعشار والزكاة بأنواعها ، وعين لنظارة الأمور الخارجية الحاج «الميلود بن عراش» ، وبث العمال والقضاة في سائر الجهات ورتّب مجلسا للشورى يشتمل على أحد عشر عضوا من أجلة العلماء وجعل رئاسته للعلامة قاضي القضاة السيد «أحمد بن الهاشمي المراحي» ، ودوّن الدواوين ، وأخذ يهدم ما كانت الحكومة الجزائرية أسسته من المغارم والضرائب والعوائد ، فطار صيته في المغرب الأوسط . ولما فرغ من رسوم ملكه نهض من حضرته في شوال 1248 هـ (1832 م) ليتفقد الأعمال ويحمل على الطاعة

من تخلف عن البيعة . بلغه انتقاض «ابن نونة» قائد الحضر في مدينة «تلمسان» الذي نزل بها من المغرب أيام «ابن سليمان» وأعانه على منصبه الجالية الفاسية هناك ، فسار إليه «عبد القادر» وبعث إليه يعظه ويأمره بالرجوع الى الطاعة ويعده بالعفو .

فأبى وتمادى على شأنه ، ثم جمع قوته وخرج لقتال الأمير . فقام الكول أوغلان وهم الطائفة الثانية من أهل «تلمسان» وقائدها «ابن عودة» مستمرين على الطاعة . فلما خرج «ابن نونة» وأتباعه الحضر للقتال انتهزوا الفرصة فيهم للعداوة القديمة بينهم ، فظاهروا الأمير عليهم ووقع القتال داخل البلد وخارجه . وكانت الدبرة على «ابن نونة» وفرقته ، واستمر القتل فيهم ، وذهبت أموالهم ، وعاث الكول أوغلان في منازلهم . وفر «ابن نونة» إلى ضريح سيدي «أبي مدين» في قرية العباد . فدخل الأمير إلى «تلمسان» . وفي الغد ، توجه إلى زيارة سيدي «أبي مدين» فوجد «ابن نونة» متعلقا بأستار الضريح لائذا به . فأمنه وعفا عنه ، وتقبّل أتباعه ، وأقرّه على قيادة طائفته ، ورجع الأمير إلى «تلمسان» ومكث فيها أياما أبرم الصلح أثناءها بين الحضر والكول أوغلان وجمع كلمتهم ، وزار نواحي البلد حيث أصلح كل خلل وجده فيها ثم رجع إلى حضرة ملكه .

لم يتصل بالأمير خبر استيلاء الفرنسيين على مدينة «مستغانم» حتى نهض في جموعه من حضرته ، ونازلها ، وبعث إلى أهلها في الخروج منها . فامتثلوا ، ولحق معظمهم بالحضرة «وتلمسان» ومدن أخرى في الداخل . ولم يبق فيها إلاّ من اطمأنّت نفسهم إلى مجاورة العدوّ من الكول أوغلان . وكان الجنرال «دي ميشال» «بوهران» يستعين بالخونة من أهل الساحل . فأخذ الأمير يثبت السرايا فيثخنون فيهم ، ويتتبع أثر الخوارج عليه فيسومونهم خسفا ودمارا . وكانت الحالة السياسية الداخلية عفنة يومئذ في فرنسا . فتعذرت بذلك النجدات . فأصبح الجنرال في حالة حرجة حتى اضطر إلى أن يكاتب الأمير ثلاث مرات في إيقاف نار الحرب بين الفرنسيين والجزائريين فأبرمت بين الطرفين معاهدة في السابع عشر من شوال سنة 1249 هـ (28 شباط سنة 1834 م) فاتصل الخبر بالسلطان «مولاي عبد الرحمن بن هاشم» صاحب المغرب الأقصى ، فبعث وفدا يقدم تهانيه للأمير بالملك وأصحبه هدية ومقدارا وافيا من الذخائر الحربية . فأكرم الأمير وفادتهم .

فشمر الأمير على ساعديه أثناء هذه الهدنة ليطهّر رقعة مملكته من عناصر الفساد والعصيان كالدوائر والزمالة ومن شايعهم «كابن العريبي».

والجهاد يتطلب نفقات طائلة ، وما يجبى من أموال الزكاة والأعشار لا يكفي لسدّ الحاجة فطرح الأمير المسألة على مجلس الشورى للنظر فيها ، فأجمعوا على فرض ضريبة على الرعية تسمى معونة . فقام أولئك الذين ضعفت إيمانهم أن يحتجّوا قائلين : «ان بيعتنا «لعبد القادر» كانت على الجهاد وقد تحمّلنا ما يتطلب هذا الجهاد من الضريبة ، وبما أن الأمير جنح إلى مسالمة العدوّ فإننا نرجع في بيعتنا ونمتنع من دفع أموالنا» . فتأثر بعض القبائل بهذا الرأي كبني عامر ، فامتنعوا من دفع الضريبة والمعونة . فأوعز الأمير إلى «مصطفى آغا ابن اسماعيل» رئيس الدوائر أن يكون على أهبة لردعهم وإلزامهم دفع المعونة . فكانت فرصة سانحة «لابن اسماعيل» لأخذ ثأره منهم .

أوفد بنو عامر على الأمير جماعة من اعيانهم ، فوجدوه على المنبر يخطب على الناس في المعونة .فتقدموا إليه يبرئون أنفسهم ، مما نسب إليهم من الخروج عن الطاعة وأوقفوه على دسائس «مصطفى ابن اسماعيل» وأشياعه ، وأخبروه بما هو عازم عليه من نبذ الطاعة . فراجع الأمير في بني عامر ، وأرسل في الحين إلى «ابن اسماعيل» أن يكف عنهم . فلم يمتثل ، ودهمهم بجموعه .

في غرة ذي الحجة من سنة 1249 هـ (نيسان 1834 م) توجه الأمير قاصدا «تلمسان» ونواحيها . فطار الخبر إلى الدوائر والزمالة ، فاحتشدوا واستجاشوا بعرب رياح وأهل «أنكاد» وصمدوا لقتال الأمير . ولما قرب من منازلهم بعث إلى «ابن اسماعيل» وأشياعه يدعوهم إلى الحضور عنده لينظر في حوادثهم مع بني عامر . فاستنكفوا وزحفوا عليه بجموعهم ، ودارت بينه وبينهم الحرب ، فأرغم الأمير إلى الابتعاد والعودة إلى الحضرة . فتحقق أن الحشود المتطوّعة لا يعوّل عليها وحدها في الحرب . فعزم من ذلك الحين على تنظيم جيش كاف مدرّب كفء قادر على مواجهة أعدائه الأجانب والقائمين عليه والمتنصّرين من الجزائريين . فعقد مجلسا عموميا من رجال الدولة وأعيان الرعية ، وخطب خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ، وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد كاف منه .

فأجابه الجميع إلى ذلك . وراح المنادي يقول بأعلى صوت في الأسواق : (ليبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر من كافة البلاد . فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام فليسارع إلى دار الإمارة ليتقيد اسمه في الدفاتر الأميرية) . فكان لهذا الإعلان الوقع الحسن ، فانشرح له قلوب الناس وتسابقوا إليه طوعا .

فتولى الأمير ترتيب الجيش وتنظيمه بنفسه . فجعله ثلاث فرق : فرقة مشاة وفرقة خيالة (بركبون الخيل) وفرقة مدفعيّين . ووضع للجميع قوانين وضوابط .

وصل الخبر إلى «دي ميشال» حاكم «وهران» . فأرسل إلى الأمير معلّمين ماهرين و 400 بارودة ومقدارا وافرا من الذخائر الحربية .

ثم إن الأمير وجه خليفته على بسكرة والصحراء السيد «محمد الصغير بن عبد الرحمن» إلى «أحمد باشا» باي تونس ، وأصحبه بسيف مرصّع بالجواهر وخيول بسروج مذهّبة وآلة شاي من الذهب وغيرها ورجع الوفد فرحا مصحوبا بالهدايا السنية .

وبالاتّفاق مع «دي ميشال» ومع القطرين الشقيقين المغرب وتونس عظم شأن الأمير بحيث أن في أواخر شهر آب من تلك السنة وفد الشيخ «ابن الغماري» رئيس قبيلة «أنكاد» حليف الدوائر على الحضرة ، «وابن عريبي» مع صهره «محمد بن المداح» رئيس قبيلة أولاد خويدم «وقدور بن المخفي» . فأنزلهم الأمير في دار الضيافة ثم أذن لهم الدخول عليه . فبش في وجوههم . وبعد أيام أذن لهم في الانصراف إلى أهلهم سوى «ابن العريبي» وصهره وشيخ أنكاد «ابن الغماري» فأمر بحبسهم حتى ينظر في أمرهم . واتفق أن حدث الوباء عهدئذ في المغرب الأوسط ، فأصيب «ابن عريبي» وصهره ، فماتا . أما ابن الغماري فأمكنه أن يفر من السجن ، لكنه قبض عليه فعلق على سور البلد وعلق خادمه بجانبه . فاستقامت الأمور وأمنت السبل ، وزال الشقاق بين القبائل واطمأنت القلوب ، وراح الناس يزاولون أشغالهم . فنشطت الزراعة ونفقت التجارة وعم الرخاء .

ومن سوء الحظ أن فرنسا قررت عزل «دي ميشال» وولّت مكانه الجنرال (تريزيل) وكانب وقتئذ الدوائر والزمالة قاطنين قرب «تلمسان» . فنبذوا طاعة

الأمير ، ونكثوا عهده ، وارتحلوا من منازلهم . إلى قرب «وهران» ، ولحق رئيسهم «ابن اسماعيل» بالكول أوغلان» في قصبة المشور من «تلمسان» . فاهتز «تريزيل» حاكم «وهران» لذلك فرحا . وطار الخبر إلى الأمير ، فتغافل عنهم وراح ينتظر ما يفعله حاكم الجزائر مع «أبي حمار» الذي قام بالمدينة . ولما رأى أن الجنرال تصامّ على «أبي حمار» ولم يتعرض اليه ، احتشد الجيوش ، وعرض عساكره النظامية ، وضرب معسكره العام في «هبرة» بين «وهران» «ومستغانم» ، وأوعز إلى «البوحميدي» والي «تلمسان» أن ينتقل في جموعه إلى نواحي «وهران» ليشغل حاكمها . ونهض هو في جنده النظامي وحشود الجهة الشرقية قاصدا تيطري في أواخر كانون الأول سنة 1834 م . وفي سنة 1835 م كانت واقعة المقطع التي انهزم فيها «تريزيل» شرّ هزيمة . فأجمع رجال الدولة الفرنسية رأيهم على إرسال كلوزيل» إلى الجزائر مصحوبا «بالدوك» دورليان» ولي عهد ملك فرنسا . فوصلا في الثامن والعشرين من ربيع الثاني 1252 هـ (13 آب 1836 م) .

وفي أول كانون الأول ركبا أسطولهما في العساكر والذخائر إلى «وهران» . وفي السابع والعشرين سارا قاصدين مدينة «معسكر» في اثني عشر ألف عسكري . وكان مع الأمير 8000 خيال وألفان من المشاة وأربع قطع من المدافع . فدخل «كلوزيل» المدينة فوجدها خالية من السكان ومتاعهم . فأقام بها يومين ، وجاء الأمر بغتة بالرجوع ، فانقلب راجعا إلى «وهران» .

كان الأمير في ثنية ماخوخ . فسمع بنزول عرب «أنكاد» بالمنصورة نجدة «لابن اسماعيل» والكول أوغلان . فنهض إليهم وانتهى إلى «الحناية» . فخرج «ابن اسماعيل» والكول أوغلان . في الحين قسم الأمير جيشه إلى فرقتين ، فرقة جعلها ردأ له وفرقة تقدم بها لقتال عرب «أنكاد» . فالتحموا ، واتصل القتال اليوم كله . فكانت الدبرة على أهل «أنكاد» وأشياعهم . فارتدّ «ابن اسماعيل» وقومه على أعقابهم ، فدخلوا القلعة وتحصّنوا بها .

وفي الثاني شوال سنة 1252 هـ والثاني من يناير سنة 1837 م خرج «كلوزيل» في عساكره إلى «تلمسان» لإغاثة «ابن اسماعيل» وجماعة الكول أوغلان . فأمر الأمير بالجلاء عنها لأن كل محصور مأخوذ . فامتثلوا . فلما وصل «كلوزيل»

بجنوده إلى ساحة البلد قامت رحى الحرب بينه وبين الأمير ، واتصل القتال من طلوع الفجر إلى الزوال . وخرج جماعة الكول أوغلان «وابن اسماعيل» نجدة للعدوّ ، وفتحوا له أبواب القلعة ، فدخلها بعد عناء شديد. وفي اليوم الثالث من دخوله خرج من القلعة ، ووقع بينه وبين الأمير قتال شديد . ثم بثّ العدوّ سراياه في نواحي البلد . فعثروا على الكثير من أهلها . فأجبروهم على العودة إليها .

لما تمكن «كلوزيل» من زمام البلد وضع ضريبة باهظة على أوليائه مثل الكول أوغلان «وابن إسماعيل» ومن معه ليسدّ نفقات تلك الحملة التي ارتكبها من غير أن يستأذن دولته . فانتدب لجمعها رئيس الكول أوغلان «مصطفى بن المقلش» . فألحّ فيها على قومه حتى أن الرجل يبيع ملبوسه وفراشه ويؤدّي ما افترض عليه وأن المرأة تبيع مصاغها وثيابها لتدفع ما افترضوه عليها (1) فشاع خبر هذه الضريبة في النواحي ، فنفرت قلوب الناس من الفرنسيين لفائدة الأمير . ثم اتصل الخبر بدولة فرنسا ، فنقمت ذلك على «كلوزيل» . فخرج من «تلمسان» راجعا إلى «وهران» بعد أن ترك فيها حامية وذخائر لنظر القائد «كفينياك» .

فلقيه الأمير قرب البلد ، وانتشبت الحرب بين الفريقين ، ودامت عشرة أيام كانت الدبرة فيها على «كلوزيل» . فاضطر إلى العودة إلى «تلمسان» وتحصّن بالقلعة . ثم جدّد عزمه وخرج في الثالث من ذي القعدة سنة 1252 هـ (10 شباط 1837 م) . فالتقاه الأمير ثانيا . فدبّر المسلمون أكثر عساكره ، واستولوا على معظم ذخائره . فارتدّ «كلوزيل» عن طريقه ، وسلك طريق الساحل إلى مرسى أرشقول . فوصل إليها في حالة يرثى لها . فأقام الأمير محاصرا له مدة شهرين لا يخلو يوم من القتال . وفي آخر الأمر ، استصرخ نائبه «بوهران» . فبعث إليه بالمراكب . فركبها بجيوشه وذخائره الحربية ولحق «بوهران» . ولكن لم يبق بها . فنصب الجنرال «دولورانج» واليا على تلك المدينة والجنرال «بيريقو» قائد على الجند ، وتوجه إلى الجزائر . وبعد ثلاثة أيام من سفره ، نهض «بيريقو» في ثلاثة آلاف عسكري وثمانية مدافع إلى «تلمسان» ليمهّد الطريق بين هذه المدينة «ووهران» تنفيذا لما أمره به المارشال «كلوزيل» . لما وصل إلى تافنة أقام مترسا على شط

---

(1) تحفة الزائر .

فاتصل الخبر بالأمير وكان «بندرومة» حيث يسهل عليه «مراقبة» حركات العدوّ في الإقليم . فنهض اليه يعترضه ويصدّه عن «تلمسان» في سابع نيسان . فالتحم القتال بين الطرفين نهارا كاملا . ثم ضرب الجنرال معسكره بالوادي ورتّب عساكره على هيئة قلعة . فاقترب منه الأمير وحاصره . وفي الرابع والعشرين من الشهر تهيّأ الجنرال للانتقال من مكانه . فضجّ المسلمون من كل جهة ، وزحفوا اليه دفعة واحدة ، وهجموا على المدافع غير مبالين بما تقذفه أفواهها ، واستولوا عليها . فلم ينفع عسكر العدوّ إلاّ أن يرتدّوا على أعقابهم نحو «وهران» . فسار المسلمون يأخذونهم من أطرافهم إلى أن لحقوا بها بعد أن تركوا عددا وافرا من القتلى والجرحى في الطريق والحق أن الجيوش الإسلامية قد أنهكها التعب ، فجعلت الحشود تتسلل إلى أوطانها ، ورجع الأمير بعسكره إلى «ندرومة» .

لما اتصل خبر هذه الهزيمة بدولة فرنسا امتعضت له وجهزت الجنرال «بيجو» بثلاثة آلاف لإغاثة حاكم «وهران» . فسار «بيجو» في جيوشه ونزل «بوهران» . وفي السادس والعشرين من ربيع الأول سنة 1253 هـ (أول تموز سنة 1837 م) نهض إلى «تلمسان» بعدد وعدد إلى الجيش الفرنسي المحصور في قلعتها .

لما اتصل خبر «بيجو» بالامير وهو في «ندرومة» سار اليه فيمن معه من الجنود والتقى الفريقان على نهر السكاك ، وكان هجوم المسلمين على العدو عنيفا . فاستطرد لهم «بيجو» حتى أجازوا النهر ثم انعطف عليهم ، فأثخن فيهم وانكشفوا أمامه وكثر القتلى والجرحى في صفوفهم ، واستمر «بيجو» سائرا إلى «تلمسان» ، فدخلها وبعد أيام عاد إلى «وهران» . ومن هناك توجه إلى فرنسا ، وجعل قيادة الجيش إلى جنرال «والستاك» . وسبب هذه الهزيمة يرجع إلى قلة العسكر . فأرسل الأمير دعاة إلى المدائن والحواضر أن ينادوا بالجهاد . فاجتمع جم غفير من المتطوعين انضمّوا إلى الجند النظامي ، وقصد بهم الأمير إلى «تلمسان» . فنازلها وحاصرها . فاشتد الأمر على أهلها ، ونفذت ذخائرهم ، وأجهدهم الجوع حتى أكلوا كل ما وجدوه من أنواع الحيوان من قطط وغيرها . ويحكى أن القائد «كافينياك» رئيس الحامية الفرنسية المحصورة في قلعتها كان يشتري الهرّ الواحد بأربعين فرنكا لقوته ، وأما غيره فإنه كان لا يجد فأرا يسدّ به حاجته .

وكانت مدّة إقامة الحصار عليها تسعة أشهر . ويذكر صاحب تحفة الزائر أن الأمير ختم في هذه المدة قراءة صحيح البخاري أربع مرات . ويذكر صاحب «شورشيل» أنه بسفر «كلوزيل» «وبيجو» إلى فرنسا انقشعت غيوم جيوشهم (1) عن الداخلية ولم تصل يدهم إلى وضع الحاميات في الأماكن التي اختاروها لذلك فيما بين «وهران» «وتلمسان» «والجزائر» «والمدية» ، ورجعوا إلى حدودهم ، وانحجزوا في مدنهم ، ونازلتهم الجيوش الإسلامية فيها حتى أجهدهم الحصار واصبحوا في حالة حرجة ، وانقطعت عنهم أخبار الداخلية لشدة الضبط بحيث الجواسيس والسعاة من المنتصره لم يجدوا سبيلا الى تبليغ الرسائل الى أهلها وأقاموا على ذلك مدة . ولما عميت أخبارهم عن الأمير بعث الى السيد «حمادي السقال» من أهالي تلمسان يفاوضه في ذلك ويحثه على اتخاذ وسيلة يتصل بها الى مطالعة أخبار العدو . فأجابه الى مطلوبه . فتقدم الى الحاكم في آن يجعل اليه ارسال المكاتيب الى «وهران» «والجزائر» وغيرهما ويتكفل بتبليغهما ورد أجوبتها . فانشرح صدر الحاكم إلى ذلك ، وطفق يجمع المكاتيب ويسلمها إلى سعاة من العرب يمرون بها على الأمير ، فيطلع عليها ، ثم يردها اليهم ، فيذهبون بها الى مواضعها . وعند رد أجوبتها كذلك . فهكذا كان الأمير على بيّنة من أخبار العدوّ وأحواله ، فتجري سياسته بمقتضاها .

لما طال الحصار اضطرّ حاكم «وهران» أن يفاوض الأمير في إبرام الهدنة . فأبرمت ، لكن فرنسا أجمعت على نقض الصلح وتجديد الحرب معللة أن «عبد القادر» لم يجنح للسلم وأن الشروط لم ترضها . فعزلت المريشال كلوزيل عن «الجزائر» ونصبت «دومرمون» حاكما عاما عليها ، وعزلت الجنرال «دوبريسوار» عن «وهران» وولت مكانه الجنرال «بيجو» . ولما وصل «بيجو» إلى «وهران» كتب إلى الأمير يخبره بأنه حضر إلى «وهران» مكلفا من دولته بإجراء أحد أمرين : إما الصلح وهو الأولى وإما الحرب . فمال الأمير إلى السلم . فوقع الصلح ، وحررت المعاهدات المعروفة بمعاهدات «تافنة» في السادس حزيران سنة 1838 م على شروط منها أن فرنسا تتخلّى للأمير على «أرشقول» ومدينة «تلمسان» وقلعة «المشور» مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديما ويتعهد الأمير بنقل الذخائر الحربية والأمتعة العسكرية التي للعساكر الفرنسية في «تلمسان» إلى «وهران» .

(1) جيوش فرنسا

إثر هذه المعاهدة دخل الامير إلى «تلمسان» وقال :

إلى الصّون مدت «تلمسان» نداها ولبّت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنها الإزار فلجّ به وبرّد فؤادا من زلال نداها
وذا روض خديها تفتق نوره فلا ترض من زاهي الرياض عداها
ويا طالما صانت نقاب جمالها غداة وهم بين الأيام ، عداها
وكم رائم رام الجمال الذي ترى فأرداه منها ، لحظها ومناها
وحاول لثم الخال من ورد خدها فضنت بما يبغي وشط مداها
وكم خاطب لم يدع كفئا لها ولم يشم طرفها من وشي ذيل رداها
وآخر لم يقعد عليها بعصمة وما مسّها مسا إبان رضاها

ولم يتيح للأمير أن يتمّ هذه القصيدة لشغل شاغل . فكلف كاتبه «قدور بن محمد بن رويلة» أن يجيزها ويكمل معناها فقال :

ولم تسمح العذرا اليه بعطفه ولم يتمكن من جميل سناها
وشدّت نطاق الصدّ صوّنا لحسنها فلم يتمتع من لذيذ لماها
وأبدت له مكرا وصدّا وجفوة وسدت عليه ما نوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهمُ ولم تنل الأعدا هناك مناها
قد انفصمت من تلمسان حبا لها وبانت وآلت لا يحل عراها
سوى صاحب الإقدام في الراي والوغى وذي الغيرة الحامي الغداة حماها
ولما علمت الصدق منها بانها أنالتني الكرسي وحزت علاها
ولم أعلمن في القطري غيري كافلا ولا عارفا في حقها وبهاها
فبادرت حزما وانتصارا بهمتي وأمرتها حبا شفاء دواها
فكنت لها بعلا وكانت حليلتي وعرسي وملكي ناشرا للواها
ووشحتها ثوبا من العز رافلا فقامت باعجاب تجرّ رداها
ونادت : «أعبد القادر» المنقذ الذي أغثت أناسا من بحور هواها
لأنك أعطيت المفاتيح عنوة فزدني ، أيا عزيز الجزائر ، جاها
ووهران والمرساة كلا بما حوت غدت حائزات من حماك مناها

وخلال هذه الهدنة التي امتدت من سنة 1838 م إلى 1839 ، أقبل الأمير على تحسين احوال المملكة وتحصينها وتثقيفها . فابتنى حصونا منها «سعيدة»

«وسيلو» «وتاقدمت» «وبغار» «وبوخرشوفة» . وحسن هذه الحصون موقعا وأوفقها تاقدمت حيث كانت تقع عاصمة الرستميين «تاهرت» . فكان مركزا تجاريا استراتيجيا هاما ولهذا انتقل إليه الأمير بأهله وأهل دائرته ، وأنشأ فيه دار السلاح وجلب إليه عملة فنيين من أسبانيا وفرنسا يصنعون فيه البواريد وحرباتها والسيوف ، وابتنى فيه دارا لضرب السكة وجعلها ثلاثة أنواع من الفضة والنحاس مستديرة الشكل (شكل : 42) فالنوع الأول مكتوب على أحد وجهيه : ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وعلى الآخر : ضرب في «تاقدمت» وتأريخ الضرب سنة 1255 هـ . وهذه القطعة عبارة عن فرنكين . والنوع الثاني من الفضة والنحاس أيضا مكتوب على أحد وجهيه : إن الدين عند الله الإسلام ، وعلى الوجه الآخر : محل الضرب والتأريخ . وهذه القطعة عبارة عن فرنك واحد . والنوع الثالث من الفضة والنحاس مكتوب على وجهه الأول : ربنا أفرغ علينا صبرا وثبّت أقدامنا ، وعلى الثاني محل الضرب والتأريخ . وهذه القطعة تساوي نصف فرنك وابتنى الأمير في «معسكر» «ومليانة» «والمدية» معامل لصناعة الأسلحة بأنواعها والبرود والرصاص . وكان تجّار فرنسا يجلبون الكبريت لمراسي الجزائر فيشتريه منهم . وفي وقت الهدنة يحضر الرصاص من فرنسا تارة ويستخرجه من معدن بجبل الوارشنيس . وكان يشتري من هذه المواد كلها من مملكتي تونس ومراكش . وأما المدافع والجوخ فكان معملهما في «تلمسان» تحت نظارة فني اسباني . وقد رأى الأمير «محمد بن عبد القادر» الجزائري ثلاثة مدافع في «باريس» أخذت في أيام الحرب مكتوب على كل مدفع فوق خزانته النارية ما نصه : «عمل «بتلمسان» وقت إمارة ناصر الدين السيد «عبد القادر بن محي الدين» سنة 1255 هـ » (1) «وتلمسان» كان يصنع البارود أيضا .

ورتب الأمير صناعا لإصلاح السلاح أطلق عليهم اسم «قرداحية» . كانوا يرافقون الجيش سفرا وحضرا . ورتب عددا من الخياطين والسراجين لإصلاح ما يلزم إصلاحه من الألبسة وسروج الخيل للعسكر المتطوعين في أيام الحرب . ووضع الحاميات والمسلحات في المضايق ومواضع الخوف . وحصن الثغور ، فعم بذلك الأمن سائر المملكة وأطفأ نار الفتن فإن جيش الأمير لم يتجاوز 5200 جندي

---

(1) الزائر .

أمكنه به أن يقاوم جيوش فرنسا من جهة ويناضل الثوار والخوارج من جهة أخرى ، وذلك مدة ستة عشر سنة . منها 12000 مشاة و 2500 خيالة و 250 مدفعيا يديرون 20 مدفعيا و 500 رجل اتخذهم حرسا له تحت رئاسة «سالم آغا» الزنجي . كانت ألبستهم من الجوخ الأحمر الجيّد وسلاحهم محلّى بالذهب والفضة مرصّعا بالمرجان (1) .

وفي هذه الفترة أرسل الأمير أخاه «محمدا السعيد» ومعه الحاج «محمد فاخة» وفدا إلى سلطان المغرب الأقصى «مولاي عبد الرحمن» وأصحبهما بهدية وكتاب . فتلقاهم عاهل البلد الشقيق بالمسرة والإحسان وأنزلهم في أعز مكان . ثم رجعا مصحوبين بكتاب من السلطان .

أما الفرنسيون خلال هذه الهدنة فقد شيدوا الحصون المتينة في «عنابة» «وقالمة» و «ميلة» في الجهة الشرقية ، ووضعوا فيها العساكر والذخائر الحربية استعدادا لمواصلة الحرب . وبالفعل استؤنفت الحرب . فإن الماريشال «فالا» حاكم الجزائر نقض المعاهدة ، والأمير من جهته استنفر سائر أهل مملكته من حدود المغرب إلى حدود تونس إلى الجهاد ، وأمر خلفاءه وزعماءه بأخذ الأهبة والاستعداد لمحاربة العدوّ .

لما اتصل بالدولة الفرنسية خبر ما أجراه الماريشال «فالا» في داخلية الجزائر من الحرب واطّلعت على ما يقوم به الأمير من الاستعداد لمقاومة جيوشها ورأت أن تلك الحروب قد أفنت عساكرها وذخائرها بدون جدوى عزلت الماريشال «فالا» على الجزائر ، وولّت مكانه الجنرال «بيجو» في السابع من ذي القعدة (فاتح يناير سنة 1841 م) ، وأمرت بتجهيز 88000 جندي علاوة على ما كان موجودا وقتئذ بالجزائر . فتوجه «بيجو» إلى منصبه الجديد بالجزائر ، وتابع الحرب بهذا الجند العرمرم . فاستولى على «معسكر» ومن ثم خرج بجيش كثيف إلى «تلمسان» سنة 1257 هـ (29 كانون الثاني 1842 م) . فعلم بذلك الأمير ، فأمر بإخلائها ونقل سائر المهمّات الحربية إلاّ ما عسر حمله كآلات معمل المدافع ، وارتحل الناس . ودخلها العدوّ ، ومن الأسف أن بعض أهالي «تلمسان»

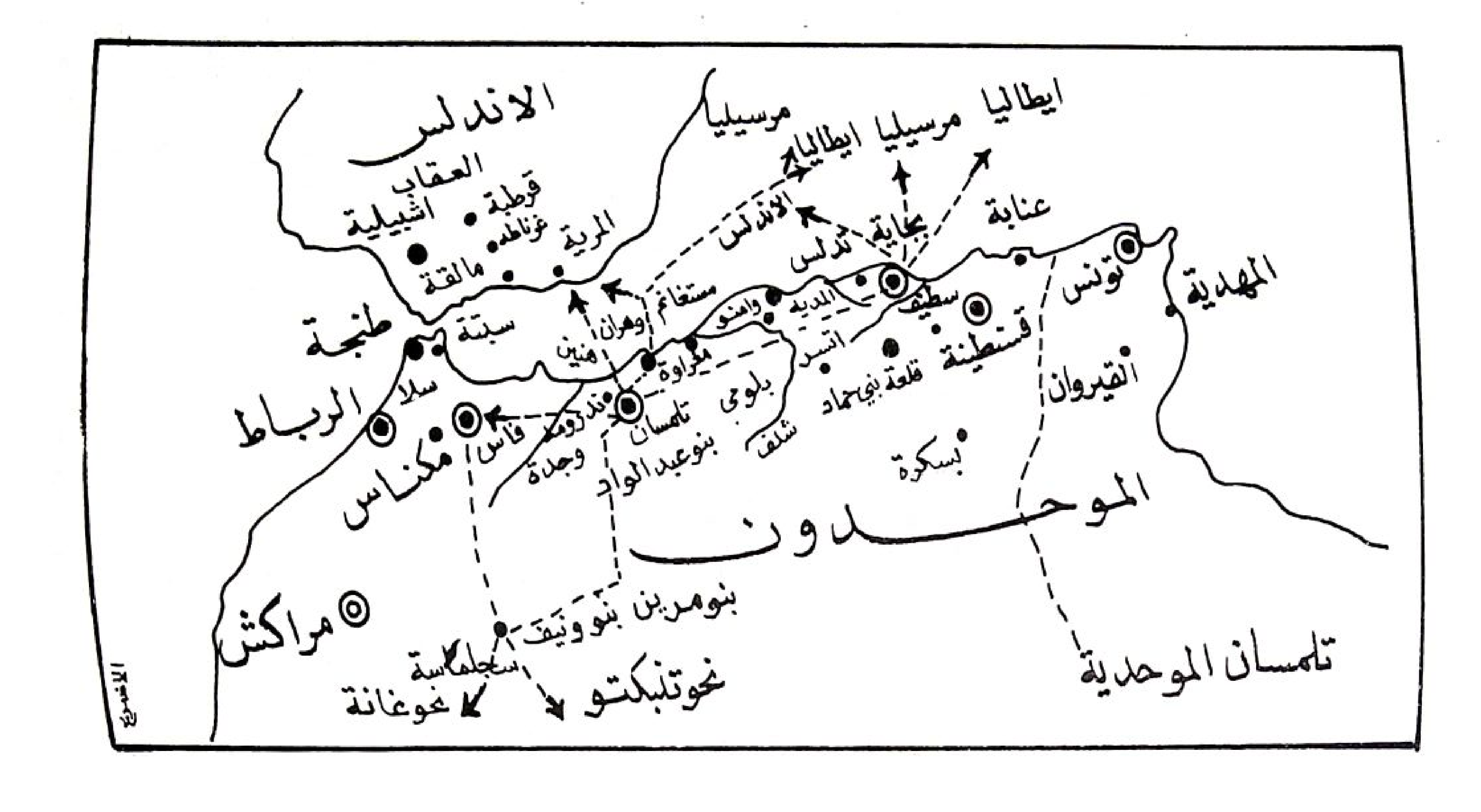
---

(1) تحفة الزائر .

الذين بارحوها رجعوا إليها ودخلوها ليلا وقدموا طاعتهم إلى الجنرال وأخبروه بأن جيوش الأمير قد سئمت الحرب . وكان في عزم الجنرال أن يتركها ويتابع زحفه . ولما سمع قول أولئك الانهزاميين قرّر أن يقيم بها وأن يستولي عليها نهائيا . فشرع في تحصينها خشية أن يسترجعها الأمير منه . وأقام بها حكومة وسلّم إدارتها للجنرال «بيدو» . فعند ذلك نهض يتابع زحفه نحو الجهة الشرقية على طريق الخط الفاصل بين بلاد الصحراء وبلاد التل . فوصل إلى قلعة «سبدو» وجرت بينه وبين قبائل تلك النواحي حروب كان الشفوف له طبعا . فإن جيشه أكثر عددا وسلاحا ونظاما ، فلاذوا بطاعته . ومن هناك توجّه إلى قلعة «سعيدة» فقدم قبائلها طاعتهم له . ومنها سار إلى «القيطنة» بلد الأمير ، فأحرقها . وقد حدث يومئذ نزاع بين أنكلترا وفرنسا . فظن الأمير أن ذلك فرصة سانحة ليلتمس من أنكلترا أن تشغل فرنسا عنه حتى يتمكّن من مدافعة العدوّ عن الوطن . فأحس بذلك الفرنسيّون فتلافوا أمرهم مع أنكلترا . ثم كتب الأمير إلى الدولة العثمانية يستنجدها ، فلم تردّ له جوابا ، وكتب إلى صاحب المغرب «مولاي عبد الرحمن» يستدعيه للمشاركة في دفاع العدوّ لاتصال المغربين الأوسط والأقصى . فتغافل عن الجـواب .

لم تتم سنة 1258 هـ (1842 م) حتى كان العدوّ استولى على المدن والقلاع . فظهر حينئذ للأمير أن يتخذ عاصمة رحّالة مؤلّفة من خيام كثيرة . فباشر في ترتيبها . وما هي إلاّ حتى ظهرت للوجود . فسمّى ما يخصه منها الزمالة وما يخص الأعيان والعامة الدائرة وما يخص الجند المحلّة . واتّخذ فيها جملة مضارب لمعامل السلاح وأخرى لوضع المهمّات الحربية والذخائر . وأعدّ فسطاطا واسعا لاجتماع المجلس العام وآخر اتخذه مسجدا ، ورتّب مضارب للباعة وأهل السوق تضرب بعيدة عن الزمالة والدائرة وما يتعلق بها . فكانت تجيء إليها الذخائر ويقصدها التجّار وأهل الحرف والصنائع ، فكأنك بها مدينة على أتمّ ما يكون من الانتظام . وكانت تعدّ مركزا حربيّا ومقرّا مدنيا تشتمل على مائتي ألف نفس . ومنها كان الأمير يبثّ غوازيه وبعوثه ، وفيها يستعد للحرب . وقد عيّن الأمير لحراستها أربع قبائل من العرب وفرقة كثيرة العدد من الجند النظامي . منذ أن اتّخذ الأمير الزمالة ودوائرها عاصمة رحّالة أخذ الفرنسيّون يدبّرون في القضاء عليها . كيف

لا وقوة الأمير المالية كلّها فيها . فعملوا ما في وسعهم ليجدوا من يدلهم على موضعها . فعثروا على أخبث أولئك الأعراب المتنصّرة وهو «عمر العيادي» . فجعل يتتبّع مراحل الزمالة من موضع إلى موضع حتى احتلّت في (كوحيلة) من نواحي الجنوب الشرقي من «تاهرت» . فطير الخبر إلى ابن ملك فرنسا الدوك «دومال» ، فانتهزوا الفرصة لأن الأمير كان وقتئذ لاهيا مع الجنرال «لاموريسيار» في نواحي السرسو . فسار من «بوغار» في ألفين من المشاة وخمسمائة فارس من جنود فرنسا وخمسمائة من القبائل المتنصّرة حتى احتلّ بكوحيلة . فوجدوا الزمالة قد انتقلت إلى القرب منها بمرحلة ، ونزلت في الموضع الذي يعرف بطاكن . وفي اليوم السادس عشر من ربيع الثاني (15 أيار 1843 م) سطا عليها بجنوده على حين غفلة . وكانت حاميتها وقتئذ لا تزيد على خمسمائة جندي من ضعفاء العسكر وظنوا أن القادمين نحوهم هم طلائع الأمير . ففرحوا إلى لقائهم بالتهليل والتكبير . فما قربوا منهم حتى ظهرت جيوش العدوّ . فحاولوا حينئذ أن يتداركوا أمرهم ، لكنهم لم يقدروا أن يتغلبوا على جيوش العدوّ . فتفرّق الناس يطلبون النجاة . فاستولى العدوّ على أموال وذخائر الدولة ونفائس الأمير ومكتبته القيمة وآلات حربية . يحكى أن الأموال كانت كثيرة حتى أن العساكر قد اقتسموا الذهب والفضة بالبرانيط . فأسر من المسلمين ثلاثة آلاف نفس كان فيها الخليفة السيد «محمد علال» والسيد «محمد الخروبي» والسيد «قدور بن رويلة» ، وما هي إلاّ أيام بعد ذلك حتى وضعت الحرب أوزارها بين الفريقين ريثما تضطرم نيرانها من جديد في أوّل نوفمبر سنة 1954 أمكن للشعب الجزائري أن يسترجع إثرها كيانه بدحر العدوّ وبصفة نهائية


الاندلس
العقاب
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
مرسيليا
ايطاليا
مرسيليا
ايطاليا
الاندلس
عنابة
بجاية
تدلس
طنجة
سبتة
وهران
هنين
مستغانم
وامنو
المدية
تونس
المهدية
سطيف
قسنطينة
مغراوة
اتسر
قلعة بني حماد
القيروان
الرباط
سلا
مكناس
فاس
ندرومة
وجدة
تلمسان
بنو عبد الواد
بلومي
شلف
بسكرة
الموحدون
مراكش
بنو مرين
بنو ونيف
سجلماسة
غوغانة
نحو تنبكتو
تلمسان الموحدية
الاضريح

التلمسانيون من أكبر هواة الموسيقى

إن المساجد والمدارس والقصور التي تحلّت بها «تلمسان» لشاهد قويّ على رقيّ الحضارة المغروسة في «تلمسان» . وقد تدلّ على أن الاتّجاه في التعمير كان تابعا التقاليد الأندلسية المغربية . وقد عمّ هذا الاتّجاه الموسيقي أيضا . وقد أعان على جلبها وإقرارها في غرب الجزائر ملوك بني زيان الذين كانوا يفاخرون ملوك المغرب في جميع مقوّمات الحضارة . فانساقت أوضاع الفنون الأندلسية المغربيّة وأساليبها واستحوذت على أهواء وأذواق الجزائر عامّة «وتلمسان» خاصّة . ومن ذلك الحين تغيّر مجرى التأثير وأصبحت أمواجه تأتي من الأندلس بعدما كانت تأتي من الشرق في أغلبها . ودام هذا التيار ما يربو على ثلاثة قرون شاعت بين طبقات الشعب أغاني «قرطبة» «وإشبيلية» . وكيف لا تتأثّر الجزائر بالموسيقى الأندلسيّة وقد ورد عليها موجات من اللاجئين الأندلسيّين . وهؤلاء كانوا مولعين بهذا الفن الذي غرس حبّه «زرياب» في قلوب أجدادهم . استدعى «الحكم» الأموي «زرياب» إلى «قرطبة» . وفي طريقه أخبر بوفاة الحكم . ولكنه تابع سيره . فدخل الأندلس سنة 822م . فاستقبله «عبد الرحمن بن الحكم» بحفاوة زائدة وقربه . ولم تقف مهاره «زرياب» عند جودة الغناء والحذاقة في العزف ، بل تخطى ذلك إلى تحسين صناعة العود والوصول إلى درجة عالية في الفن . ومن مآثره على الموسيقى أن هيّأ لنفسه مدرسة وطريقة في التعليم تصل بالراغب فيها إلى تحقيق الغاية . وكان فوق مدرسته الموسيقيّة وعبقريته الفنيّة عالما جليلا وشاعرا مطبوعا وفلكيّا بارعا وذا أذواق في الأطعمة والألبسة والأناقة أثرت تأثيرا

بليغا في الأوساط الأرستقراطية . ولم تبق الموسيقى بعده وقفا على الملوك والطبقة الممتازة ، فكسّرت أقفال القصر وخرجت إلى المنازل والشوارع ، وأخذ بتلابيبها الشعب وسقطتّ «قرطبة» 1236 م ثم «إشبيلية» 1248 م فهاجر الأندلس ما يقرب من نصف مليون من أهلها الى شمال «افريقية» واستقروا بها (1) ونقلوا إليها ما كان بهاتين المدينتين من كنوز الموسيقى . فصارت بلادنا وارثة هذه الفنون . وهناك أمر آخر كان له تأثير كبير على سير الموسيقى في بلادنا ، ذلك هو هجرة ما بقي من أهل الأندلس الأخيرة إلى القطر أوائل القرن الحادي عشر الهجري إذ جلبوا معهم ما بقي لديهم من أغانيهم الكلاسيكيّة وألحانهم الشعبيّة . فانتشرت الموسيقى وارتكز الفن التلحيني على النوبات . والنوبة نوع من التأليف الموسيقي يتناوب التأليف الغنائي والتأليف الآلي وهي عبارة عن خمسة حركات . فكانت أربع وعشرين . ولا تعرف من بينها في أيامنا سوى اثنتي عشرة نوبة . تبدأ النوبة بمقدمة التوشية . وكانت هذه عبارة عن دعوة الناس والأحباب ورجال البلاط الذين ينتظرون خروج الملك من البهو الذي يعزف فيه الجوق . وكان يظهر الملك إثر الموازين الأخيرة من الحركة الأولى . وكان يأخذ مكانه على العرش . ويقوم الموسيقيون بتأدية الكرسي . وبعد ذلك بقليل يذهب المدعوون واحدا تلو الآخر لتحيّة العاهل وتقبيل يده . فتنشط الموسيقى بألحان متمهّلة توحي الإجلال . وذلك يسمّى بالمصدّر . ثم تتطور الألحان وتدْعَى الطبيعي ، وهنا تفتح النوافذ المشرفة على بساتين القصر وبطاحه ويسر المدعوون إذ كان فصل الربيع بجميع ألوانه وعطوره دخل القاعة ، فيعزف الجوق الدرج وهي الحان تعبّر عن حركات مرحة خفيفة بينما ينزل الكلّ في فرح وسرور الدرج ليتبهجوا بالطبيعة . ولكن سرعان ما يحين وقت الوداع ، فيعزف الجوق ألحان الانصراف . وأخيرا يفترق الجمع على ألحان الانخلاص وهو اللحن الأخير (2) .

والتلمسانيون من أكبر هواة الأغاني والموسيقى . فجمال الطبيعة التي يعيشون في حضنها واندماجهم بالأندلسيّين الذين هم الآخرون يكلفون بالطبيعة والموسيقى .

---

(1) إستقر من القرطبيين بتلمان خمسون ألفا عندما أستولى على بلدهم فرد يناند الثالث ملك قشتالة سنة 1236 م .

(2) تلمسان (وزارة الإعلام والثقافة) .

وتشجيع ملوك بني زيان لهذا الفنّ . كلّ ذلك بثّ فيهم هذا الحبّ الذي توارثته الأجيال خلفا عن سلف وأمكنه أن يصل إلى أيامنا هذه . فإن «تلمسان» لتعدّ الوارث الأمين لهذا التراث الثقافي . فلازالت الأجواق تهتم به وتردّد الألحان الساحرة التي تذكرنا بماضي بلادنا وحضارتها الزاهرة . فمن أشهر الأساتذة الذين عرفتهم مؤخرا «تلمسان» «أبو ظلفة» والحاج «العربي بن صاري» رحمهما الله . كان جوقهما يتألف على الأقل من خمسة فنانين: فالمعلم . وهو رئيس الجوق . يعزف على الرباب (شكل 43) والباشا الكياتري والكياتري يعزفان على (الكويترة) وهي نوع صغير من العود . والطرار يضرب على دف صغير . والدرابكي يضرب على (الدربوكة) . وكثيرا ما ينضم إلى هؤلاء الفنانين عواد وصاحب ناي وصاحب كمال جا» .

وقد حاول «مصطفى بن عبورة» وابنه «خير الدين» ـ رحمهما الله ـ التنقيط في الموسيقى . ولكن هذه التجربة لم تكلّل بالنجاح .

وبجانب الألحان الكلاسيكيّة تسمعنا الأجواق التلمسانيّة أغاني محلية تسمّى بالحوزي . يعزف أثناءها المعلم على «الكمال جا» أو على السنطر أو على القانون. وللحوزي أعراض منها القصيدة ولها حركتان : يبدأها الفنان بعروبي ويتبعه بسمط من القصيدة وهو يعزف على آلته . فلا يتمّ حتى ينطق أعضاء الجوق بالدور عازفين على آلتهم مثله . ومنها الزندلي وهو نوع من الغزل يشبب فيه بالحبيبة . والحزان الذي يتألف فيه على بعدها أو فراقها . والخصام وهو عبارة عن محاورة بين الحبيبين .

وكما أن للرجال أجواق فللجنس اللطيف أجواق . وهناك جوق آخر يتكوّن من غياطين وطبالين .

وفي أواخر عهد الأتراك اشتهر شعراء غزليّون تغنّى بشعرهم أهل الطرب منهم محمد بن مسايب وابن اسماعيل وابنه جدّي وأحمد التركي . وابن زكّلي . وابن سهلة . وسعيد بن عبد الله المنداسي ومبارك أبو الأطباق . وابن غنبازة . وكلّهم عاشوا «بتلمسان» وتوغلوا بها . فقد تغنّوا بجمال الجنس اللطيف ومدحوا «تلمسان» وصلاحها والنبي صلى الله عليه وسلم .

أما السلطات التركية ، فإن قرّبتهم وأغدقت عليهم صلاتها السنية مدحوها وأشادوا بذكرها ، وإن قصّرت ولم تحفل بهم رموها بنبالهم النافذة . وإن ننس فلا ننس الحوفي ذلك الغناء الخاصّ بالشابّات التلمسانيّات وهن يتنعّمن في حضن الطبيعة بين الأشجار المورقة المزهرة وبضفاف الغدران المتدفقة في أيام المسرّات والأفراح ، يمدحن في أغانيهن جمال «تلمسان» وأبنائها وطبيعتها الساحرة الفتّانة والصالحين «كالغوثي أبي مدين شعيب» و «لالا ستي» .

مقاومة سياسة التجهيل الاستعمارية :

لم تنتصر فرنسا بقواتها الحربيّة فقط ، فاستعملت معها المكر والحيل . فكانت أحقاد عنصرية بين الحضر والكول أوغلان ترجع إلى أن الأتراك ، آباء الكول أوغلان ، قد أساؤا إلى أهل «تلمسان» إبان سيطرتهم على المدينة . وقد انتهز الاستعمار هذه الحال فأذكى تلك الأحقاد بين الطرفين ليسود عليهما . إلاّ أنّ الله قيض للتلمسانيّين شخصيّة فذّة تتمثّل في «محمد البشير الإبراهيمي» ـ رحمه الله ـ فهو الذي ألّف بين العنصرين ، فصاروا إخوانا متكاتفين ، فلا يمكن القيام بعمل ماجد إلاّ بائتلاف القلوب واتحادها .

كانت قبل الاحتلال الفرنسي الكتاتيب والمساجد والزوايا منتشرة في جميع أنحاء البلاد يتلقى النشىء فيها ثقافته العربية الإسلامية . فلا يجهل الاستعمار أن العلم سيف قاطع يساعد الجزائري على مقاومته واسترجاع كيانه . فسعى في تجهيل الأمة الجزائرية بمنع تفسير القرآن وتدريس التاريخ وجميع الموادّ التي من شأنها أن تحرّك عواطفهم لتراثهم الثقافي ووعيهم القومي . وما هي إلاّ فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم بعدما كانت تزخر بأهله . إلا أنه في سنة 1883 م أخذ يفتح أبواب المدارس في وجه أبناء الجزائر ، لكنّ التعليم كان فرنسيًا بحتا . ولم يكن القصد في تعليم الجزائريين الاستجابة لصوت الأمة المتعطشة للعلوم والعرفان ، وإنما لتقريبهم من فرنسا بواسطة اللغة الفرنسيّة حتى يسهل عليها ابتلاعهم وإدماجهم . أما اللغة العربية فكانت في المدارس الثانوية لغة اختياريّة كأنها لغة أجنبيّة في بلادها . لكن الأمة الجزائريّة رأت هذه الوضعيّة خطرا على مستقبل عروبة البلاد وشخصيتها . فقامت تبني المدارس العربية الإسلامية

الحرة ، بجهودها الضئيلة . فشيّدت ما يزيد على 170 مدرسة ، وذلك تحت إشراف جمعيّة العلماء الجزائريّين . ولا تسأل عمّا قاسته من تعسّف من طرف المستعمر ولكنّها مع ذلك كونت نخبة عربيّة إسلامية من الفتيان والفتيات . ثم أسّست هذه الجمعيّة معهد «عبد الحميد بن باديس» التكميلي «بقسنطينة» منه يتوجه الطلبة إلى المدارس والمعاهد العليا بتونس وبالمشرق العربي .

وبينما كان «عبد الحميد بن باديس» ـ تغمده الله برحمته ـ بشرق الجزائر كان «محمد البشير الإبراهيمي» ـ رحمه الله ـ في غربها يقوم بحركة دينيّة وثقافيّة واسعة النطاق . فاستقرّ «بتلمسان» ، ومنها أخذ ينتقل إلى أمصار وقرى الإقليم . فاستحثّ همم أهل «تلمسان» ، على بناء معهد لنشر الثقافة العربية الإسلامية التي طالما زخرت بها المساجد والمدارس في عصور «تلمسان» الذهبيّة . فشيّدت «دار الحديث» وأخذ الشيخ «الإبراهيمي» نفسه يلقي دروس التفسير بعد الغروب ودروس الموطأ بعد صلاة الفجر . فينثال عليه الناس . يحدثنا الشيخ فيقول : «إذا زارني «عبد الحميد ابن باديس» ورأى الدروس تنتظم الساعات وسمع درس التفسير بالليل ودرس الموطأ في الصباح الباكر ورأى إقبال الجماهير وتأثرهم ابتهج ابتهاج الظافر» .

وينوّه بهذا كله شاعرنا «محمد العيد» في الأبيات التالية التي اقتطفناها من قصيدة ألقاها يوم افتتاح دار الحديث خريف سنة 1937 .

أحيّي خير مدرسة بناها	خيارٌ في معونتهم خيار
«تلمسان» احتفت بالعلم جارا	وما كالعلم للبلدان جار
لقد لبست من الإصلاح تاجا	يحقّ به لأهلها الفخار
فكان له بها نصر وفتح	وكان له ذيوع واشتهار
لقد بُعِث (البشير) لها بشيرا	بمجد كالركاز بها يُثار
وفي «دار الحديث» له صوان	بديع الصنع مَصقول مُنار
به عَرَض «البشير» فنون علم	وآداب ليجلوها الصغار
فيا «دار الحديث» عمي نهارا	وعمرك كله أبدا نهار
ويا «دار الحديث» عليك تلقى	مهمّات لنا ومُنًى كبار

وفي «بلد الجدار» كنوز دين　　　وعلم لا يليق بها ادخار (1)

وكانت الزوايا قبل الاحتلال الفرنسيّ منبع علم وأكبر عامل لإصلاح المجتمع . فما لبثت أن انحرفت عن غايتها المحمودة . فتسلط عليها شيوخ جهلة استغلوا مكانة الزوايا في قلوب العامّة . فخلعوا على أنفسهم الحقيرة صفات الألوهيّة ، وأوهموا المريدين ، وسقط هؤلاء الشيوخ في شبكة الاستعمار يسخرهم لمصالحه . فراحوا يقاومون رجال الإصلاح . فوقعت بين الفريقين معارك . فقد عانى الشيخ «محمد الإبراهيمي» الشيء الكثير من مكايدهم ، إذ كان لجميع الطرق المعروفة وقتئذ ممثلون «بتلمسان» ، لكن يد الله فوق أيديهم . فقد أتت حركته بثمرات طيّبة أرجعت إلى اللغة العربيّة حيويتها وإلى الدين مكانته . فتخرّج عدد لا يستهان به من الطلبة . وفي ذلك يقول محمد العيد :

وفي دار الحديث رياض علم　　　عليها نضرة ولها اخضرار
بدت منها ثمار طيبات　　　شهيات فأرضتنا الثمار (2)

وقد أدارَ «دار الحديث» الأخ «محمد الصالح رمضان» قبيل الحرب العالمية الثانية . فوفدت وقتئذ على الجزائر بعثة فنيّة من القاهرة وعلى رأسها عميد المسرح العربي «يوسف وهبي» . فرحّب به الجزائريون ، واحتفلت «تلمسان» بالوفد فقام حينئذ «محمد الصالح رمضان» وقال قصيدة يرحب بها بالضيوف . إليك مطلعها .

قدوم كإشراق الصباح مكرّم　　　وحلّ كإقبال الزمان لمعدم
«تلمسان» تاهت بالفخار وخلّدت　　　على صفحات الجيل أعظم موسم
وهبّت صَبا مصر علينا فأيقظت　　　مشاعرنا بعد الركود المذمم
فأفشت عبرَ الشرق واللطف والحجا　　　وعرف أريج بالأطايب مفعَم

ولم تندلع الثورة العارمة في أول تشرين الثاني سنة 1954 لاسترجاع الكيان والشخصيّة الجزائريّة والعزة والكرامة حتى قام أبناء «تلمسان» كهولا وشبابا

(1) الديوان ص : 81 .
(2) الديوان : ص 82 .

وذكورا وإناثا يساهمون في هذا الكفاح المرير بالنفس والنفيس . فكلّل الله مساعي الأمّة جمعاء بالفوز المبين . فلم يبق الآن إلاّ الانتصار على التخلّف والبناء الذي تعهّدته حكومتنا الثوريّة المظفرة . فقامت بالثورة الصناعيّة فنجحت والآن تقوم بحملة واسعة النطاق لتثبيت خطوات الثورة الزراعيّة . ثم ستهتمّ في القريب العاجل وبصفة خاصّة بالثورة الثقافية التي لا يمكننا أن نكون في مصاف الأمم المتقدّمة الراقية بدونها .

الاندلس
بلنسية
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
المرية
مالقة
طنجة
سبتة
الزحف الاسباني
٢٩ أوت ١٥٠٥
سلا
الرباط
فاس
مكناس
بنو مرين
السعديون
وجدة
تلمسان
بنو راشد
زغبة
معسكر
مستغانم
ارزيو
تنس
الجزائر
الزحف الفرنسي
١٨٣٠
١٨٣١
مليانة
الدواوشة
مغراوة
الونشريش
بنو سويد
يلومي
السرسو
معقل
المدية
توجين
زغبة
بوسعادة
الاغواط
العمور
المغرب الاوسط
المغرب الاقصى
مراكش
سجلماسة
غرداية
ورجلة
تقرت
سدراتة
الوادي
سوف
بسكرة
سطيف
قسنطينة
الاثبج
جيجل
بجاية
تدلس
سكيكدة
عنابة
رياح
بنو حفص
تونس
القيروان
افريقية
المهدية
صفاقس

تلمسان الزيانية

الخاتمة

إن «تلمسان» لمدينة عريقة في القدم ، ولكنها لم تصبح ذات شأن في عالم التاريخ والحضارة حتى افتتحها العرب وتربع فيها الإسلام . إن موقعها الجغرافي الاستراتيجي كان من أهم الأسباب التي لمع بها اسمها . فقد جعلها همزة وصل بين الناحية الشرقية والناحية الغربية من أرض «أفريقية» الشمالية ، من جهة ، وبين الحوض المتوسط وبلاد السود من جهة أخرى . فكانت بذلك مركزا تجاريا هاما طيلة قرون . ولها تربة طيبة ومياه متدفقة وبساتين شجيرة ومزارع شاسعة نضيرة ، فلا تستمد من الأوطان الأخرى زرعا ولا ضرعا . ولا خضرا ولا فاكهة . وقيّض الله لها ملوكا وأمراء واعين اعتنوا بعمرانها وتثقيفها . فكثر سكانها (1) ، واتسعت أحوال أهلها . فلا تجد التلمساني إلاّ تاجرا أو محترفا أو طالبا للعلم أو معلما أو جنديا مع الجيش يدافع عن وطنه . وقد كملت صنائعها والصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته (2) . وقد تراجع عمرانها وتناقص في أيام تدهورها ومع ذلك بقيت آثار من هذه الصنائع مما يدل على أن أحوالها كانت مستحكمة راسخة . وفي عهد بني زيان أصبحت «تلمسان» حاضرة من حواضر العلم والسياسة بالعالم الإسلامي . واستمرت هذه الدولة من سنة 635 هـ (1235 م) إلى سنة 963 هـ (1554 م) أي 328 سنة . إلاّ أنها كانت واقعة بين شقّي رحا : المملكة الحفصية شرقا والمملكة المرينية غربا . وقد تعدّدت

---

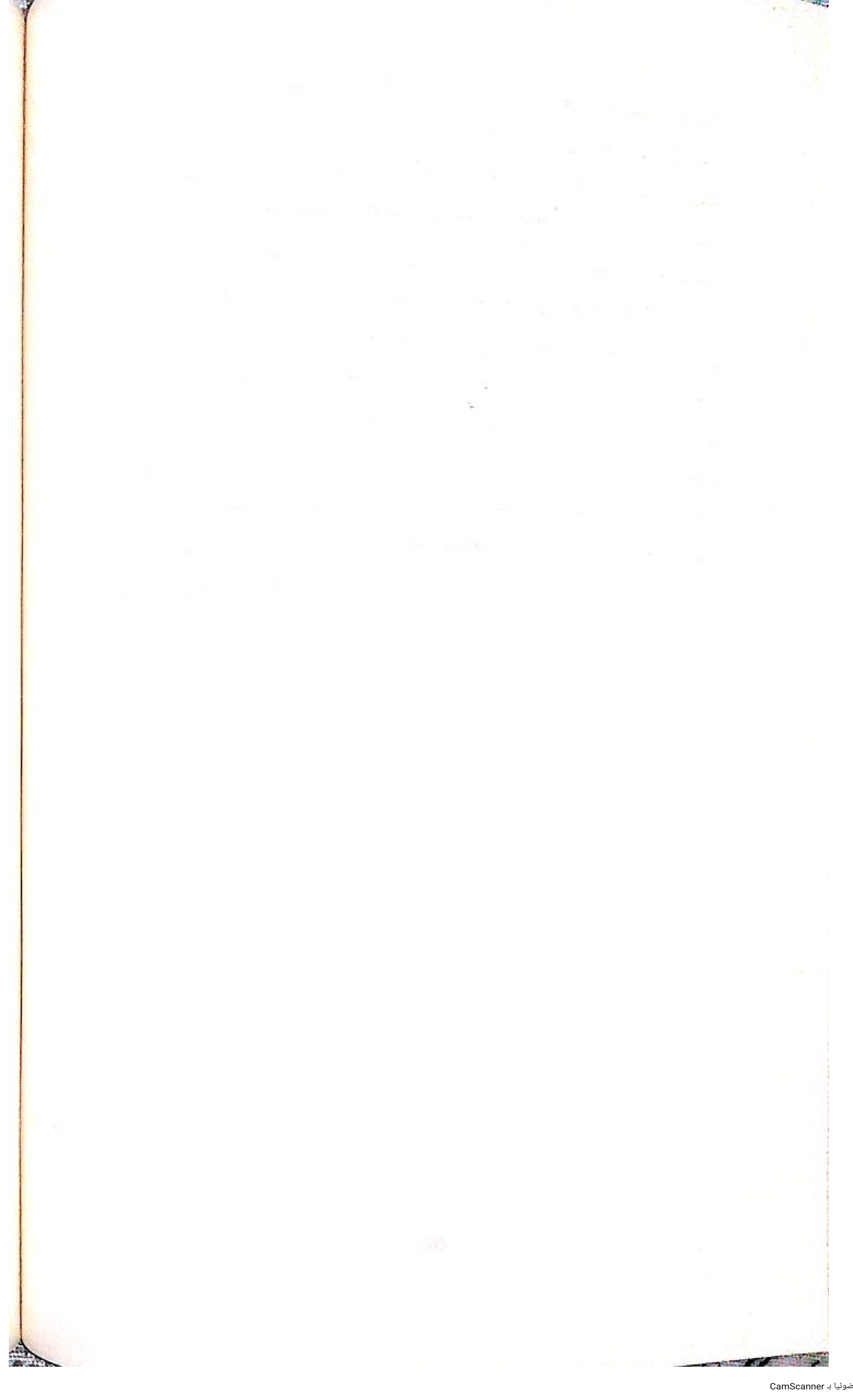
(1) قد بلغ عدد سكانها مائة وخمسين ألف نسمة .

(2) ابن خلدون : المقدمة ص 349 .

الحروب بين هاتين وتلك . فكم من مرة تحالفوا ضدها ! وكم من مرة تحالفت مرين مع القبائل العربية والزناتية لتقضي عليها ! فواجهت هذه الأحلاف وقاومت الهجومات الآتية شرقا وغربا . فإن هذه الحروب المتوالية بين دول أفريقية الشمالية انتهت ويا للأسف ! ، بضعفها . وقد أثر هذا الضعف في مصير بني الأحمر «بغرناطة» الذين كانوا يستمدون من الزيانيين والمرينيين والحفصيين قوتهم المالية والعسكرية . فأمكن الأسبان أن يستولوا على إمارتهم وأن يهجموا بعد ذلك على شواطىء المغرب العربي ، ودحرهم منها تطلب من أجدادنا الجهد الجهيد . فكانت «تلمسان» مربعا لعلماء وأدباء طالما افتخر بهم البلاط الزياني قصد مدارسها الطلاب من كل فجّ وصوب ، واستوطنها أولياء قد أعجبهم الموقع وراقهم المجتمع . وكانت الجزائر تابعة للشرق الإسلامي في حضارتها وثقافتها وفنونها . ومنذ القرن الخامس الهجري أخذ التيّار الحضاري الأسباني المغربي يتسرب إلى الجزائر ولا سيما إلى «تلمسان» حيث تربع المرابطون ثم الموحدون الذين تبنوا أساليب الفن الأندلسي الجميل . ولم تلبث هذه الأساليب أن امتزجت بما كان في البلاد . واستمرت عملية الامتزاج نحو ثلاث قرون اتّخذ بعدها هذا الفن الجديد إطاره النهائي ، وذلك في عهد بني زيان حيث أصبحت صلة «تلمسان» بالأندلس أقوى وأمتن من ذي قبل . فإن هؤلاء ، بفضل ما أبدعوه من روائع ، تبوأوا المقام السامي في تأريخ الفن المعماري الإسلامي . وقام بنو مرين ينافسونهم «بتلمسان» في هذا المضمار . وهذه المجموعة الفنية الزيانية المرينية ضاهت ما شيد «بغرناطة» «وفاس» روعة وإبداعا .

والاتجاه الأندلسي قد عم الموسيقى أيضا . فأخذت ألحان الفردوس المفقود مكانا مرموقا بجانب الحوزي الأصيل ، وليس هناك ما يدعو إلى التعجب . فقد اضطر الأندلسيون المسلمون إلى مغادرة فردوسهم ، وقصد عدد كبير منهم إلى «تلمسان» حاملين معهم تراثهم الفكري والفني والمهني وأذواقهم التي تنمّ عن ماض مجيد وحضارة عريقة . ولم يلبثوا أن انصهروا في المجتمع مثل الكول أوغلان من بعد حتى لم يعد بوسع أحد التفريق بين العنصرين . فصقلت يد الأيام طباع ذلك المزيج ، فجعلته يمتاز بالأناقة في الهندام والذوق في الملبس وبالصيانة في العرض والسيرة والكياسة في الحديث والمعاشرة وبالحذاقة في طريق الطبخ

وألوان الأطعمة والحلويات والرغبة في العمل والتكسّب . فإن التلمسانيين يقرأون للأيام حسابها . بحيث أنك لا ترى منهم محتاجا الا الذي خانته صحته فقعد عن مزاولة مهنته . واحتلّ الأتراك «تلمسان» وخلعوا الزيانيين وضمّوا المدينة إلى الدولة الجزائرية الجديدة . وعقبهم الفرنسيون . فوقف لهم الأمير عبد القادر بالمرصاد ، فلم يتح لهم أن يستولوا على «تلمسان» إلاّ بمشقة عظيمة . واندلعت ثورة أول نوفمبر 1954 المباركة . فقد كلل الله مساعي الأمة الجزائرية بالفوز المبين . فالفرنسيون ، رغم قواتهم التي لا تبقي ولا تذر ، اضطروا إلى تسليم «تلمسان» والقطر الجزائري بأجمعه إلى أولاده البررة ، وذلك بدون قيد ولا شرط . فالآن «تلمسان» تسترجع شيئا فشيئا مكانتها الشهيرة وصيتها المفقود بينما الكثير من أبنائها يهاجرونها قاصدين العاصمة والأمصار الأخرى لتولّي المناصب والوظائف الحكومية أو لتأسيس مراكز تجارية أو معامل صناعية بجانب المواطنين . أعان الله الجميع على رفع مستوى البلاد اجتماعيًا وثقافيًا وعمرانيًا واقتصاديًا حتى تصبح في مصاف الأقطار الغنيّة الراقية .



المـــراجـــع

ابن أبي أصيبعـــة : عيون الأنبياء في طبقات الأطباء 1882

ابن أبي زرع علي بن محمد الفاسي : الأنيس المطرب بروض الفرطاس وأخبار ملوك المغرب وتأريخ مدينة فاس : ثـورنبـــرج 1843

ابن الأثير علي بن أحمد بن أبي الكرم : الكامل في التأريخ ـ دار صادر ـ دار بيروت ـ لبنان

ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل : 1) روضة النسرين في دولة بني مرين : تحقيق عبد الوهاب بن منصور ـ الرباط
2) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان : دراسة وتحقيق محمد رضوان الراية ـ دار الثقافة ـ بيروت . لبنان

ابن حوقل أبو القاسم : المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ليدن 1873

ابن خـردادبــة : المسالك والممـالـك

ابن الخطيب لسان الدين : 1) اللمحة البدرية في الدولة النصرية القاهرة 1347
2) الإحاطة في أخبار غرناطة : القاهرة دار المعارف . تحقيق محمد عبد الله عنان 1957

3) أعمال الأعلام : تحقيق الدكتور العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني الدار البيضاء 1964 .

4) نفاضة الجراب : تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ومراجعة عبد العزيز الأهواني : دار الكتاب العربي القاهرة .

ابن خلدون أبو زكريا يحي : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد . مطبعة الجزائر 1328 هـ 1915 م ترجمة «القرد بال» .

ابن خلدون عبد الرحمن : 1) المقدمة : طبعة عبد الرحمن محمد
2) كتاب العبر : دار الكتاب اللبناني بيروت 1966 .

ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي : تحقيق إبراهيم الأبياري : الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة التاسعة ـ دار المعارف ـ مصر

ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله : كتاب فتوح أفريقية والأندلس : ترجمة.

ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب : مكتبة صادر ـ مطبعة الناهل ـ بيروت .

ابن الفقيه الهمذاني : كتاب البلدان .

ابن قنفوذ أبو العباس أحمد : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية : تقديم وتحقيق محمد الشاذلي وعبد السعيد التركي ـ الدار التونسية ـ تونس .

ابن مرزوق الخطيب : المسند الصحيح الحسن في محاسن مولانا أبي الحسن : خزانة جامعة الجزائر .

ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف : البستان ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان : المطبعة الثعالبية 1326 هـ 1958 م الجزائر

أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السفطي المالقى : كتاب في أدب الحسبة .

أبو الفداء إسماعيل بن علي : المختصر في أخبار البشر بيروت 1956 .

أبو مروان بن حيان القرطبي : المقتبس في أخبار الأندلس ـ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان .

أبو يعقوب التادلي : التشوف إلى رجال التصوف .

الإدريسي أبو عبد الله محمد بن أحمد : وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ـ مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

البكري أبو عبد الله : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب المشتق من كتاب المسالك والممالك . نشره الأستاذ دوسلان تحت عنوان:
Description de l'Afrique septentrionale
الجزائر .

البلاذري أحمد بن يحيى : كتاب فتوح البلدان ـ ليدن 1866 بيروت .

البيذق أبو بكر الصنهاجي : كتاب أخبار المهدي بن تومرت : تحقيق الأستاذ ليفي بروفنصال .

التنبكتي أحمد بابا : نيل الابتهاج .

التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل : نظم الدر والعقيان : مخطوط بثانوية ابن زرجب ـ تلمسان .

التواتي عبد الكريم : مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس : مكتبة الرشاد ـ الدار البيضاء الطبعة الأولى 1967 .

الجزنائي أبو الحسن علي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس 1923 ـ مطبعة كاربونال .

حركات إبراهيم : المغرب عبر التاريخ ـ المجلد الأول ـ طبع ونشر دار السلمي .

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية : الطبعة الثانية 1964 مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

الحميدي بن عبد المنعم : جذوة المقتبس في رجال الأندلس ـ تحقيق محمد تاويت الطنجي ـ القاهرة 1371 .

خفاجة عبد المنعم : قصة الأدب في الأندلس . مكتبة المعارف - بيروت 1963 .

ديوز محمد علي : تاريخ المغرب الكبير مصر 1963 .

أرسلان شكيب : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية دار مكتبة الحياة - بيروت لبنان.

الرقيق القيراوني : تاريخ أفريقية والمغرب - تحقيق وتقديم المنجي الكعبي الناشر الكعبي - تونس.

الزركشي محمد : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية .

سالم السيد عبد العزيز : المغرب الكبير : العصر الإسلامي - دار القومية - القاهرة .

السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : كتاب الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى - دار الكتاب - بالدار البيضاء 1954 .

السيوطي جلال الدين عبد الرحمن : بغية الوعاة تحقيق الدكتور صالح الدين - دار المعرفة - بيروت .

شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية - دار العلم للملايين.

الطمار محمد بن عمرو : تاريخ الأدب الجزائري : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1970 .

العبّادي أحمد مختار : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس - مدريد 1957.

عبد الرحمن الجلالي : تاريخ الجزائر العام - المطبعة العربية - الجزائر 1373 - 1954 .

العبدري محمد البلنسي : تحقيق الأستاذ أحمد جدّو - الرحلة المغربية - نشر كلية الأدب الجزائر .

عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية - المغرب 1957.

عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب - الرباط .

العمري بن فضل الله : مسالك الأمصار .

عنان محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس مطبعة نخبة التأليف - القاهرة.

الغزالي أبو أحمد : إحياء علوم الدين مصر 1302 .

الكعــاك : مراكز الثقافة في المغرب - القاهرة 1958.

كنون عبد الله : ذكريات مشاهير رجال المغرب : ابن الحاج رقم 22 ـ أحمد زروق رقم 13 عبد العزيز الملزوزي رقم 9 .

المالكي أبو عبد الله بن أبي عبد الله : ـ كتاب رياض النفوس : تحقيق حسن مؤنس القاهرة 1370 ـ 1951 .

محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تأريخ الجزائر والأمير عبد القادر : شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي ـ الطبعة الثانية ـ دار اليقظة العربية، بيروت 1964/1384 .

محمد علي مكي : التشيع في الأندلس والمغرب العربي .

محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي ـ دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت .

محمد العيـد : الديوان . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر .

المدني أحمد توفيق : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1495 ـ 1792 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر .

المراكشي أبو عبد الله محمد بن محمد بن مالك : الذيل والتكملة : السفر الخامس القسم الأول ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت .

المراكشي عبد الواحد : المعجب المغرب في تلخيص أخبار المغرب 1938/1352 . مطبعة الثقافة سلا ـ المغرب.

المشرفي محمد بن عبد القادر : بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر . تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

المقدسي شمس الدين أبو عبد الله : أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ـ نشر كاربونال ـ الجزائر .

المقري شهاب الدين أبو العباس أحمد : 1) زهر الرياض : نخبة التأليف والترجمة والنشر 1939/1358 .

2) نفح الطيب : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الأولى 1949/1367 . مطبعة السعادة ـ مصر.

ملين محمد الرشيد : عصر المنصور الموحدي المطبعة المحمدية 1946/1365 . دار التأليف والنشر السلطانية.

مؤنس حسن : فتح العرب للمغرب 1947.

موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر.

الميلي مبارك : تاريخ الجزائر . مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر .

نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت .

هويدي يحيى : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية الجزء الأول ، مكتبة النهضة المصرية 1965.

ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الحموي : معجم البلدان مصر 1906 .

يحيى بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ـ المطبعة الوطنية ـ الجزائر .

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ـ نشر وتعليق : (الدكتور زغلول عبد الحميد) .

كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول اعتنى بنشره : (ي . س علوش) رباط الفتح ـ المطبعة الاقتصادية .

كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ـ تحقيق : (محمد بن أبي شنب) 1960 الجزائر .

كتاب غزوات عروج : (نشر عبد القادر نور الدين) .

تلمسان ـ وزارة الاعلام .

المجلات : الأصالة عدد 6 يناير .

الثقافة عدد 6 .

فهـرس الأعـلام

ـ أ ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

- ش -

- ص -

- ك -

- ل -

- م -



فهرس القبائل والأماكن

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ع -

غ

- ف -

المراجع باللغة الفرنسية

Bibliographie en français

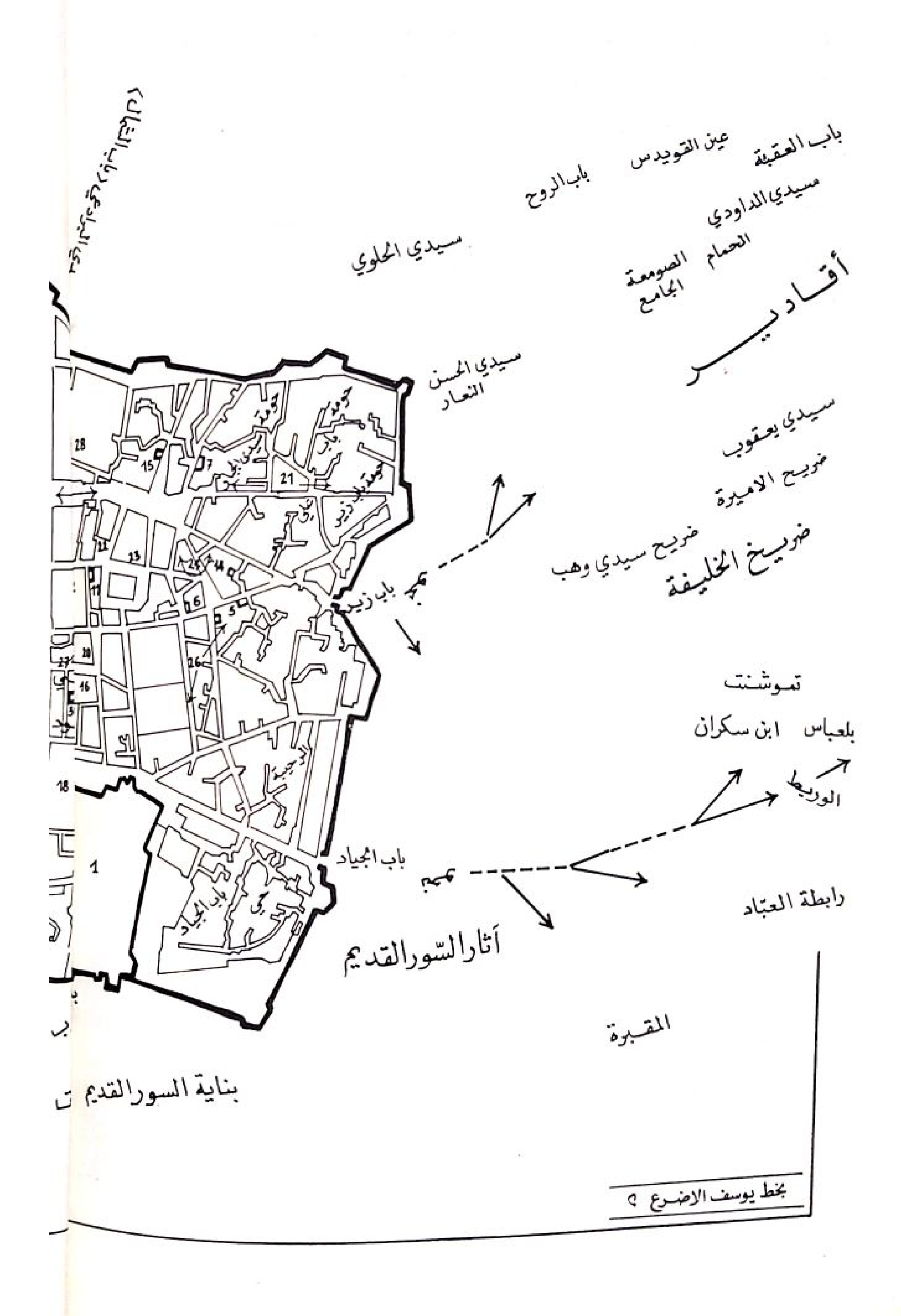
BARBET (Ch) : *La perle du Maghreb*, Tlemcen.
BARGÈS (L'abbé) : 1) *Histoire des Beni Zian, rois de Tlemcen.*
Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom.
Bel (A).
1) *Tlemcen* guide illustré du tourisme.
2) *La population de Tlemcen.*
3) *Un atelier de poteries et faiences découvert à Tlemcen.*
4) *Contribution à l'étude de dirhems de l'époque almohade.*
5) *Le travail de la laine à Tlemcen.*
BERQUE (A) *Art Antique et art musulman en Algérie.*
BRUNSCHVIG (R.) : *La Berberie orientale sous les Hafsides.*
ALEXIS CHOTTIN : *La musique musulmane* (la musique origines à nos jours).
CHURCHILL (CH.) : *Abdelkader.*
COUR (A) : *L'occupation marocaine de Tlemcen.*
DEMAEGHT (L.) : *Congrès d'Oran* (888) : *Oran et l'Algérie en* 1887.
DUFOURCQ : *L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIè et XIVè siècles.*
D'estailleur (P.H.) – CHANTERAINE : *Abdelkader l'Europe et l'Islam au XIXè siècle.*
FAGNAN (E) : *Extraits inedits relatifs au Maghreb.*

1) مناهج الفكر ومباهج العبر لمحمد بن ابراهيم بن يحي الأنصاري الملقب بالوطواط .
2) تحفة الملوك والرغائب في البر والبحر لأحمد بن علي محلي بن زنبل .
3) تاريخ البدر لبدر الدين محمود بن أحمد المسمى عيني .
4) البحر الزخار والعيلم الطيار للجناني مصطفى حسن حسيني .

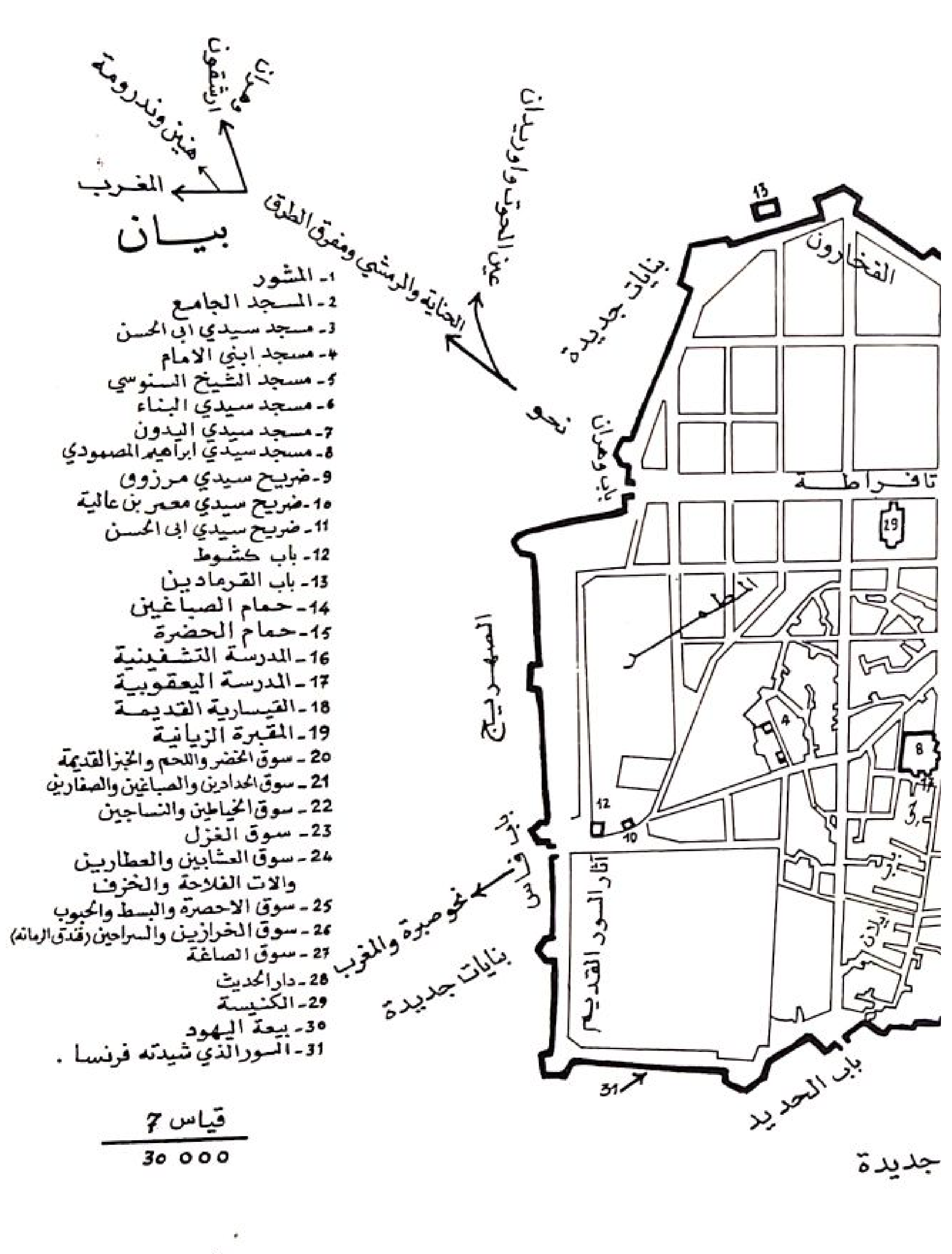
GAUTIER (E.F.) : *Le passé de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs.*
GOLVIN (L.) : *Le Maghreb central à l'époque des Zirides.*
JULIEN (CH. A.) : *Histoire de l'Afrique du Nord.*
KEHL (C.) : *Oran et l'Oranie.*
L'africain (J. LÉON) : *Description de l'Afrique.*
1) texte cité par PIESSE et CANAL, dans «*Les villes d'Algérie*» : Tlemcen.

2) traduction de l'Italien par A. Epaulard.
LÉVI PROVENÇAL (E.) : *Extraits des historiens arabes du Maroc.*
MARÇAIS (J.) : *Tlemcen.*
MARÇAIS (W. et J.) : *Les monuments arabes de Tlemcen.*
PIESSE et CANAL : *Les villes d'Algérie : Tlemcen.*
PIQUET (V.) : *Les civilisation de l'Afrique du Nord.*
RICARD : *La menuiserie mauresque dans les monuments de Tlemcen.*
TERRASSE (H.) : *Histoire du Maroc.*

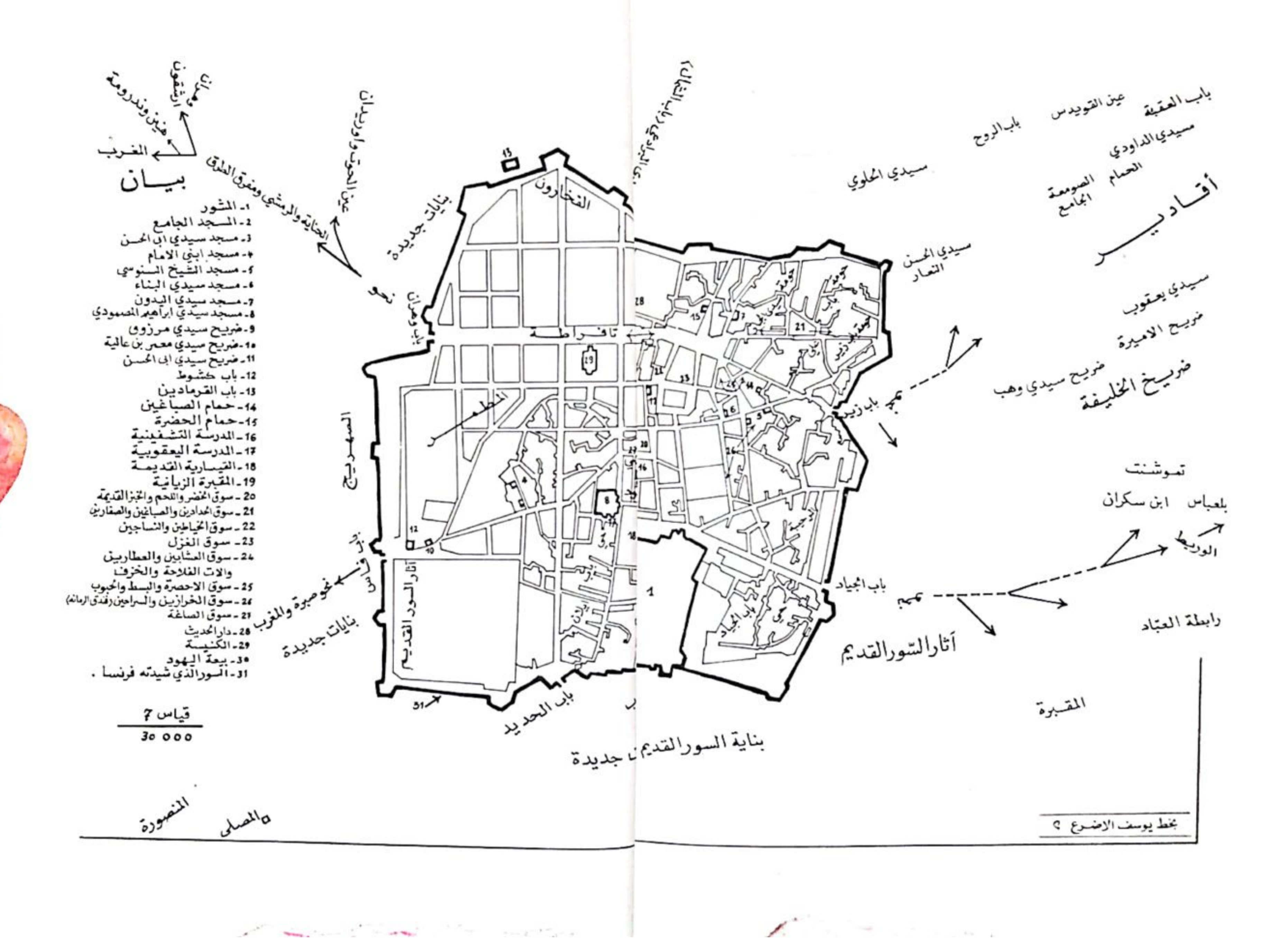
فهرس الموضوعات



باب العقبة
عين القويدس
باب الروح
سيدي الداودي
سيدي الحلوي
الحمام الصومعة
الجامع
أقادير
سيدي الحسن
النعار
سيدي يعقوب
ضريح الاميرة
ضريح سيدي وهب
ضريح الخليفة
باب زير
تموشنت
بلعباس ابن سكران
الوريط
باب الجياد
رابطة العبّاد
آثار السّور القديم
المقبرة
بناية السور القديم
بخط يوسف الاضرع ©


المغرب
هنين وندرومة
الحناية والرمشي ومفرق الطرق
نحو
بنايات جديدة
الفخارون
باب وهران
تافراطة
الصهريج
باب فاس
نحو صبرة والمغرب
بنايات جديدة
آثار السور القديم
باب الحديد
جديدة
بيـــان
1- المشور
2- المسجد الجامع
3- مسجد سيدي ابي الحسن
4- مسجد ابني الامام
5- مسجد الشيخ السنوسي
6- مسجد سيدي البناء
7- مسجد سيدي اليدون
8- مسجد سيدي ابراهيم المصمودي
9- ضريح سيدي مرزوق
10- ضريح سيدي معمر بن عالية
11- ضريح سيدي ابي الحسن
12- باب كشوط
13- باب القرمادين
14- حمام الصباغين
15- حمام الحضرة
16- المدرسة التشفينية
17- المدرسة اليعقوبية
18- القيسارية القديمة
19- المقبرة الزيانية
20- سوق الخضر واللحم والخبز القديمة
21- سوق الحدادين والصباغين والصفارين
22- سوق الخياطين والنساجين
23- سوق الغزل
24- سوق العشابين والعطارين والات الفلاحة والخزف
25- سوق الاحصرة والبسط والحبوب
26- سوق الخرازين والسراجين (فندق الرمانة)
27- سوق الصاغة
28- دار الحديث
29- الكنيسة
30- بيعة اليهود
31- السور الذي شيدته فرنسا .
قياس 7
30 000

المصلى
المنصورة



المغرب
بيان
1- المشور
2- المسجد الجامع
3- مسجد سيدي ابي الحسن
4- مسجد ابني الامام
5- مسجد الشيخ السنوسي
6- مسجد سيدي البناء
7- مسجد سيدي اليدون
8- مسجد سيدي ابراهيم المصمودي
9- ضريح سيدي مرزوق
10- ضريح سيدي معمر بن عالية
11- ضريح سيدي ابي الحسن
12- باب كشوط
13- باب القرمادين
14- حمام الصباغين
15- حمام الحضرة
16- المدرسة التشفينية
17- المدرسة اليعقوبية
18- القيسارية القديمة
19- المقبرة الزيانية
20- سوق الخضر واللحم والخبز القديمة
21- سوق الحدادين والصباغين والصفارين
22- سوق الخياطين والنساجين
23- سوق الغزل
24- سوق العشابين والعطارين والات الفلاحة والخزف
25- سوق الاحصرة والبسط والحبوب
26- سوق الخرازين والسراجين (فندق الرمانة)
27- سوق الصاغة
28- دار الحديث
29- الكنيسة
30- بيعة اليهود
31- السور الذي شيدته فرنسا .
قياس 7
30 000
بنايات جديدة
الفخارون
تافراطة
السهريج
آثار السور القديم
باب الحديد
بنايات جديدة
بناية السور القديم
جديدة
باب زير
باب الجياد
آثار السور القديم
سيدي الحلوي
سيدي الحسن النعار
باب العقبة
عين القويدس
باب الروح
سيدي الداودي
الحمام
الصومعة
الجامع
أقادير
سيدي يعقوب
ضريح الاميرة
ضريح سيدي وهب
ضريح الخليفة
تموشنت
بلعباس
ابن سكران
الوريط
رابطة العباد
المقبرة
المنصورة
المصلى
بخط يوسف الاضرع

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية — 1985

فشدّ ما يسرّنا أن نقدّم للقراء الكرام المتعطشين الى معرفة التاريخ القومي هذا البحث المتواضع حول حياة تلمسان السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والاقتصادية عبر العصور.

فقد سبقنا غيرنا في هذا المضمار ، ولقد تستحق بحوثهم التنويه ، الا أنهم يتناولون فيها الحديث عن جانب متعمّقين مطنبين بينما يتعرضون لغيره بصفة خاطفة أو يغفلون عنه بالكلية . أما نحن ، في كتابنا هذا ، فقد حاولنا أن نأتي ببحث شامل منسجم عن حياة تلمسان ـ حرسها الله وبارك في أهلها ، من القديم الى أيام الاحتلال الفرنسي . وذلك من جميع نواحيها . ولا نعني بذلك أننا قد أحطنا بجميع قضايا تاريخ هذا البلد ، ولكننا ، على كل حال ، عملنا ما في وسعنا لإبراز معالم الشخصية التلمسانية من جهة ، والدور الذي لعبته هذه المدينة في تاريخ الجزائر وما ترتّب عن هذا التاريخ من ازدهار وانكماش من جهة أخرى .

السعر في الجزائر : 42,82 د.ج.